تاريخ الأيوبيين والمماليك
في مصر والشام

دكتورة
ليلى عبد الجواد إسماعيل
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

تاريخ الأيوبيين و المماليك في مصر والشام

دكتـــورة
ليلى عبد الجواد إسماعيل
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

دار الثقـــافة العربيـــة
٣ ش المبتديان - السيدة زينب

تـــقـديـم

يسعدني أن أقدم للقارئ الكريم عامة وطلاب قسم التاريخ خاصة، صفحة من تاريخ مصر في عصري الأيوبيين والمماليك، وهي من أنصع صفحات تاريخ مصر في العصور الوسطى وأشرقها، صفحة سطرها أبطالها بعرقهم، وجدهم، وجهادهم ضد أعدائهم، أعداء الإسلام والمسلمين، صفحة كتبت بأحرف من نور لتضئ الطريق أمامنا جميعاً وتكون هادياً ومرشداً لنا دائماً أبداً.

يعرض هذا الكتاب لتاريخ دولتين الأولى هي الدولة الأيوبية، وهي وليدة تاريخ الحروب الصليبية في مصر والشام، لذلك قضت هذه الدولة أيامها في جهاد متواصل ضد الصليبيين، أثمر هذا الجهاد عن استرداد مدينة بيت المقدس من أيديهم على يد الناصر صلاح الدين في المرة الأولى، ثم على يد الناصر داود في المرة الثانية، ثم على يد الصالح نجم الدين أيوب في المرة الثالثة والأخيرة، لتظل هذه المدينة المقدسة في حوزة المسلمين، ولا يقدر لصليبي أن يدخلها حتى العصر الحديث.

أما الدولة الثانية وهي دولة المماليك فهي دولتان، كان على الأولى أقصد المماليك البحرية أن تواجه العدو اللدود للأيوبيين وهو الصليبيون، ثم تواجه عدوا جديداً بدأ يكتسح العالم الإسلامي أمامه ألا وهو المغول. وكانت هذه الدولة على قدر المسئولية، فقد تمكن سلاطينها من طرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام، بعد أن حرروا أنطاكية وطرابلس وعكا، وطردوا منها آخر جندي صليبي. ولا ينسى التاريخ دورهم الرائع في مواجهة تلك الأسطورة التي لا تقهر، التي أصبحت مالكة الدنيا من مطلع الشمس وحتى الفرات، فقد حقق السلطان المظفر قطز انتصاراً

را على تلك القوة العتيدة أعلى المغول، وإذا الأسطورة تتحطم أمـــام شـجاعة
نيك وقوتهم، وإذا بتلك الموجة العاتية نبأ وتتكسر أمام فرسان المماليك.

أما دولة المماليك الثانية الجراكسة فقد كان عليها أن تواجه أعداء جدد، في
مد العثمانيون، والتركمان، والبرتغاليون، في وقت بدأت تصاب فيه بالـــهرم
وخة، وقت بدأت فيه عوامل الضعف تتسرب إلى كيانها الداخلـــي، لتجعلـــها
عن المواجهة، وينجح العثمانيون في دخول الشام ومصر، ويسدلوا الســـتار
تلك الصفحة المشرقة من تاريخ مصر والشام.

له أسأل التوفيق والسداد

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

أ.د. ليلى عبد الجواد

فهرس المحتويات

الصفحة

- تقديم ٣
- فهرس المحتويات
- ميلاد الدولة الأيوبية ٧
- حملة شيركوه الأولى على مصر ٥٥٩هجرية/١١٦٤ميلادية ١٢
- وزارة صلاح الدين الأيوبي للخليفة الفاطمي العاضد ٢١
- الصعوبات التي واجهت صلاح الدين خلال فترة توليه الوزارة ٢٤
- صلاح الدين والقضاء على المذهب الشيعي في مصر ٢٨
- صلاح الدين وتأسيس الدولة الأيوبية ٣٢
- الصعوبات التي واجهت صلاح الدين بعد وفاة نور الدين ٣٦
- مؤامرة عمارة اليمني ٣٧
- وريثة نور الدين محمود (استكمال توحيد الجبهة الإسلامية) ٤١
- صلاح الدين وتحصين مصر ٤٨
- صلاح الدين والصليبيون ٥٣
- موقعة حطين واستعادة بيت المقدس ٥٧
- صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة ٦٤
- الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين ٧٠
- مصر في عهد العزيز عثمان ٧٣
- العادل واتجاه الحملات الصليبية نحو مصر ٧٦
- السلطان الكامل والحملة الصليبية الخامسة ٧٨
- السلطان الكامل والامبراطور فردريك الثاني ٨٨
- سلطنة الصالح نجم الدين أيوب ٩٩
- الحملة الصليبية السابعة على مصر ١٠٣
- توران شاه والصليبيون ١٠٩
- مقتل توران شاه ونهاية البيت الأيوبي ١١٢
- بعض مظاهر الحضارة في مصر والشام في العصر الأيوبي

أولا :-النظام المالي والإداري ١١٤

ثانيا الأحوال الاقتصادية في مصر في العصر الأيوبي ١٢٥

ثالثا: الحركة العلمية في الدولة الأيوبية ١٣٢

رابعا: الفنون والعمارة ١٣٦

خامسا: مظاهر الحياة الاجتماعية في مصر في العصر الأيوبي ١٤٠

- قيام دولة المماليك البحرية ١٤٦
- نشأة نظام المماليك ١٤٦
- جذور نظام المماليك ١٥٠
- سلطنة شجر الدر ١٥٣
- سلطنة المعز أيبك ١٥٨
- سلطنة الملك المنصور علي بن أيبك ١٦٥

- موقعة عين جالوت (٦٥٨ هـ/١٢٦٠م) ونتائجها
- سلطنة الظاهر ركن الدين بيبرس
- سياسة بيبرس الداخلية
- سياسة بيبرس الخارجية
- سلطنة المنصور قلاوون
- الأشرف خليل وطرد آخر البقايا الصليبية من بلاد الشام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م
- سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الأولى
- سلطنة العادل زين الدين كتبغا
- سلطنة المنصور حسام الدين لاجين
- سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية
- سلطنة المظفر بيبرس الجاشنكير (بيبرس الثاني)
- سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة
- إصلاحات الناصر محمد بن قلاوون في الداخل
- سياسة مصر الخارجية في عصر الناصر محمد بن قلاوون
- عصر أولاد الناصر محمد وأحفاده
- أهم أحداث عصر أولاد الناصر محمد وأحفاده
  أولا : الوباء الأسود " الفناء الكبير "
  ثانيا: حملة بطرس لوزجنان (لوزينان) على الاسكندرية
- دولة المماليك الجراكسة (البرجية)
- نشأة فرقة المماليك الجراكسة
- سلطنة الظاهر برقوق
- سلطنة فرج بن برقوق
- سلطنة الأشرف برسباي
- السلطان الظاهر جقمق
- السلطان الأشرف قايتباي
- السلطان قانصوه الغوري
- طومان باي وسقوط دولة المماليك
- بعض مظاهر الحضارة في عصر سلاطين المماليك
  أولا: النظام الإداري والمالي
  ثانيا : الاقطاع والجيش المملوكي
  ثالثا: النشاط الاقتصادي
  رابعا : الحياة الاجتماعية
- قائمة بأهم المصادر والمراجع

تاريخ الأيوبيين و المماليك
فى مصر والشام

ميلاد الدولة الأيوبية:-

ينتسب الأيوبيون الى نجم الدين أيوب بن شادى والد صلاح الدين، واختلفت المصادر حول أصل نسبهم، فيرى البعض أنهم يرجعون الى أصل عربى، فى حين ان غالبية المصادر ترى أنهم من الأكراد، ومن القبيلة الهذبانية، الذين كانوا يعيشون فى أعالى الموصل ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الموصل، ودخلوا فى خدمة صاحبها عماد الدين زنكى (٥٣٢هـ/١١٣٨م)، ثم فى خدمة ولده نور الدين محمود.

وتجدر الإشارة إلى أن الدولة الايوبية كانت وليدة الحروب الصليبية، ونتيجة هامة من نتائجها السياسية، فقد نجحت الحملة الصليبية الأولى فى تأسيس أربع إمارات صليبية فى بلاد الشام وهى : مملكة بيت المقدس، إمارة الرها، إمارة انطاكية، أمارة طرابلس ،وكان لتأسيس هذه الإمارات أثر سيىء ورد فعل عنيف فى العالم الاسلامى، لذلك قام بعض الزعماء المخلصين فى الشرق بحركة جهاد واسعة ضد الصليبيين، وحاولوا توحيد الجبهة الاسلامية للتصدى لهم وعلى رأس هؤلاء الزعماء عماد الدين زنكى اتابك الموصل وابنه نور الدين محمود.

وعماد الدين زنكى هو أحد قادة السلاجقة الذين تمركزوا فى أعالى الشام، وكانوا يدنيون بالولاء للخلافة العباسية وان كان ولاء اسميا، ونتيجة لضعف الخلافة بدأ يظهر ما يعرف بأسم الاتابكيات. وهى مشتقة من كلمة "اتابك"، والاتابك لفظة تركية تتكون من مقطعين "اتا"بمعنى أب و"بك"بمعنى الامير. وعلى هذا النحو فكلمة اتابك تعنى الأب الأمير أو الوالد الأمير، وتعنى أيضا الوصى والمربى لسلطان صغير أو أمير قاصر، فقد اعتاد سلاطين السلاجقة أن يعينوا

اتابكا أى وصى أو مربى لأبنائهم الصغار، يتولى تربيتهم وإعدادهم عسكريا وسياسيا .

ومال السلاجقة إلى إسناد حكم الأقاليم المختلفة فى سلطنتهم إلى اتباعهم وأفراد أسرتهم حتى ولو كانوا صغارا، وكان طبيعيا أن يصاحب الاتابك الأمير السلجوقى الصغير الى ولايته الجديدة باعتباره وصيا عليه، ومن ثم كان الاتابك يتولى جميع أمور الولاية نيابة عن الامير القاصر. وفى كثير من الاحيان كان الاتابك يتزوج من أم الامير القاصر الذى يتولى الوصاية عليه فتصبح العلاقة بينهما شبه أبوية، ويقوى الاتابك مركزه الادبى ويضمن الاستمرار فى منصبه حتى لو بلغ الامير سن الرشد .ونتيجة لذلك أصبح على رأس الولايات السلجوقية عدد من الاتابكة لايدينون للسلطان السلجوقى بأكثر من ولاء اسمى، ويتحينون الفرصة المناسبة للاستقلال بولاياتهم. ومن هنا ظهرت الاتابكيات، ومن أشهرها اتابكية عماد الدين زنكى فى الموصل .

تولى عماد الدين زنكى حكم الموصل فى عام ١١٢٧م، وسرعان ما تزايد نفوذه فاستولى على حلب فى عام ١١٢٨م، ثم استولى على حمص وبعلبك إلى جانب الموصل، ومن موقعه هذا بدأ يشعر بخطورة الوجود الصليبى فى بلاد الشام، لذلك بدأ حركة الجهاد ضدهم، ونجح بالفعل فى اسقاط امارة الرها أحدى الامارات الصليبية، التى أسسها الصليبيون فى بلاد الشام وذلك فى عام ١١٤٤م .

توفى عماد الدين زنكى فى عام٥٤٢هـ/ ١١٤٦م، وانقسمت مملكته بين ولديه غازى واتخذ من الموصل مقرا له.، ونور الدين محمود واتخذ من حلب مقرا له . وحمل نور الدين لواء الجهاد بعد وفاة أبيه، وقضى حياته من أجل تحقيق هدف اسمى وهو تطهير بلاد الشام من أيدى الصليبيين. ويقن نور الدين أن ذلك لا يتحقق الا بالاستيلاء على مصر والقضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية فيها، خاصة بعد نجاحه فى إقامة دولة إسلامية سنية، ضمت بين جنباتها دمشق وحلب وحمص وحماه. وبهذه الطريقة يمكن محاصرة الصليبيين بين شقى الرحى من الشمال الشرقى ومن الجنوب.

واذا كان نور الدين قد تطلع للسيطرة على مصر وضمها الى الشام، لإتمام توحيد الجبهة الإسلامية فان الصليبيين بدورهم قد وضعوا مصر نصب أعينهم للأسباب التالية :-

١) ادرك الصليبيون أن مفاتيح بيت المقدس فى القاهرة .

٢) شعر الصليبيون بأنهم لن ينعموا بالراحة والهدوء فى بلاد الشام، خاصة وأن جبهتهم الجنوبية، كانت غير مؤمنة .

٣) تمتع مصر بثروات وموارد طبيعية ضخمة .

لهذه الاسباب قام الصليبيون وخاصة ملوك مملكة بيت المقدس منذ وطئت اقدامهم أرض الشام بعدة محاولات للسيطرة عليها ومن هذه المحاولات ما يلى :-

١) قام بأولى محاولات السيطرة على مصر أول حاكم لمملكة بيت المقدس وهو جودفرى دى بوايون، الذى وضع مشروعا للاستيلاء على مصر ولكنه ما لبث أن توفى عام١١٠٠م قبل اتمام تنفيذ هذا المشروع .

٢) قام بثانى المحاولات خليفة جودفرى وشقيقه وهو بلدوين، الذى ما أن تولى عرش مملكة بيت المقدس حتى خرج على رأس حملة استطلاعية للسيطرة على مصر. ووصل بلدوين الى آيلة - على رأس خليج العقبة -ثم اتجه الى دير سانت كاترين فى شبه جزيرة سيناء عام١١١٦م، ولكن رفض رهبان الدير استضافته خوفا من السلطات الفاطمية فى القاهرة، لذلك اتجه بلدوين نحو الفرما ونهبها، ثم اتجه نحو تنيس -على شاطىء بحيرة المنزلة-ويقال أنه أكل هناك أكلة سمك، ومرض على أثرها ومات، ولاتزال هذه البحيرة أو جزء منها يسمى ببحيرة البردويل نسبة الى بلدوين ولا تزال هذه البحيرة حتى اليوم شاهدا على محاولة بلدوين غزو مصر ورغبة الصليبيين فى الاستيلاء عليها.

٣) **المحاولة الثالثة قام بلدوين الثالث ملك مملكة بيت المقدس كذلك، اذ هدد بلدوين بغزو مصر فى عام ١١٦٠م منتهزا فرصة الفوضى التى حلت بالدولة الفاطمية عقب مقتل الخليفة الفائز، لكن الحكومة الفاطمية استطاعت أن تثنيه عن عزمه**

هذا بأن تعهدت بدفع أتاوة سنوية مقدارها ١٦٠ الف دينار.

٤) المحاولة الرابعة وقام بها عمورى ملك بيت المقدس، الذى توج فى عام ١١٦٢م، وقام بمحاولة الاستيلاء على مصر فى العام التالى (١١٦٣م)، وذلك بحجة عدم وفاء الحكومة الفاطمية بدفع الإتاوة المقررة، وغزا عمورى الدلتا ووصل الى بلبيس وحاصرها، ولكن استغل الوزير الفاطمى ضرغام فرصة الفيضان وسيحان المياه واجبر عمورى على الانسحاب والعودة الى فلسطين.

ورغم فشل هذه الحملة وعودة عمورى الى بيت المقدس الا انها حققت له فوائد منها:-

- أطلعته على مدى ضعف مصر وعظم ثروتها، وسهولة الاستيلاء عليها مما جعله يعد العدة لغزوها مرة اخرى.
- أخافت جرأة عمورى وغزوه مصر نور الدين محمود فى الشام، الذى كان يتطلع للسيطرة على مصر كخطوة أولى لتحقيق الوحدة الاسلامية.

اما عن مصر التى تطلع كلا من الصليبيين ونور الدين محمود للسيطرة عليها، فكان يحكمها الفاطميون وهم شيعة، وعاشت مصر عصرين فى ظل حكمهم، العصر الاول هو عصر الازدهار والرخاء والعمران، اما العصر الثانى فهو عصر الفوضى والاضطراب، واطلق عليه (عصر الوزراء العظام) او (عصر ازدياد نفوذ الوزراء).

وتعرضت مصر خلال العصر الفاطمى الثانى وخاصة فى عهد الخليفة المستنصر لازمة اقتصادية حادة عرفت باسم "الشدة المستنصرية" وذلك فى عام ١٠٥٤م نتيجة لانخفاض فيضان النيل، مما ترتب عليه ارتفاع أسعار السلع، وحدوث المجاعات، وانتشار الاوبئة، وكثرة عدد الموتى، وانتشار الفوضى فى البلاد، وشعر الخليفة المستنصر بالعجز حيال هذه الازمة الاقتصادية الطاحنة، لذلك استدعى بدر الجمالى والى عكا، ليتولى تدبير الامور والقضاء على حالة الفوضى، وعهد اليه بالوزارة، ونجح بدر الجمالى بالفعل فى القضاء على حالة

الفوضى التى شهدتها مصر خلال فترة الشدة المستنصرية .ولكن بتولية بدر الجمالى الوزارة فى عام ٤٦٥هجرية /١٠٧٣م بدأت الدولة الفاطمية تدخل عصرها الثانى، وهو عصر ازدياد نفوذ الوزراء .

وسمى العصر الفاطمى الثانى بعصر ازدياد نفوذ الوزراء لان الوزراء أصبحوا أصحاب السلطة الفعلية فى البلاد دون الخلفاء، بل أصبحوا يتدخلون فى تعيين الخلفاء وفى عزلهم، وبالتالى أصبح الخلفاء العوبة فى ايديهم . وعبر ابن واصل عن ذلك بقوله : "والحكم للوزراء من قهر بالسيف أخذها، والخلفاء بمصر تحت قهرهم.." فقد حدث أن ولى الخليفة المستنصر ابنه نزار العهد ولكن الوزير الافضل بن بدر الجمالى حرمه من الخلافة بعد أبيه، ورشح لها أخيه المستعلى لانه كان ابن أخته، وقبض الوزير على نزار وعلى ابنه وحبسهما فى أحد حصون القاهرة، ثم بنى عليهما حائطا الى أن توفيا، مما ترتب عليه أن رفضت مجموعة من الاسماعيلية مبايعة المستعلى، ونادوا بإمامة نزار وأبنائه من بعده، وبذلك انقسمت الفرق الاسماعيلية الى فرقتين: النزارية والاسماعيلية المستعلية .

ومن مظاهر ازدياد نفوذ الوزراء كذلك محاولة الوزراء اضعاف مذهب الخليفة الفاطمى وأهل دولته كما فعل الوزير أبو على الذى كانت سياسته تنطوى على مناهضة المذهب الشيعى ومن أجل ذلك عين أربعة قضاة، اثنين شيعة واثنين سنة، واعطى لكل منهما السلطة فى أن يحكم وفق مذهبه، ولم يكن يسمح بذلك من قبل. كذلك اسقط الوزير أبو على ذكر اسماعيل بن جعفر الصادق، وابطل من الآذان عبارة "حى على خير العمل "وقولهم محمد وعلى خير البشر، بل واسقط الوزير اسم الخليفة الحافظ من الخطبة وخطب لنفسه. ويرى بعض المؤرخين أن الوزير أب على لو استمر فترة أطول فى الوزارة لقضى على المذهب الشيعى تماما.

وتلقب الوزراء كذلك بالقاب الخلفاء، فاتخذ الوزير طلائع لنفسه لقب "الملك الصالح "بل وكان يتطلع الى أبعد من ذلك بكثير وهو الخلافة ذاتها، ويظهر ذلك بجلاء من خلال حرصه على زواج ابنته من الخليفة العاضد لعلها ترزق منه بولد

فيجتمع بذلك لآل رزيك الخلافة مع الملك . وخلف الوزير طلائع ابنه العادل بن طلائع فى الوزارة، ولكنه لم يستمر فيها سوى خمسة أشهر .

ونظرا لاهمية منصب الوزير فى العصر الفاطمى الثانى، وما تمتع به الوزراء من مكانة سامية، وازدياد نفوذهم، وتنافسهم على هذا المنصب، أن غرقت البلاد فى حالة من الفوضى، كما أدى ذلك الى استعانة الطامعين فى هذا المنصب بالقوى الخارجية، مما ترتب عليه تطلع هذه القوى بدورها لبسط سلطانها على مصر .

فحدث فى عام ٥٥٨هجرية /١١٦٣م أن نشب صراع بين كل من شاور، والى الصعيد -الذى نجح فى انتزاع منصب الوزارة من العادل بن طلائع بن رزيك- وبين أبو الاشبال ضرغام بن عامر، أحد قادة الجيش الفاطمى حول منصب الوزارة، وذلك بعد تسعة أشهر فقط من توليه هذا المنصب .وتمكن ضرغام من هزيمة شاور، واجبره على الفرار الى بلاد الشام، وتولى الوزارة بدلا منه وفى بلاد الشام حاول شاور الاستعانة بنور الدين محمود، صاحب دمشق، وطلب منه امداده بحملة أو بجيش يستعين به على استعادة منصبه المغتصب، وتعهد شاور لنور الدين محمود فى مقابل ذلك بما يلى :-

-أن يدفع تكاليف الحملة كاملة .

-أن يدفع لنور الدين محمود ثلث دخل مصر كجزية سنوية .

-أن يدين لنور الدين محمود بالطاعة والولاء ويحكم مصر باسمه .

وعلى الرغم من تطلع نور الدين محمود إلى مد نفوذه إلى مصر من أجل توحيد الجبهة الاسلامية كخطوة أولى للقضاء على الوجود الصليبى فى بلاد الشام الا أنه تردد كثيرا قبل الموافقة على عرض شاور، وذلك لانه كان يخشى أن تتعرض قواته لضغط من قبل الصليبيين الموجودين فى بيت المقدس اذ كانوا يسيطرون على الطرق المؤدية الى مصر، وكان باستطاعتهم أن يقطعوا على نور الدين خطوط مواصلاته فى الذهاب والعودة .

على ان الظروف دفعت نور الدين الى قبول عرض شاور وارسال حملة معه الى مصر لمساعدته فى استعادة منصبه، خاصة بعد ان نمى لعلم نور الدين ان

ضرغام أسرع بالاتصال بعمورى ملك بيت المقدس، وطلب منه العون والمساعدة مقابل مبلغ سنوى من المال، ووافقت هذه الدعوى هوى فى نفس عمورى فبدأ يعد جيشا لمساعدة ضرغام .

حملة شيركوه الاولى على مصر ٥٥٩هجرية /١١٦٤ميلادية :-

وبعد مرور عام على لجوء شاور الى بلاط نور الدين محمود، جهز الاخير حملة وجعل على رأسها القائد العام لجيوشه وهو أسد الدين الجسور أو أسد الجبل، وكان أسد الدين شقيق نجم الدين أيوب والد صلاح الدين -الذى تنسب اليه الدولة الايوبية -وكان أسد الدين كما تصفه المصادر قصير القامة، أحمر الوجه، سمين، وقد اصطحب معه فى هذه الحملة ابن أخيه صلاح الدين، وكان أسد الدين يستشيره فى جميع الامور، ويعتد برجاحة عقله، وحسن تدبيره، هذا الى جانب درايته بشئون الحرب والقتال.

وصلت حملة نورالدين الىمصر وبصحبتها شاور، ونجح قائدها شيركوه فى هزيمة جيش ضرغام فى الشرقية ثم على أبواب القاهرة، وانتهى الامر بقتل ضرغام، فى اغسطس ١١٦٤م، وقام شيركوه بارسال رأسه إلى شاور الذى أمر بأن يطاف بها فى شوارع القاهرة وبذلك عاد شاور الى الوزارة .

وبعد أن تم لشاور ما اراد واستعاد منصبه، ارسل اليه شيركوه يستعجله الوفاء بالعهد الذى قطعه على نفسه لنور الدين محمود، غير أن شاور لم يف بالعهد، ونقض اتفاقه مع نور الدين وتنكر له، وأكثر من ذلك أرسل إلى شيركوه مبلغ ثلاثة آلاف دينار، وطلب منه أن يغادر البلاد ويعود الى الشام، ولكن شيركوه اصر على تنفيذ ما تم الاتفاق عليه، وقام بالاستيلاء على بلبيس، ونصب نفسه حاكما على اقليم الشرقية.

وأمام إصرار شيركوه، اتصل شاوربعمورى ملك بيت المقدس، وطلب منه العون والمساعدة، وخوفه من استيلاء نور الدين محمود على مصر، وأن هذا يعنى نهاية مملكة بيت المقدس الصليبية .وكانت هذه فرصة ذهبية للصليبيين

للاستيلاء على مصر، ولذلك خرج عمورى على رأس جيش على الفور الى مصر، واضطر شيركوه ازاء ذلك الى تركيز قوته فى بلبيس، وحصل على مساعدات من عرب كنانة المقيمين بها .

وحاصرت القوات الصليبية وقوات شاور أسد الدين شيركوه فى بلبيس ثلاثة أشهر. وعندما احس نور الدين بوضع شيركوه الحرج فى مصر، قام بمهاجمة ممتلكات الصليبيين فى الشام، وذلك للضغط على عمورى واجباره على سحب قواته من مصر، فاستولى نور الدين أولا على حارم -بين حلب وانطاكية - وعلى مقربة من الاخيرة، ثم اتجه نحو بانياس واستولى عليها كذلك، وشحنها بالمؤن والرجال. وعندما علم الصليبيون بذلك اضطروا الى رفع الحصار عن شيركوه، وتقرر عقد الصلح على ما يلى :-

أن يدفع شاور لشيركوه ثلاثين ألف دينار تكاليف الحملة، وأن يجلو كلا من الصليبيين وشيركوه عن مصر .واضطر شيركوه لتوقيع هذا الصلح بعد أن خسر عدد من رجاله، وقلت أقواته، وهكذا انتهت الحملة الأولى لنور الدين على مصر بالاتفاق بين شيركوه وعمورى على الانسحاب معا وفى وقت واحد من مصر .

حملة شيركوه الثانية على مصر ٥٦٢هجرية /١١٦٧ميلادية :-

وتوالت حملات نور الدين محمود، فأرسل حملة ثانية إليها فى ربيع الأول عام ٥٦٢هجرية /١١٦٧م بقيادة أسد الدين شيركوه، وكان بصحبته جماعة من الامراء من بينهم صلاح الدين بن أيوب .وثمة فارق جوهرى بين هذه الحملة والحملة السابقة يتمثل فى أن الحملة الاولى جاءت الى مصر بناء على طلب شاور، أما هذه المرة فكان الدافع وراء هذه الحملة هو الرغبة فى الاستيلاء على مصر خشية أن يستولى عليها الصليبيون، والقضاء على الخلافة الفاطمية التى كانت فى نظر نور الدين مصدرا للفرقة فى العالم الاسلامى، لانها قسمت ولاء المسلمين فى الشرق بين خلافتين ومذهبين :الخلافة العباسية السنية فى بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية فى القاهرة، ونور الدين حاكم سنى حريص على وحدة العالم الاسلامى .

هذا إلى جانب أن الخليفة الفاطمى العاضد، أرسل اليه يشكو استبداد شاور وظلمه، قائلا له : "أن شاور استبد وظلم وسفك الدم ". غير أن نور الدين محمود، لم يكن فى حاجة الى من يحرضه على شاور، فقد رغب فى الانتقام من شاور، وكان فى قلبه حزازة منه لكونه غدر بأسد الدين، واستنجد عليه بالفرنج .ولهذه الاسباب مجتمعة تعد حملة شيركوه الثانية بداية لتنفيذ سياسة نور الدين محمود فى الاستيلاء على مصر، وأول مراحل الصراع حول مصيرها بين المسلمين والصليبيين فى مملكة بيت المقدس .

واستنجد شاور بالصليبيين مرة أخرة وخاصة بعمورى ملك بيت المقدس الذى رأى ضرورة مساعدة شاور وذلك لامرين هما على نحو ما يذكر أبن واصل:-الطمع فى الاستيلاء عليها، والخوف من تملك العساكر النورية لها، لانهم علموا أنه أن ملكها نور الدين واستضافها الى البلاد الشامية، لم يبق لهم بالبيت المقدس والشام مقام.

ووصلت الحملة الصليبية وعلى رأسها عمورى الى مصر، وانضمت اليها قوات شاور والمصريين، وقبل القتال عقد الصليبيون اتفاقية مع الفاطميين وشاور، تضمن لهم أجرهم قبل القتال، ومحاربة شيركوه، فتعهد لهم شاور بدفع مبلغ أربعمائة ألف دينار اذا ساعدوه فى طرد شيركوه من مصر، على أن يدفع نصف المبلغ فورا، ورحب الصليبيون بعرض شاور هذا. واكسب عمورى هذه الاتفاقية صفة الشرعية بأن صدق عليها الخليفة الفاطمى العاضد، وقد جعلت هذه الاتفاقية من الصليبيين حماة لمصر وللخلافة الفاطمية.

وعسكر الصليبيون وشاور على الضفة الشرقية للنيل، أما شيركوه فقد عسكر فى الجيزة قبالة الفسطاط على الضفة الغربية للنيل، ووقف الجيشان وجهاً لوجه وكل منهما على مرمى البصر من عدوه، لا يفصلهما سوى الماء. وطال بقاء الفريقين أمام بعضهما مدة شهرين، ولكن ما لبث شيركوه أن اتجه نحو الصعيد فتبعه الصليبيون، والتقى الجمعان فى مكان يعرف بأسم "البابين"وهى قرية من قوى الاشمونين على مقربة من المنيا .وفى هذه المعركة، لعب أحد الجنود ويدعى شرف الدين برغش دورا هاما فى بث روح الحماسة فى نفوس جند شيركوه، ودفعهم إلى

القتال قائلا لهم بما معناه : "اذا ذهبتم الى بلادكم دون الاشتراك فى القتال، فإن نور الدين محمود سوف يطالبكم بالاقطاعات التى استوليتم عليها فى السنوات السابقة". أى منذ دخلوا فى خدمته ونتيجة لذلك اجتمعت الكلمة على القتال، وبدأت المعركة فى ٢٥ جمادى الآخر من عام ٥٦٢هـ/١٨ أبريل ١١٦٧م. حقق شيركوه انتصارا على الصليبيين، وليس أدل على ذلك من وقوع عدد كبير من الصليبيين فى الأسر، بل كاد عمورى نفسه يقع فى الاسر بعد أن أسر معظم رجالاته.

ويعلق ابن الاثير على انتصار شيركوه هذه الموقعة بقوله : "وكان هذا من أعجب ما يؤرخ أن ألفى فارس (عسكر شيركوه) فهزم عساكر مصر وفرنج الساحل".

وبعد معركة البابين رجع عمورى ورجاله وعسكروا قرب الفسطاط على الضفة الشرقية للنيل، أما شيركوه فقد اتجه بكامل قواته الى الاسكندرية فتلقاه أهلها طائعين وفتحوا أبواب مدينتهم بغير قتال، ويرجع ذلك الى أن أهل الاسكندرية كانوا فى جملتهم سنة يكرهون الدولة الفاطمية وقد حبها الشيعى، كما يكرهون شاور لاستعانته بالصليبيين أعداء الوطن والدين فضلاً عن أنهم كانوا أكثر احساسا بخطر العدوان الصليبي لوقوعهم على البحر .غير أن شيركوه عاد وخاف من أن يحاصره الصليبيون فى الاسكندرية ومعه جميع قواته لذلك ترك ابن أخيه صلاح الدين نائبا عنه فى الاسكندرية، واتجه هو على رأس الجزء الاكبر من قواته الى الصعيد ليستولى عليه .وعندئذ أسرع عمورى وشاور الى الاسكندرية، وحاصروا صلاح الدين بها، وشددوا عليه الحصار حتى قلت المؤن والطعام داخل الاسكندرية . وطالب الحليفان عمورى وشاور من أهل الاسكندرية أن يسلموهما صلاح الدين، فى مقابل أن يرفع شاور عنهم الضرائب والمكوس، ولكن رفض أهل الاسكندرية عرض شاور قائلين :"معاذ الله أن نسلم المسلمين الى الفرنج ".وأكثر من ذلك عبر أهل الاسكندرية لصلاح الدين عن استيائهم من تحالف شاور مع الصليبيين، وهذا الفعل الجليل لم ينساه صلاح الدين لأهل الاسكندرية، ومنذ ذلك الحين والاسكندرية وأهلها فى عقله وفى قلبه.

على أية حال استمر حصار الصليبيين وشاور لصلاح الدين طيلة ثلاثة أشهر، اضطر بعدها لطلب المساعدة من عمه شيركوه، الذى لبى ندائه على الفور وقدم من الصعيد لنجدته .ويقال أن الصليبيين عندما علموا بذلك طلبوا عقد الصلح مع شيركوه، فى حين أن فريقاً آخر يذهب الى القول بأن شيركوه، عندما أحس بحرج موقفه، أرسل الى الصليبيين يطلب عقد الصلح، وعرض شيركوه عليهم اطلاق سراح الاسرى الصليبيين فى معركة البابين فى مقابل رفع الحصار عن الاسكندرية، واطلاق سراح الاسرى المسلمين .

ومهما يكن من أمر فقد تم الاتفاق على عقد الصلح بين الطرفين على البنود التالية :-

١) أن يجلو شيركوه وعمورى ومعه الصليبيين عن مصر .

٢) أن يتحمل شاور جميع ما غرمه شيركوه فى حملته بالاضافة الى مبلغ خمسين ألف دينار .

٣) أن يحصل الصليبيون علىمبلغ مائة الف دينار سنويا من داخل مصر وأن يتركوا جماعة من مشاهير فرسانهم وأعوانهم فى مصر لحمايتها من قوات نور الدين محمود.مع تعيين "شحنة "ورئيس شرطة كمندوب يمثل الملك عمورى فى القاهرة، ويتولى حراسة أبواب القاهرة، ويكون له صوت مسموع فى شئون الحكم.

وهكذا لم يغادر عمورى القاهرة ومصر الا بعد أن حقق نوعا من السيادة على شاور والخلافة الفاطمية معا . وكذلك لم تفلح جولة نور الدين محمود الثانية لضم مصر الى الشام .

ومن الجدير بالذكر أن شيركوه حاول أثناء وجوده فى مصر خلال حملته هذه التحالف مع شاور ضد الصليبيين الموجودين فى مصر، والانقضاض عليهم والتخلص منهم مما يسهل على المسلمين القضاء على القوى الصليبية فى الشام، ولكن شاور كان يخشى من أسد الدين شيركوه خشيته من الصليبيين، ولذلك لم يستجب لدعوة شيركوه، وأضاع بذلك فرصة لا تعوض .

حملة أسد الدين شيركوه الثالثة مصر ٥٦٤هجرية /١١٦٩م:-

نتيجة لتواجد الصليبيين فى مصر بمقتضى الاتفاق الاخير، اتيحت لهم الفرصة لان يطلعوا على عورات البلاد، وما وصلت اليه من ضعف وأضطراب، مما جعلهم يطمعون فى الاستيلاء عليها، ولذلك أرسلوا الي ملكهم عمورى يغرونه بأمتلاكها ويهونون عليه فتحها قائلين له : "أن مصر لامانع لها ولاحافظ ". كذلك كاتب بعض المصريين -المعادين لشاور -عمورى، وحببوا إليه القدوم الى مصر، ومن هولاء شخص يدعى ابن الخياط وأخر يدعى ابن النحاس .

وادرك عمورى هذه المرة أنه فى حاجة الى قوة خارجية تساعده فى الاستيلاء على مصر وتكون سندا له ضد نور الدين محمود، ولذلك اتصل بالامبراطور البيزنطى مانويل كومنين(١١٤٣-١١٨٠م)، وعقد معه اتفاقية تنص على القيام بعمل مشترك بين الصليبيين والبيزنطيين لفتح مصر، مقابل أن يكون له جزء من مصر بالاضافة الى انطاكية، وقوى عمورى صلته بالامبراطورية البيزنطية عن طريق الزواج فارسل إلى الإمبراطور مانويل سفارة فى سنة ١١٦٥م برئاسة المؤرخ الصليبى وليم الصورى Wiliam of Tyre ، اقامته فى القسطنطينية سنتين، وأنهت مهمتها باختيار إحدى قريبات الامبراطور مانويل، وهى الاميرة مارى كومنين ابنة أخى الأمبراطور لتكون زوجاً لعمورى وملكة لبيت المقدس.

على أن هذه الاتفاقية بين عمورى ومانويل لم توضع موضع التنفيذ وذلك لانشغال الامبراطور البيزنطى بمشاكله فى البلقان، ولرغبة عمورى فى الانفراد بفتح مصر حتى لايشاركه البيزنطيون فى خيراتها وثرواتها كما أن الظروف فى مصر اجبرت عمورى على ضرورة الاسراع بالخروج الى مصر خاصة بعد أن تغيرت سياسة شاور تجاه الصليبيين نتيجة لفرض عمورى نوعا من الوصاية على الدولة الفاطمية، واحتفاظه بمندوب لحراسة أبواب القاهرة مما أزعجه .هذا إلى جانب أن الصليبيين الذين ظلوا فى مصر -وفقا للاتفاق الأخير -اساءوا حكم المسلمين، ويضاف الى ذلك أن الاتاوة التى كانت تدفعها الدولة الفاطمية للصليبيين أثقلت ميزانيتها. فضلا عن ذلك فقد اضطر شاور تحت ضغط الرأى العام

الاسلامى أن يغير سياسته تجاه الصليبيين .

واتصل شاور بنور الدين محمود، ثم ارسل اليه ابنه الكامل شجاع ليعلن له ولائه ومحبته والدخول فى طاعته، وعقد اتفاق بين الطرفين، وعرض شاور أن يتزوج ابنه الكامل شجاع من أخت صلاح الدين، أو يتزوج صلاح الدين من ابنة شاور. ولذلك اسرع عمورى بالخروج على رأس حملته الثالثة لفتح مصر، ويلاحظ أن موقف المصريين تغير هذه المرة، فقد أغلقت بلبيس أبوابها فى وجهه تلك المرة، وعندما طلب من حاكمها وهو طى بن شاور أن يسمح له ولجنوده بأن يعسكروا داخلها أجابه طى "أتحسب بلبيس جبنة تأكلها"، فأجاب عمورى : "نعم بلبيس جبنة والقاهرة زبدة ". وازاء رفض طى السماح له بدخول المدينة، قام عمورى بالاستيلاء عليها بالقوة، وقتل كثيراً من أهلها، ثم تقدم وعسكر عند بركة الحبش جنوب الفسطاط .

وعندئذ غضب شاور وأصابه الهلع والفزع، لأن الصليبيين لم يأتوا هذه المرة أصدقاء بل جاءوا طامعين فى احتلال مصر، لذلك قام شاور باخلاء الفسطاط، وأشعل النيران فيها بعد أن طلب من سكانها الرحيل عنها والنزوح إلى القاهرة، وظلت النيران مشتعلة بها لمدة ٥٤يوما، ودمر الحريق ما بها من الآثار الاسلامية. وازاء ذلك قام عمورى بنقل معسكره أمام القاهرة التى عزمت على المقاومة. وشدد عمورى الحصار على القاهرة، وضيق الخناق علي أهلها، وعندما عجز شاور عن مقاومتهم لجأ الى الحيلة، فاتصل أولا بعمورى وأظهر له خوفه من نور الدين محمود، وعرض عليه أن يعقد معه صلحا على أن يؤدى اليه ألف ألف دينار، يدفع جزء منها عاجلا، ويؤجل الباقى لوقت آخر، ورحب عمورى بالعرض خشية من تدخل نور الدين.

وأرسل شاور فى ذات الوقت الى نور الدين يطلب مساعدته، وكان الخليفة العاضد نفسه هو سفيره إليه، وتعهد شاور لنور الدين بأن يتنازل له عن ثلث الأراضى المصرية، وأن يسمح لشيركوه بالاقامة فى مصر مع جنوده، وأن تكون اقطاعاتهم خارج ثلث البلاد الذى خصص لنور الدين محمود .وقبل نور الدين

العرض وأسرع بارسال حملته الثالثة إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه بعد أن امده بالرجال والأموال. وخرج صلاح الدين فى هذه الحملة على كره منه، فعندما طلب منه عمه شيركوه أن يتجهز للرحيل قال "وكأنما قلبى مزق بسكين"، وقال أيضا "لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها" وذلك لما قساه فى الاسكندرية من الصليبيين. وقد علق المؤرخ أبو شامة على موقف صلاح الدين هذا بقوله "عجبا لاناس يساقون إلى الجنة بسلاسل".

على أية حال وصلت حملة نور الدين الى مصر بينما كان عمورى معسكرا بقواته أمام أسوار القاهرة، وكان عمورى يأمل أن يقاتل شيركوه وقواته وهم متعبون، ولكن عبر شيركوه الصحراء الشرقية إلى القاهرة، وقد انضم اليه المصريون، والتفوا حوله ليحميهم من الصليبيين، وبذلك تحالف المسلمون جميعا ضد عمورى .وهنا ادرك عمورى أنه لا طريق أمامه سوى الرحيل الى بيت المقدس .

وترك عمورى القاهرة، وأخذ طريقه إلى بيت المقدس فى أوائل سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م، بعد أن أدرك صعوبة الاستيلاء على مدينة كبيرة مثل القاهرة، خاصة بعد أن تحالف أهلها مع شيركوه. ودخل شيركوه القاهرة فرحب به أهلها، واستقبله الخليفة العاضد استقبال البطل المخلص .

وحقد شاور على شيركوه، وحاول التخلص منه ومن امرائه جميعا بوليمة يولمها لهم، غير أن ابنه الكامل منعه من ذلك وقال له "والله أن فعلت هذا لاعلمن أسد الدين"، فرد عليه شاور قائلا "والله ان لم أفعل لنقتلن جميعا"، فأجاب الكامل شجاع "أعرف ذلك ولان نقتل ونحن مسلمون والبلاد فى أيدى المسلمين خير من أن نحيا وهى فى أيدى الفرنج".

وتراجع شاور عن موقفه من شيركوه، وأظهر له المودة والمحبة، وحرص على زيارته باستمرار، غير أن العاضد وصلاح الدين أحسوا بخطورة وجود شاور، وأنه سبب فساد البلاد والعباد، لذلك انتهز صلاح الدين وجماعة من أصحابه فرصة خروج شيركوه لزيارة الأمام الشافعى وقدوم شاور لزيارته كعادته،

وانقضوا عليه وقتلوه هو وابنه، واباحوا للعامة نهب قصره .

وبعد التخلص من شاور، عين الخليفة العاضد أسد الدين شيركوه فى الوزارة، وقلده جميع أمور البلاد، ولقبه "بالملك المنصور أمير الجيوش"، ويذكر المؤرخ الفرنسى شلمبرجيه Schulmberger أن هذا اللقب يعنى (الأمير المنتصر قائد القوات المصرية). أصبح شيركوه بذلك صاحب السلطة الفعلية فى البلاد، وأخذ أرباب المصالح يترددون عليه لقضاء حوائجهم (٥٦٤هـ/١١٦٩م) .

وكان تولى أسد الدين الوزارة فى مصر، يعنى أن مصر أصبحت جزءا من دولة نور الدين محمود، كما يعنى أن الجبهة الاسلامية امتدت لتشمل مصر ووادى النيل، وتحقق بذلك أمل نور الدين فى ضم مصر إلى الشام فى جبهة واحدة، هذا ويعطى تولى شيركوه الوزارة المصرية كذلك صورة عن مدى ضعف الدولة الفاطمية، فشيركوه قائد حربى سنى المذهب شامى وليس مصرى، فضلا عن كونه رجل نور الدين محمود . .

واستطاع أسد الدين خلال فترة توليه الوزارة الفاطمية والتى لم تتعد الشهرين وخمسة أيام أن يقبض على زمام الامور فى البلاد، وأن يقضى على الفوضى والاضطراب، ولكنه ما لبث أن توفى على أثر أكلة دسمة لانه كما يقول ابن واصل "كان يحب اللحم السمين" وذلك فى ٢٢من شهر جمادى الثانى ٥٦٤هـ/١١٦٩م، واختار الخليفة العاضد ابن أخيه صلاح الدين ليكون وزيرا له.

وزارة صلاح الدين الأيوبى للخليفة الفاطمى العاضد :-

تولى صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة خلفا لعمه شيركوه، وكان عمره فى الحادية والثلاثين من عمره، وكان معه عدد من قادة الجيش النورى ممن يكبرونه سنا من أمثال : عين الدولة الياروقى وسيف الدين على بن المشطوب وشهاب الدين الحارمى خال صلاح الدين، وكان هؤلاء جميعا يتطلعون بل يطمعون فى تولى وزارة العاضد، ومع ذلك فقد وقع الاختيار على صلاح الدين ليكون وزيرا بموافقة هؤلاء القادة وبمحض اختيار الخليفة العاضد نفسه فلماذا؟

أولا بالنسبة لقادة الجيش النورى، فقد كان من بينهم من يتصف بالحكمة أمثال عيسى الهكارى الذى بذل جهودا كبيرة من أجل اصلاح الامور لصلاح الدين، وذلك عن طريق اقناع باقى قادة الجيش النورى باهمية تولى صلاح الدين الوزارة، وفى نهاية الأمر أجمع معظمهم على قبول اختيار صلاح الدين للوزارة وذلك خشية حدوث المؤامرات والصراعات فيما بينهم حول هذا المنصب مما يؤدى الى تفكك الجيش النورى، وبالتالى يصبح من السهل على خصومه أن ينتهزوا هذه الفرصة ويقضوا عليه.

ثانيا بالنسبة للخليفة العاضد، اختلفت الاراء حول سبب اختياره لصلاح الدين بالذات دون غيره من قادة الجيش النورى، فيرى البعض أن العاضد اختاره لصغر سنه وقلة خبرته، فهذا سيجعله اداة سهلة فى يد الخليفة، يستعين بها فى القضاء على بقية امراء نور الدين محمود فى مصر، وذلك لأن توليه الوزارة دونهم وهو أصغرهم سوف يثير حقدهم وكراهيتهم، ويثير كذلك الفتن والمؤامرات بينهم مما يترتب عليه ضعف الجيش النورى وتفككه وبالتالى يسهل على الخليفة التخلص منه، وتصبح الفرصة مهيأة لاحياء الخلافة الفاطمية من جديد، ولكن خاب أمله. هذا فى حين يرى البعض الأخر أن الخليفة العاضد اختار صلاح الدين لضعفه وقلة اتباعه، ولذلك لايجرؤ على مخالفته، ويكون طوع أمره ورهن اشارته أى يكون "اسلس قيادة وأطوع لأمره". وهناك فريق ثالث يرى أن العاضد أعجب بعقل صلاح الدين وسداد رأيه وشجاعته وكرمه وصباحته واقدامه لذلك سارع الى تقليده الوزارة .

على أية حال فقد عين صلاح الدين وزيرا للخليفة العاضد، الذى خلع عليه الوزارة ولقبه "بالملك الناصر". وما أن تولى صلاح الدين الوزارة حتى بدأ يدخل مرحلة جديدة فى حياته، فأعرض عن أسباب اللهو وشرب الخمر، وتقمص بلباس الجد والاجتهاد كما يقول أبو شامة، وبدأ يتصف بالاتزان والاستقامة .

وحاول صلاح الدين خلال فترة توليه الوزارة التقرب من المصريين عن طريقين :- الأول هو استمالتهم بالأموال، فقد قام بتوزيع الاموال التي جمعها عمه

أسد الدين شيركوه عليهم .

والثانى هو التودد الى المصريين بالغاء سلسلة كبيرة من الضرائب الفاطمية التى ارهقت سكان مصر، والتى كانت تقدر ب ٧٧ مكسا، وملاءت ثلاث صفحات من كتاب المقريزى "المواعظ والاعتبار"، ومن بين الضرائب التى الغاها صلاح الدين :-

- ضرائب على حوانيت القاهرة والفسطاط .
- ضريبة يدفعها التاجر اذا باع تجارته، كذلك الغى رسوم الاسواق، وكانت تؤخذ نظير دخول السوق .
- رسم العبور وهو عبارة عن ضريبة تؤخذ من صاحب الماشية التى يريد أن ينقلها من مكان الى آخر .
- ومن المكوس التى الغاها صلاح الدين كذلك مكس البهار، ومكس معدية الجسر بالجيزة، كذلك أبطل رسم الخمور بالقاهرة والاسكندرية .وبذلك نجح صلاح الدين فى اكتساب محبة المصريين .

ونجح صلاح الدين أيضا فى استمالة الخليفة العاضد نفسه، فتقرب إليه بما يرضيه، فأحبه الخليفة لدرجة أنه كان يسمح له أن يدخل عليه القصر راكبا، ويجعله يقيم عنده فى القصر عدة أيام، حتى حسده الامراء خاصة ان الخليفة أمسى لايعمل الا بمشورته .

أما بالنسبة لسيده نور الدين محمود فقد امرصلاح الدين بأن يذكر اسمه فى الخطبة بعد الخليفة الفاطمى العاضد مؤكدا بذلك أحقيته فى مصر .وبذلك اكتسب صلاح الدين رضى نور الدين محمود بدليل أنه عندما طلب منه أن يرسل إليه أخوته وأهله وعشيرته، رحب نور الدين وأرسلهم إليه على الفور، ومنهم أخاه تورانشاه، وابن أخيه تقى الدين عمر، وأبوه نجم الدين، وقام صلاح الدين بتوزيع الاقطاعات عليهم، فأعطى أبوه الاسكندرية والبحيرة، وأعطى أخوه تورانشاه

عيذاب وقوص واسوان، وأسند الى أهله المناصب الكبرى، واستبد بـالأمور فـي البلاد.

الصعوبات التى واجهت صلاح الدين خلال فترة توليه الوزارة :-

واجه صلاح الدين على أثر توليه الوزارة عدة صعوبات فى الداخل وفى الخارج. ففى الداخل، كان عليه أن يواجه مؤامرة (٥٦٤هـ/١١٦٤م) قام بها رجال القصر الفاطمى، أما عن أسباب هذه المؤامرة فهى :-

أولا: استياء رجال القصر الفاطمى من استبداد صلاح الدين بامور الدولة.

ثانيا : محاولة صلاح الدين اضعاف شأن الخلافة، فقد أصبح الخليفة معه مجرد "صورة لا أمر له ولانهى "على حد تعبير ابن تغرى بردى .

ثالثا: شعر رجال القصر الفاطمى أنهم أمام وزير مختلف، وزير قام بانقاص اقطاعاتهم ووزعها على رجاله وأصحابه وأقاربه. وبذلك ثقلت وطأة صلاح الدين على رجال القصر الفاطمى وأهله .

رابعا : كان من بين رجال القصر الفاطمى من يتطلع الى الوزارة ذاتها، وعلى رأس هؤلاء "مؤتمن الخلافة جوهر" قائد الجند السودان، والمهيمن على القصور الفاطمية بما فيها من كنوز وثروات .

لذلك قام مؤتمن الخلافة بالتآمر على صلاح الدين بمشاركة رجال القصر الفاطمى، وحاول مؤتمن الاتصال بالصليبيين فى الشام وخاصة بعمورى ملك بيت المقدس، ليشترك معه فى تنفيذ هذه المؤامرة، وطلب منه القدوم الى مصر وسوف يكون عونه فى الاستيلاء عليها .ولكن مؤامرة مؤتمن الخلافة انتهت بالفشل اذ نجح صلاح الدين فى القبض على رسول مؤتمن الذى ارسله الى الصليبيين، فقد كان على هذا الرسول أن يعبر اقليم الشرقية متخفيا فى ملابس متسول، حافى القدمين، يضع تحت ابطه حذاء جديد مما جعل عيون صلاح الدين وجواسسه يشكون فيه، ويقبضون عليه، وارسلوه بعد ذلك إلى صلاح الدين الذى فتح الحذاء، واكتشف وجود رسالة مؤتمن الخلافة إلى عمورى بداخلها .وبذلك تم اكتشاف المؤامرة

والقبض على مؤتمن الخلافة وقتله فى اغسطس عام ٥٦٤هـ/١١٦٩م. وتخلص صلاح الدين بذلك من تلك المؤامرة، ثم اتخذ الحيطة لنفسه بأن عين الامير "بهاء الدين قراقوش " زماما للقصر الفاطمى أى مشرفا عليه مقام مؤتمن الخلافة، فما كان يدخل إلى القصر شئ ولا يخرج منه شئ الا بمرأى منه ومسمع، فضاق خناق أهل القصر بسببه، على حد تعبير ابن واصل، كما حاول صلاح الدين ابعاد الجند السودان عن القصر الفاطمى .

وتعرض صلاح الدين كذلك -خلال وزارته -لثورة قام بها الجند السودان، بسبب مقتل زعيمهم مؤتمن الخلافة جوهر، ومحاولة صلاح الدين ابعادهم عن القصر الفاطمى، وثار الجند السودان عند القصر، بعد أن جمعوا أعداداً كبيرة منهم، فأرسل صلاح الدين إليهم قائده "حسام الدين بن أبى الهيجاء السمين" للتصدى لهم. ودار قتال بين الفريقين عند بين القصرين بالقاهرة، واستمر القتال لمدة يومين، وقيل أربعة أيام، وحاول الجند السودان الفرار الى الجيزة، وعندئذ كان فى انتظارهم (تورانشاه)، أخو صلاح الدين فقاتلهم فلم ينج منهم "الا الشريد "على حد تعبير المصادر. وهكذا تمكن صلاح الدين من القضاء على ثورة الجند السودان .وقام رجال صلاح الدين بإشعال النيران فى محلة عظيمة لهم عند باب زويلة، تعرف بالمنصورية وأحالها إلى بستان .

كذلك احتاط صلاح الدين لنفسه بأن اشعل النيران فى ثكنات حرس الخليفة من الأرمن، وقام بالقبض عليهم حتى لا يعطيهم فرصة للقيام بما قام به الجند السودان .وبذلك نجح صلاح الدين فى القضاء على عناصر المعارضة .

ولم يبق أمام صلاح الدين الا كبار الاقطاعين وملاك الاراضى الزراعية الذين دفعهم الحرص على ممتلكاتهم وضياعهم الواسعة إلى مساندة الاوضاع القائمة، فتخلص منهم أيضا، وقام صلاح الدين بتوزيع اقطاعاتهم على رجاله وأقاربه .

(الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط ٥٦٥هـ/١١٦٩م):-

وتعرض صلاح الدين لخطر خارجي يتمثل فى، جاء من قبل الصليبيين فى الشام، وعلى رأسهم عمورى ملك بيت المقدس، فقد أحس الصليبيون بالقهر، كما

أيقنوا بالهلاك، على حد تعبير المصادر، لاستيلاء صلاح الدين على مصر بأسره نور الدين، اذ ترتب على ذلك تهديد وجودهم فى بلاد الشام، واحاطت قوات نور الدين بمملكة بيت المقدس من الشمال الشرقى والجنوب الغربى، وسيطر نور الدين وقائده صلاح الدين علي موانئ مصر الهامة وعلى رأسها الاسكندرية ودمياط وغيرها .وكان ذلك يعنى فقدان الصليبيين لسيادتهم البحرية على الحوض الشرقى لبحر المتوسط، وتحول هذه السيادة إلى المسلمين .

وقد سبب ذلك فزعا لعمورى فسعى الى الاستنجاد بملوك أوربا، وأرسل سفارة الى فردريك بربروسا امبراطور المانيا، ولويس السابع ملك فرنسا، وهنرى الثاني ملك انجلترا وغيرهم، ليقوموا بحملة صليبية جديدة ينقذون من خلالها أخوانهم فى الشرق، ولكنهم لم يلبوا نداء عمورى لانشغالهم بأمور تتعلق ببلادهم، وبما كان ينشب بينهم من نزاع وهروب واكتفوا بارسال الاموال والاسلحة والرجال له. لذلك اتجه عمورى نحو الدولة البيزنطية وامبراطورها فى ذلك الحين هو مانويل كومنين للاشتراك سويا في الهجوم على مصر واقتسامها، فرحب مانويل بذلك على أمل أن يحقق أطماعه فى توسيع رقعة بلاده . وتم الاتفاق بينهما على غزو مصر برا وبحرا واقتسامها، وأرسلت الدولة البيزنطية أسطولا ضخما، على رأسه قائد يدعى اندرونيق كونتوستيفانوس، وخرج هذا الاسطول من الدردنيل متجها نحو بلاد الشام، فمر بقبرص حيث انضمت إليه ستون سفينة بيزنطية أخرى، ثم اتجه إلى صور ووصل إلى عكا . وهناك تم الاتفاق على الخطة المشتركة لغزو مصر .

وخرج الاسطول البيزنطى من عكا وبصحبته قوات عمورى التى سلكت الطريق البرى من عسقلان ومنها الى الفرما. واختار الصليبيون والبيزنطيون مهاجمة مصر عن طريق دمياط بالذات وذلك لسهولة الوصول اليها برا وبحرا، ولقربها من مراكز تجمع الصليبيين فى الشام، فضلا عن أنها واحدة من ثلاث مدن هامة، من يستطع الاستيلاء عليها يمكنه السيطرة على مصر بأسرها وهى الاسكندرية، والقاهرة، ودمياط، كما أن دمياط تعد على حد تعبير الصليبيين أنفسهم

قفل الديار المصرية، ومن يستطع فتحه يصبح له موطأ قدم على أرض مصر، ويستولى عليها وظهره مؤمن .

وحاصر الصليبيون والبيزنطيون دمياط فى عام ٥٦٥هـ /١١٦٩م حصارا شديدا برا وبحرا، وضيقوا الخناق علي أهلها، وكان صلاح الدين قد قام بتحصين بلبيس والقاهرة على اعتقاد منه أن الصليبيين سوف يدخلون القاهرة عن طريق الشرقية، ولكن خاب ظنه، ولذلك أصبح صلاح الدين فى حيرة من أمره، فلو أرسل قواته الى دمياط وخرج معها لا يأمن شر رجال القصر الفاطمى، ولو ظل فى القاهرة قد يستولى الصليبيون والبيزنطيون على دمياط، لذلك أرسل صلاح الدين العساكر فى النيل وعلى رأسهم خاله شهاب الدين محمود الحارمى وابن أخيه تقى الدين عمر الى دمياط.

وحشد صلاح الدين كل ما لديه من أموال وأسلحة وذخائر وأرسلها معهم إلى دمياط، وفى نفس الوقت طلب المدد من نور الدين محمود، وارسل إليه يشكو ما هو فيه من المخاوف، وأنه ان تخلف عن دمياط استولى عليها الصليبيون ومعهم البيزنطيين .فما كان من نور الدين الا أن قسم جيشه قسمين، أرسل أحدهما إلى دمياط لمساعدة أهلها فى مواجهة الحصار، وبفضل هذا المدد الذى ارسله نور الدين وبفضل الدور الذى لعبه أهل دمياط فى الدفاع عن مدينتهم، اذ انتهزوا فرصة جريان النيل من الجنوب إلى الشمال ورموا على سطح الماء اوانى فخارية بها مواد مشتعلة، انزلت أبلغ الضرر بالاسطول البيزنطى فاضطر إلى الابتعاد عن المدينة .

ونجحت المدينة فى مقاومة الحصار الصليبي البيزنطى الذى استمر خمسين يوما، وفشلت الحملة الصليبية البيزنطية فى تحقيق الهدف الذى جاءت من أجله، ويرجع سبب فشلها الى عدة عوامل من بينها :-

أولا:- طول مدة الحصار الذى استمر خمسين يوما وما ترتب على ذلك من نقص فى المؤن عند الصليبيين والبيزنطيين .

ثانيا :- اختلاف الصليبيين والبيزنطيين حول خطة فتح دمياط، فبينما رأى البيزنطيون ضرورة مهاجمة المدينة دفعة واحدة، ليفرغوا من أمرها خاصة

بعد أن أخذت مؤنهم فى التناقص رفض عمورى ذلك خوفا من الهزيمة، واقترح الانتظار حتى ينشىء أبراجا خشبية تمكنه من مهاجمة الأسوار العالية. وترتب على ذلك أن غضب القائد البيزنطى، وعقد مجلساً من قواده لبحث الموقف، وانتهى الرأى بينهم على أن ينفردوا هم بمواجهة المدينة، وهكذا بدأ الخلاف يظهر بين المتحالفين من الصليبيين والبيزنطيين، مما أضعف من جانبهم .

ثالثا:- بدأ كل فريق يشك فى الاخر، ولذلك راح الصليبيون يتصلون بالمصريين خشية ان تسقط دمياط فى أيدى البيزنطيين، وينفردون بالاستيلاء عليها.

رابعا :- دور حامية دمياط التى استمات فى الدفاع عن المدينة، كذلك الدور الذى لعبه أهل دمياط، فقد قذفوا الاسطول البيزنطى بكرات من القطن المشتعلة، فشبت النيران فى سفن الاسطول، وانزلت به أبلغ الضرر .

خامسا :- الدور الذى لعبه نور الدين محمود فبعد أن قسم جيشه، أرسل جزء منه لمساعدة أهل دمياط فى مقاومة الحصار، وخرج على رأس القسم الثانى، وهاجم املاك الصليبيين فى بلاد الشام ومن أهمها حصن الكرك وغيره من المدن التابعة للصليبيين، كان يقصد بذلك "شغل قلوبهم " على حد تعبير المصادر. ولتتحرك الفرنج إلى حفظ البلاد الشامية ويشتغلوا عن دمياط. على نحو ما يذكر ابن واصل وبالفعل بدأ عمورى يحس بالقلق على ممتلكاته بالشام، وأسرع برفع الحصار عن المدينة. وعاد هو والبيزنطيون الى بلادهم يجرون أذيال الخيبة والعار دون أن يحققوا أملهم فى الاستيلاء على مصر .

وقبل الحديث عن النتائج التى ترتبت على هذه الحملة، يجب أن نشير الى الدور الهام الذى لعبه الخليفة الفاطمى العاضد أثناء الحصار، فقد قدم لصلاح الدين كل ما وجد فى خزائن الخلافة من أموال وثياب وغيرها، حتى يستطيع أن يعد جيوشا قادرة على محاربة الصليبيين والبيزنطيين وصدهم عن مصر، مماكان عونا لصلاح الدين على القيام بهذه المهمة . فيذكر ان واصل : " ما رأيت اكرم من العاضد، أرسل إلى مدة مقام الفرنج على دمياط، الف الف دينار مصرية سوى

الثياب وغيرها. أما عن النتائج التى ترتبت على فشل الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط خلال وزارة صلاح الدين فتتمثل فيما يلى :-

- انصراف الصليبيين عن التدخل فى شئون مصر ولو إلى حين .
- عزز فشل الحملة موقف صلاح الدين فى مصر، وكبر فى أعين المصريين، وجعل الخلافة تفقد أخر أمل لها فى التخلص من قبضته القوية، كما جاء برهانا قويا على كفايته وجدارته.
- بدأ نور الدين محمود يصبح خطرا حقيقياً على الصليبيين فى بلاد الشام، لأن ممتلكاته وجيوشه أصبحت تطبق على الصليبيين من الشمال والجنوب.
- شجع فشل تلك الحملة صلاح الدين على القيام باغارات متتابعة ومتتالية على أملاك الصليبيين لتأمين حدود مصر الشرقية، فخرج إلى الرملة، وغزة وعسقلان وأيلة، ونجح فى الاستيلاء على الاخيرة .

صلاح الدين والقضاء على المذهب الشيعى فى مصر :-

وبعد أن شعر صلاح الدين باستقرار سلطته فى مصر، بدأ يعمل على القضاء على المذهب الشيعى فيها، وإعادة المذهب السنى، وأتخذ فى هذا السبيل عدة خطوات من بينها :-

أولا:- عزل صلاح الدين قضاة الشيعة وعين قاضيا واحدا لجميع أنحاء الديار المصرية على المذهب الشافعى، ويدعى هذا القاضى "صدر الدين بن عبد الملك بن درباس ".

ثانيا :-شرد صلاح الدين دعاة الشيعة الفاطميين، والغى مجالس دعوتهم فى القصر الفاطمى وفى الجامع الازهر .

ثالثا :-عمل صلاح الدين على اقتلاع المذهب الشيعى من جذوره، فأبطل الآذان ب "حى على خير العمل محمد وعلى خير البشر "، ثم أمر بأن تذكر أسماء الخلفاء الراشدين فى الخطبة يوم الجمعة فى الجامع الازهر، ثم أبطل الخطبة فى الجامع الأزهر وظلت هكذا لمدة مائة عام حتى أعيدت ثانية فى عهد السلطان

الظاهر بيبرس (١٢٦٠-١٢٧٧م) فى عصر دولة المماليك البحرية .

رابعا :-أنشأ صلاح الدين المدارس المختلفة لتحل محل الازهر فى القيام بنشر المذهب السنى بدلا من المذهب الشيعى، ومن أهم هذه المدارس، المدرسة الشافعية، وتقع بجوار جامع عمرو بن العاص، وهى أول مدرسة أنشأها صلاح الدين، لتدريس المذهب الشافعى، وخصصت للفقهاء الشافعية، وأوقف عليها صلاح الدين الأوقاف ومنها حى الصاغة وأحدى قرى مصر .

وأنشأ صلاح الدين كذلك المدرسة المالكية أو (المدرسة القمحية) وكانت أيضا بجوار جامع عمرو بن العاص، وكانت تدرس المذهب المالكى، وخصصت لفقهاء المالكية. وعرفت هذه المدرسة بالقمحية لأن القمح كان يوزع على فقهائها ومدرسيها أيام صلاح الدين، وذلك لانه أوقف عليها أوقاف فى اقليم الفيوم وبلدة الحنبوشة، وهى واحدة من قرى الفيوم المشهورة بانتاج القمح .

وترتب على الخطوات السابقة التى أتخذها صلاح الدين. أن بدأ نجم المذهب الشيعى يخبو ليضىء نجم المذهب السنى من جديد فى سماء مصر، وهو ما عبر عنه ابن واصل بقوله : "فاشتهر مذهب الشافعية، واندرس مذهب الاسماعيلية بالكلية وانمحى اثره" كما أخذت سلطة الخليفة الفاطمى فى الضعف والانهيار، وسعى صلاح الدين الى إقامة الدعوة العباسية فى مصر، وبدأ نور الدين محمود يرسل إلى صلاح الدين يطلب منه أو يأمره بقطع الخطبة للخليفة الفاطمى العاضد، فاستشار صلاح الدين الامراء فى ذكر اسم الخليفة العباسى فى الخطبة بدلا من الخليفة الفاطمى فوافقه بعضهم على ذلك ورفض البعض الأخر.

وظل صلاح الدين يماطل فى ذلك بحجة خوفه من ثورات الشيعة، ولكنه فى حقيقة الأمر كان فى حاجة إلى مزيد من الوقت ليثبت اقدامه جيدا على أرض مصر، كما أنه كان متخوفا من نوايا سيده نور الدين محمود أكثر من تخوفه من قوة الشيعة والخلافة الفاطمية فى مصر، فضلا عن أنه شعر بتغير شعور نور الدين محمود نحوه فى هذه المرحلة، اذ بدأ يحسده على ما حققه من مكانة فى مصر، وأصبح يخشى من تزايد نفوذه مما يهدد مصالحه .ولذلك كان من الافضل لصلاح

الدين أن يبقى على الخلافة الفاطمية الضعيفة ولو إلى حين .

وظل صلاح الدين مترددا فى اقامة الخطبة باسم الخليفة العباسى المستضىء حتى جاء إلى القاهرة رجل فارسى يعرف "بالأمير العالم "وقيل أنه يدعى الفقيه "أبو يحيى " وأبدى هذا الرجل استعداده لان يقوم بهذا العمل بنفسه، وهو الدعاء للخليفة العباسى المستضىء على منابر المساجد بدلا من الخليفة الفاطمى العاضد، بالفعل صعد الرجل المنبر فى مسجد الفسطاط فى أول جمعة من شهر المحرم من سنة ٥٦٧هـ /١١٧١م قبل الخطيب، ودعا لكل من الخليفة العباسى المستضىء ونور الدين محمود وصلاح الدين دون أن يعارضه أحد، وسارت الامور فى منتهى الهدوء دون "أن ينتطح فيها عنزان "على حد قول ابن الاثير .

لذلك أمر صلاح الدين الخطباء فى مصر فى الجمعة التالية باسقاط اسم الخليفة الفاطمى العاضد من الخطبة، ويقال أن الخليفة العاضد كان مريضا عندئذ وتوفى على الفور عندما علم بذلك، ويقال أيضا أنه توفى بعد ذلك بثلاثة أيام دون أن يسمع بزوال خلافته وسقوط دولته، لأن صلاح الدين عندما علم بمرضه أمر باخفاء الخبر عنه، ويقال أن صلاح الدين عندما علم بوفاة العاضد قال "ليتنى صبرت حتى مات ".وبوفاة الخليفة العاضد وحذف اسمه من الخطبة سقطت الخلافة الفاطمية فى مصر بعد فترة حكم دامت أكثر من قرنين من الزمان .

أما عن النتائج التى ترتبت على سقوط الخلافة الفاطمية فمما لاشك فيه أن ذلك كان حدثا خطيرا فى تاريخ العالم الاسلامى بوجه عام وتاريخ مصر بوجه خاص، فها هى الخلافة الفاطمية تنهار بعد قرنين من الزمان تقريبا لتعود للعالم الاسلامى وحدته المذهبية، وتصبح الخلافة العباسية هى الخلافة الوحيدة التى يدين لها المسلمون بولائهم الروحى، لذلك لا عجب أن اقيمت الاحتفالات فى بغداد تعبيرا عن شعور الفرح بذلك النصر الذى تحقق للخلافة العباسية، بل وأسرع الخليفة المستضىء بإرسال الخلع إلى نور الدين وصلاح الدين ومعها الأعلام والرايات السود، شعار العباسيين.

صلاح الدين وتأسيس الدولة الايوبية

الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين محمود:-

لم تلبث الوحشة ان نبشت أظافرها بين صلاح الدين فى مصر ونور الدين محمود فى الشام، وذلك بعد سقوط الدولة الفاطمية فى عام ٥٦٧هـ/١١٧١م بسبب تحديد علاقة كلا الطرفين بالطرف الاخر لأنه بسقوط الخلافة الفاطمية ووفاة الخليفة الفاطمى العاضد "صفا الوقت لصلاح الدين" على حد تعبير المؤرخ ابن تغرى بردى، وصار أسمه يذكر فى الخطبة على المنابر بعد الخليفة العباسى والملك العادل نور الدين محمود .

ومع ذلك فأن الدلائل كانت تشير الى أن صلاح الدين ظل محافظا حتى ذلك الوقت على ولائه لسيده نور الدين محمود، وظل ينفذ تعليماته بوصفه قائد قواته فى مصر .ولكن الذى تغير هو الظروف المحيطة بصلاح الدين، التى أجبرته على توسيع دائرة نشاطه وذلك بحكم توليته الوزارة المصرية، فقام ببعض الأعمال فى الخارج وفى الداخل .ففى الخارج خرج إلى عسقلان والرملة وغزة لمهاجمة الصليبيين، حتى يشعرهم بقوته، كما فتح قلعة أيلة، وأسر من فيها من الصليبيين . أما فى الداخل فقد قام بزيارة لمدينة الاسكندرية، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها. وترتب على هذا النشاط، الذى قام به صلاح الدين أن بدأت تتزايد أهميته، وفى نفس الوقت أثار ذلك مخاوف نور الدين محمود، خاصة وأن الخلافة الفاطمية سقطت وأصبح صلاح الدين الرجل الاوحد فى مصر .

وكان على صلاح الدين أن يحدد موقفه من نور الدين محمود، ويختار أحد الخيارين وهما :- الأول : أن يظل على الولاء لسيده نور الدين، وفى هذه الحالة عليه أن يتقبل قرار نقله من مصر فى أية لحظة واحلال أخر محله فى حكمها. كذلك كان عليه أن يلبى طلبات نور الدين الذى كان ينتظر من صلاح الدين أشياء كثيرة فى مقدمتها أموال مصر وكنوزها. وفى الحقيقة كان صلاح الدين يرسل بصفة مستمرة إلى سيده نور الدين الأموال والهدايا، غير أنه كان يطلب المزيد فى

كل مرة، وذات مرة أرسل إلى صلاح الدين يقول له أن ما ارسلته لايساوى ما انفقته فى حملة واحدة من حملات أسد الدين شيركوه .

والخيار الثانى :- أن يشق عصا الطاعة ويخرج على سيده نور الدين، ويستقل بمصر .وفى هذه الحالة لابد من أن يكون مستعدا للدخول فى معركة ضده، وهذه المعركة قد تنتهى بفوزه وانتصاره أو بفشله وأفول نجمه على أرض مصر .

على أن صلاح الدين لم يحاول الخروج على سيده نور الدين أو عصيانه وأن كانت قد ظهرت فى الأفق بوادر الوحشة أو الجفوة أو الاختلاف فى وجهات النظر بين الرجلين. ويذكر المؤرخون المعاصرون أن هذه الجفوة بدأت تظهر فى عام ٥٦٧هـ/١١٧١م حينما أرسل نور الدين إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية، والسير بها الى بلاد الفرنج ومحاصرة حصن الشوبك - جنوبى البحر الميت - ثم يجتمع به عند هذا الحصن، ويحاصرا سويا حصن الشوبك وحصن الكرك .

وتذكر المصادر كذلك أن صلاح الدين كتب إلى نور الدين يخبره بأنه لن يتأخر عن الرحيل إليه، وبالفعل غادر صلاح الدين القاهرة بعد أن ترك أبوه نائبا عنه فى حكم مصر، وعلى أثر ذلك تجهز نور الدين، وخرج من دمشق عازما على قصد الشوبك ثم الكرك، ووصل نور الدين إلى حصن الكرك، أقام ينتظر صلاح الدين .

أما عن صلاح الدين فقد وصل بقواته الى حصن الشوبك، ولم يستطع الصليبيون فى هذا الحصن الصمود أمامه طويلا، وطلبوا منه مهلة عشرة أيام. ولكن صلاح الدين لم يلبث وهو أمام الشوبك أن علم بقدوم نور الدين وأنه فى الطريق إليه، عندئذ أحس صلاح الدين بالخوف من أن يقبض عليه سيده نور الدين، ويمنعه من العودة إلى مصر، ولذلك بادر بالانسحاب والعودة إليها. واكتفى بأن أرسل إلى نور الدين محمود رسالة أو كتاب مع الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى، وأرسل معه من التحف ما يجل عن الوصف كما تذكر المصادر.

واعتذر صلاح الدين لسيده نور الدين عن المسير إليه أو انتظاره بحجة أن

أبوه اعترضه مرض شديد "وخاف من أن يحدث على أبيه حادث الموت " كما تذكر المصادر، واحتج كذلك باختلال الأمور في مصر وأنه يخاف عليها من البعد عنها، كذلك أخبره في كتابه أن الفاطميين الشيعة على وشك القيام بثورة في القاهرة، مما تطلب سرعة عودته إليها. ولم يظهر نور الدين للرسول تأثره بعودة صلاح الدين بل كتم ذلك في صدره وقال للرسول "أن حفظ مصر أهم عندنا من غيرها ".

ويتضح مما سبق أن السبب في عدم تعاون صلاح الدين مع نور الدين في محاربة الصليبيين هو خوف صلاح الدين من قيام ثورة في مصر لتقتلعه من جذوره، اذ لم يكن مطمئنا تماما لوضعه الداخلي في مصر، كما أنه من ناحية أخرى كان لايأمن الخطر الخارجي المتمثل في مؤامرات الفرنج .وعلى ذلك كان صلاح الدين يرغب في أن يقف أولا على أرضية ثابتة في مصر قبل أن يتجه بجهد مركز لمحاربة الفرنج، أعداء مصر والشام على حد سواء : مثلاً عن الكوك والشوبك حصنان قويان يحتاج لاخضاعهما والاستيلاء عليهما إلى حصار طويل الأمد.

ويذهب بعض المؤرخين ومنهم ابن الاثير الى القول بأن صلاح الدين لم يكن يرغب في التوسع في حرب الصليبيين حتى يتخذهم ستارا يفصل بينه وبين نور الدين محمود، ولذلك أظهر فتورا في غزو الفرنج .ويشارك أبو شامة ابن الاثير في هذا الرأي، ففي رأيه أن صلاح الدين كان يعتقد أن نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج، أخذ البلاد منه، لذلك كان يحتمي بهم ولا يؤثر استئصالهم . وهنا يجب أن نأخذ رأي ابن الاثير بحذر شديد، وذلك لانه نقد صلاح الدين نقدا مرا، والسبب في ذلك أن ابن الاثير كانت تربطه بنور الدين والبيت النوري صلة قوية لذلك نظر إلى صلاح الدين على أنه مغتصب البيت النوري وأنه كان يهدف الى الاستيلاء على ملك نور الدين لذلك نقده نقدا لاذعا .

على أنه يؤخذ على صلاح الدين أنه انسحب عندما علم باقتراب نور الدين، ولعل خوف صلاح الدين من لقاء نور الدين كان يرجع إلى ما ذكره بعض المؤرخين وهو أن نور الدين كان ينوي بالفعل أخذ مصر منه لا لشيء الا ليصرف

صلاح الدين عن الاهتمام الشديد بأمورها الداخلية .

وكان من الطبيعي أن يستاء نور الدين من سلوك نائبه في مصر، لذلك لم يقبل عذره، وأخذ يستعد للزحف على مصر لتأديب صلاح الدين .عندئذ شعر صلاح الدين بالخوف، فجمع أهله وبعض خاصته، وعقد اجتماعا للتشاور فيما يجب أن يفعله لمواجهة الموقف، وكان من بين الحاضرين بعض شباب البيت الايوبي ومنهم ابن أخيه تقي الدين عمر، وبعض شيوخ البيت الايوبي كذلك ومنهم أبوه نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين .

وحدث في هذا الاجتماع أن نادى شباب البيت الايوبي وعلى رأسهم تقي الدين عمر بضرورة التصدي لنور الدين محمود والاستعداد لقتاله، ولكن والد صلاح الدين وهو الشيخ نجم الدين كان "ذا رأي وفكر وعقل " فتدخل بلباقة، وسب هذا الشباب المتهور، وأشار على ابنه بضرورة الامتثال لنور الدين وطاعته حتى ولو أرسل يعزله من مصر ويولي غيره وقال له : "والله لو رأيت -أنا وخالك هذا- السلطان نور الدين محمود لم يمكننا الا أن نترجل له، ونقبل الارض بين يديه، ولو امرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا وهذه البلاد له، وقد أقامك فيها نائبا عنه .فاذا اراد عزلك فأي حاجة الى المجيء، يأمرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته، ويولي البلاد من يريد ." ثم نظر نجم الدين إلى جميع الحاضرين وقال لهم : " نحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد " .ثم خلا نجم الدين بولده صلاح الدين وقال : " أنت جاهل قليل المعرفة، كيف تعلن ما في نفسك هكذا على الملاء. أنتظر حتى تتدرج الايام، والله كل وقت في شأن ." وختم حديثه بقوله : "... أعلم أننا لن نسلم البلاد له، ولو اراد عقبة من قصب السكر فاربناه عليها".

وكان نجم الدين والد صلاح الدين بحكم خبرته يعلم جيدا أن كل ما دار في هذا الاجتماع سوف يصل الى مسامع نور الدين، وأن لنور الدين عيون وجواسيس مندسين بين من حضروا هذا الاجتماع وسوف يبلغوه بكل صغيرة وكبيرة دارت فيه. لذلك طلب نجم الدين من صلاح الدين أن يكتب لنور الدين معربا عن ولائه له. واستمع صلاح الدين إلى نصح أبيه، وكتب إلى نور الدين محمود رسالة جاء

فيها ما معناه : أنه ليست هناك ضرورة لأن يحضر بنفسه، ويكفى أن يرسل إليه نجاب (رسول) يأخذه بحبل يضعه فى عنقه، وكان مع الرسالة هدية ثمينة لنور الدين محمود من الحيوانات النادرة، والجواهر، والاقمشة، والمصوغات والعطر. غير ان ذلك لم يقلل من غضب نور الدين محمود ومن مخاوفه، لأنه كان يحس بأن صلاح الدين استولى على مصر بالفعل .

أما عن صلاح الدين فبدأ يستعد لما عساه أن يحدث، وبدأ يبحث عن موطن جديد يلجأ إليه هو وأهله اذا ما أخرجهم نور الدين من مصر. وفكر صلاح الدين فى أن يستولى أولا على برقة ويؤسس حكما للايوبيين فى تلك البلاد، وأرسل أخاه تورانشاه اليها، ولكنه وجد أن شتان ما بين غنى مصر وشمال افريقية. كذلك ارسل صلاح الدين أخاه تورانشاه لفتح بلاد النوبة، غير أن صلاح الدين أكتشف أنها بلاد قاحلة جرداء فقيرة، ولاتفى بحاجتهم، كما فكر صلاح الدين فى السودان لذهبها، ولكنها كانت منطقة حارة وليست متطورة مثل مصر .ولذلك أرسل أخاه تورانشاه إلى اليمن، ونجح فى اخضاعها، وجعلها تتبع صلاح الدين .

ولكن ما لبث نور الدين أن توفى عام ٥٦٩هـ /١١٧٤م عن تسعة وخمسين عاما وقبل أن تزداد العلاقات سوء بينه وبين صلاح الدين، وفى الوقت الذى كان يشرع فيه لغزو مصر. وكانت وفاة نور الدين خسارة كبيرة للعالم الاسلامى لأن مشكلة تقسيم دولته الواسعة بين ورثته، هددت الوحدة الاسلامية التى لجهد نور الدين محمود نفسه فى بنائها . وبوفاة نور الدين اندرجت الأيام على حد تعبير الشيخ نجم الدين أيوب، وخلت الساحة أمام صلاح الدين، وأصبح على رأس الدولة النورية .

الصعوبات التى واجهت صلاح الدين بعد وفاة نور الدين :-

على الرغم من وفاة نور الدين محمود الا أن الأمور لم تستقر لصلاح الدين، فكان عليه أن يواجه عدة مشكلات جاءت أولا من جانب أتباع الفاطميين فى مصر، وثانيا من جانب ورثة نور الدين محمود فى الشام .

اولا:-من جانب أتباع الفاطميين فى مصر :-

١) مؤامرة عمارة اليمنى (٥٦٩هـ/١١٧٤م). ٢) ثورة كنز الدولة فى اسوان.

أما عن **مؤامرة عمارة اليمنى** فقد دبرها المخلصون من الشيعة فى مصر فى عام ٥٦٩هـ/١١٧٤م، الذين عز عليهم أن يسيطر على البلاد رجل قوى الشكيمة مثل صلاح الدين، واشترك فى هذه المؤامرة كل الناقمين على حكم صلاح الدين. واتخذ المتآمرون من السعى لاحياء الخلافة الفاطمية ستارا يخفون ورائه نواياهم الحقيقة .

أما عن رأس المؤامرة ومدبرها فهو " الشاعر عمارة اليمنى " وهو بالفعل من بلاد اليمن، ويذكر البعض أنه كان شافعيا سنيا، فى حين يذكر البعض الأخر أنه كان شيعيا . وقدم الى مصر أواخر الحكم الفاطمى، وقال فى الفاطميين أشعار مديح، لذلك اغدقوا عليه الكثير من الاموال والعطايا، وعاش عمارة فى ظل الفاطميين عيشة رغد . ولكن عندما سقطت الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين، تبدلت حال عمارة وعاش فى شظف، لذلك حقد على صلاح الدين، وحاول التآمر عليه، واعادة حكم الشيعة إلى مصر من جديد . وكتب عمارة قصيدة تعد من أروع قصائد الشعر العربى، قالها عندما مر على أطلال الفاطميين، وعلى القصور الفاطمية بعد وقوعها فى أيدى صلاح الدين، وتدل هذه القصيدة على عظمة الفاطميين .

وقد اشترك مع عمارة فى هذه المؤامرة كل من عبد الصمد الكاتب، والقاضى العوريس داعى دعاة الشيعة، وابن عبد القوى، فضلا عن عدد من أتباع الدولة الفاطمية وموظفيها، وبقايا الجند السودان، وخدم القصر الفاطمى وغيرهم .واتفق المتآمرون على أن يقيموا خليفة ووزيرا، ووقع اختيارهم على ابن العاضد الاكبر، ولقبوه "الحامد لله "، كما اتفقوا على تعيين وزير، وتقاسموا الاملاك والدور.

وحاول عمارة الاتصال ببعض القوى الخارجية ومن بينها :-

اولا الباطنية أو الحشيشية :-وهى أكبر قوة شيعية فى بلاد الشام، وكانوا يعيشون فى قلعة مصياف على مقربة من طرابلس، وسموا بالباطنية لأنهم كانوا يرون أن لكل نوع من أنواع العبادة ظاهر وباطن، ومن يدرك كنه الباطن ويتبعه فلا يعاقب، وسموا بالحشيشية لانهم دأبوا على تدخين الحشيش أو مضغه، وسموا أيضا بالفداوية لانهم يفادون بالمال على من يقتلون، وكان الخنجر اداة الاغتيال عندهم، واذا أمرهم حاكمهم باغتيال أحد كان أمره واجب التنفيذ، وكان مقدمهم فى ذلك الحين هو " رشيد الدين سنان البصرى ". وقد اتصل عمارة بالباطنية، وطلب منهم أن يغتالوا صلاح الدين .

ثانيا الصليبيون فى بلاد الشام :

اتصل عمارة والمتآمرون بالصليبيين فى بلاد الشام، واتفقوا معهم على أن تقوم القوات الصليبية بغزو مصر فى نفس الوقت الذى يشعلون فيه نار الثورة فى القاهرة والفسطاط حتى يقع صلاح الدين بين نارين .

ثالثا وليم النورمانى ملك صقلية :-

اتصل المتآمرون كذلك بوليم النورمانى ملك صقلية، واتفقوا معه على أن يقوم بمهاجمة الاسكندرية باسطوله بحرا فى نفس الوقت الذى يهاجم فيه الصليبيون مصر من ناحية البر، ورحب وليم بذلك، وراح يعد اسطولا لهذا الغرض .

وعلاوة على ذلك حاول عمارة إضعاف الجبهة الداخلية بأن شجع تورانشاه أخو صلاح الدين على أن يخرج على رأس جزء من الجيش لفتح اليمن، لأن الفرصة مواتية الآن لذلك، وكان عمارة يهدف من وراء ذلك الى :-

-أن يضعف جانب صلاح الدين لأن تورانشاه سوف يصحب معه جزءا كبيرا من الجيش .

-مهاجمة صلاح الدين منتهزين فرصة تغيب أخيه تورانشاه فى اليمن، فاذا قتل صلاح الدين لايوجد من بنى أيوب من يحل محله، خاصة وأن أبوه قد توفى .

وهكذا أحكم المتآمرون حلقات الحصار حول صلاح الدين، ووضعوا جميع

الترتيبات، ولم يبق الا التنفيذ.

ولكن لم تلبث المؤامرة أن انكشفت، وتم اجهاضها قبل أن تولد، وذلك لأن المتآمرين أشركوا معهم فى سرهم الفقيه الواعظ الحنبلى "زين الدين بن نجا " فقام زين الدين باطلاع صلاح الدين على جميع حلقات المؤامرة أول بأول، كما أطلعه على أطرافها وخططهم . وفى نفس الوقت وصل المبعوث الذى أرسله عمورى الاول - ملك بيت المقدس - إلى القاهرة محملا بالهدايا وعبارات الود لصلاح الدين، هذا فى الظاهر . أما فى الباطن فقد جاء لوضع الخطوط النهائية لتنفيذ المؤامرة، فانكشف أمره بفضل يقظة رجال صلاح الدين، وتم القبض عليه، وأخبر صلاح الدين بحقيقة الأمر وبتلك المؤامرة .

ولم يكد صلاح الدين يتأكد من حقيقة المؤامرة حتى قبض على المتآمرين جميعا وعلى رأسهم عمارة اليمنى، وأمر بشنقهم وصلبهم، ولم يكتف صلاح الدين بذلك بل تتبع كل من له هوى فى الدولة الفاطمية فقتل من قتل، وأسر من أسر، ثم أصدر أوامره بترحيل كافة الاجناد، وحاشية القصر والسودان إلى أقصى بلاد الصعيد .

أما عن العناصر الخارجية التى حاول عمارة الاستعانة بها، فبالنسبة للباطنية فقد فشلوا فى النيل من صلاح الدين . أما عن عمورى فعندما علم بانكشاف سر المؤامرة فى القاهرة، وفشل خطته لغزو مصر، انهارت معنوياته وتوفى مقهورا فى بيت المقدس فى يوليو من عام ١١٧٤م .

أما عن آخر ذيول مؤامرة عمارة اليمنى، ونقصد به أسطول صقلية، الذى كان وليم النورمانى قد أعده، وكان يتألف من ستمائة سفينة تحمل أكثر من ثلاثين ألف رجل، والذى يقول عنه أبو شامة "أسطول أثقل ظهر البحر حمله، وجيش ما احتفل ملك قط بنظيره ". فقد خرج وليم على رأس هذا الجيش إلى مصر دون أن يعلم شيئا عن فشل المؤامرة، ولا عن موت عمورى وبعد سنة تقريباً حولى سنة ٥٧٠هـ.

ووصل الاسطول النورمانى إلى الاسكندرية، وضرب الميناء بالمنجنيقات، وحاول اقتحام المدينة، ولكن أهل المدينة قاوموا الحصار وصمدوا له، واحرقوا

بعض سفن الاسطول النورماني، وفي نفس الوقت اتصلوا بصلاح الدين، وطلبوا منه المساعدة، ولم تكد تمضي ثلاثة أيام حتى وصلت نجدة صلاح الدين وعلى رأسها هو بنفسه ومعه جيشه، وهاجم صلاح الدين النورمان، وأغرق بعض سفنهم، واضطرت القوات الصقلية إلى العودة خاسرة . والحقيقة أن هناك أسباب أدت إلى فشل الحملة النورمانية على الاسكندرية من بينها :-

- عدم معرفة وليم النورماني بفشل مؤامرة عمارة اليمني، ولا بموت عموري، لانه كان من المنتظر أن يرسل الأخير جيشا لمساندة الاسطول النورماني .
- سوء تخطيط قادة الحملة، وسوء تقديرهم لقوة الاسكندرية ومقاومة شعبها .
- الدور الذي لعبه أهل الاسكندرية في الدفاع عن مدينتهم، ووصول صلاح الدين على الفور لمساعدتهم ونجدتهم .وبفشل حملة وليم النورماني على الاسكندرية انقطع اخر خيط من خيوط مؤامرة عمارة اليمني .

وكان لفشل مؤامرة عمارة اليمني اهمية كبرى تتمثل في :-

- انها كانت آخر مؤامرة دبرت ضد الدولة الايوبية الناشئة .
- ان فشل تلك المؤامرة يعني القضاء على المذهب الشيعي إلى غير رجعة من الديار المصرية، وبالتالي أصبحت الأمور مهيئة لقيام الدولة الايوبية .

٢) ثورة كنز الدولة في اسوان :-

وقامت ثورة أخرى ضد صلاح الدين في الداخل، وفي نفس الوقت الذي دبرت فيه مؤامرة عمارة اليمني -وقامت هذه الثورة في أسوان وعلى حدود بلاد النوبة، وأشعلها أحد الامراء السودان وهو "كنز الدولة" وكان واليا على أسوان في ذلك الحين .

أما عن سبب هذه الثورة فهو أن صلاح الدين أقطع أسوان لأحد امرائه وهو أخو الأمير حسام الدين ابى الهيجاء السمين .لذلك قام كنز الدولة بحركة تمرد، واغتال أخا الأمير أبي الهيجاء. ومالبث كنز الدولة أن جمع حوله بعض العناصر المتعاطفة مع الفاطميين وبقايا الشيعة الذين نفاهم صلاح الدين إلى الصعيد،

واوهمهم بأنه سوف يعيد الدولة الفاطمية من جديد، وزحف بهم الى قوص .

وأرسل صلاح الدين حملة بقيادة أخيه العادل، شارك فيها بعض الأمراء من بينهم الأمير عماد الدين أبى الهيجاء والأمير عز الدين موسك .والتقت بكنز الدولة واتباعه عند "طود"-قرية من قرى الصعيد -، ونجحت الحملة التى أرسلها صلاح الدين في القضاء على حركة كنز الدولة، وانتهى القتال بمصرعه والقضاء على معظم أتباعه قضاءا مبرما. وهكذا تخلص صلاح الدين من المشكلات التى واجهته على الصعيد الداخلي بعد أن مات نورالدين، وأصبح هو رجل مصر الاوحد .

ثانيا:-صلاح الدين وورثة نور الدين محمود في الشام (صلاح الدين واتمام توحيد الجبهة الإسلامية) :-

ترتب على وفاة نور الدين محمود في عام ٥٦٩هـ /١١٧٤م تقسيم الدولة النورية بين أمرائه وأهل بيته .وكان الوريث الأول لنور الدين في حلب ودمشق هو ابنه " الملك الصالح اسماعيل "، الذي كان يبلغ الحادية عشرة من عمره عند وفاة ابيه. وخلف الصالح اسماعيل أباه، وعندئذ خطب له صلاح الدين في مصر، وضرب السكة باسمه فيها، وأرسل إليه متظاهرا بالود والأخلاص له.

ونظرا لصغر سن الصالح اسماعيل فقد تنافس أمراء نور الدين للوصاية عليه، ودب الخلاف بين اثنين من أقوى أمراء نور الدين وهما :- شمس الدين على المعروف ب "ابن الداية "، وشمس الدين محمد المعروف ب "ابن المقدم ". وأراد كل منهما أن تكون له الوصاية على الملك الصالح اسماعيل، واحتل ابن الداية قلعة حلب بوصفها المركز الأول للدولة النورية. في حين تحفظ ابن المقدم على شخص الملك الصالح اسماعيل في دمشق . وقد ترتب على هذا النزاع والخلاف بين ابن الداية وابن المقدم أن تعرضت أملاك نور الدين في الشام لخطر الصليبيين من ناحية، وتهديد مركز المسلمين في الشرق تهديدا خطيرا من ناحية أخرى، في وقت كان الصليبيون يهددون فيه ويتحفزون ويتوعدون .

وفي ذلك الوقت ظهر صوت ينادى بضرورة تحكيم صلاح الدين والالتفاف حوله باعتباره أقوى أمراء نور الدين محمود، كما أنه المتحكم في ملك مصر

ومواردها وثروتها وقواتها . وكان صاحب هذا الصوت هو " القاضى كمال الدين الشهرزورى" الذى أشار على ابن المقدم وبقية أمراء نور الدين محمود بالرجوع إلى رأى صلاح الدين والانقياد له، ولكن خشى الأمراء الطامعين من بأس صلاح الدين، وخافوا من أن يؤدى تدخله إلى أن يعصف بهم جميعا، ويضيف ملك الشام إلى ملك مصر .

وكان صلاح الدين فى ذلك الوقت مشغولا بمؤامرة عمارة اليمنى وبالأسطول النورمانى الذى جاء ليحاصر الاسكندرية، لذلك تأخر بعض الوقت عن الذهاب إلى الشام، واكتفى بأن أرسل إلى الشام ليعلن عن حقه فى الوصاية على الصالح اسماعيل بن نور الدين وعلى املاكه .

واستغل الصليبيون فرصة الخلاف الذى دب بين أمراء نور الدين محمود، وراحوا يهاجمون المدن والمعاقل الإسلامية فى الشام، فهاجموا (بانياس) وحاولوا الاستيلاء عليها، ولكنها صمدت للحصار الذى استمر اسبوعين، وبدلا من أن يحاول أمراء نور الدين وعلى رأسهم ابن المقدم التصدى للصليبيين وردهم، راح "يراسلهم ويلاطفهم "وعرض عليهم أن يتركوا بانياس مقابل مبلغ كبير من المال، واطلاق سراح الأسرى الصليبيين فى دمشق، فضلا عن محالفتهم ضد صلاح الدين وأطماعه المقبلة .

وعندما علم صلاح الدين بهذه الاتفاقية، استصغر أهل الشام، وعلم مدى ضعفهم، كما أدرك أن هذا الاتفاق موجها أساسا ضده، كذلك ادرك أن امراء الشام صالحوا الصليبيين خوفا منه، ولذا أرسل إليهم يقبح فعلتهم هذه، وكان صلاح الدين يخشى فى هذه الفترة أن تتمزق الجبهة الاسلامية بانفصال الشام عن مصر لأنه قال: "اذا انفردت مصر عن الشام، طمع أهل الكفر فى بلاد الاسلام " .

واشتدت حدة الخلافات بين أمراء نور الدين، فقد حدث أن استبد الأمير كمشتكين- أحد أمراء نور الدين محمود -بتدبير الملك الصالح اسماعيل، وانتقل به إلى حلب، وقبض على ابن الداية وأخوته، وكان أولاد الداية من أجل أصحاب صلاح الدين، فأتخذ من ذلك ذريعة للخروج إلى الشام .هذا فضلا عن استنجاد ابن

المقدم بصلاح الدين، وكانت هذه الدعوة بداية لمرحلة جديدة فى تاريخ الحروب الصليبية وصلاح الدين .

وقرر صلاح الدين الخروج إلى الشام فى عام ٥٧٠هـ/١١٧٥م بعد أن تخلص من آخر ذيول مؤامرة عمارة اليمنى، وجهز جيشا من سبعمائة من الفرسان، وخرج على رأسه إلى الشام بعد أن استخلف أخاه العادل على مصر. وأعلن صلاح الدين منذ اللحظة الأولى التى خرج فيها إلى دمشق، أنه ذهب إلى دمشق لانقاذ الصالح اسماعيل بن نور الدين من أطماع الامراء المحيطين به، ولكى يشرف بنفسه على تربيته، وقال فى هذا الصدد : "أنا أحق الناس بتربية الملك الصالح رعاية لعهد والده، ووفاء لنور الدين وللبيت الزنكى " .

وهنا يجب أن نؤكد أن صلاح الدين عندما خرج الى بلاد الشام لم يكن يستهدف مجرد تحقيق أطماعه الشخصية وأنما كان حريصا على السعى من اجل تحقيق الوحدة الاسلامية، وذلك بضم الشام الى مصر، وتوحيد الجبهة الاسلامية، ومواجهة الخطر الصليبى، وتحقيق أمل نور الدين محمود .وذلك بدليل ما أعلنه صلاح الدين عند خروجه الى الشام بقوله : "أن لا نؤثر للاسلام وأهله الا ما جمع شملهم وألف كلمتهم " .

على أية حال دخل صلاح الدين دمشق بلا مشقة، واستقبل فيهااستقبالا طيبا بعد أن فتح له ابن المقدم أبواب المدينة وسلمها له، كما تسلم قلعتها، ونجح صلاح الدين فى استمالة الدماشقة بان نثر عليهم الدراهم والدنانير، وانفق عليهم أموالا طائلة، وأظهر صلاح الدين ولاءه للملك الصالح اسماعيل اذ قال : "أنى جئت لاخدم مولاى وابن مولاى، واسترد له بلاده " وقال أيضا : "أنا مملوك الصالح وما جئت الا لانصره وأخدمه ". ويتضح من ذلك حرص صلاح الدين على اظهار الولاء للصالح وذلك من اجل تحقيق الوحدة الاسلامية .

وبعد أن استولى صلاح الدين على دمشق، اتجه نحو حمص فأخذها، ولكن استعصت عليه قلعتها فتركها، واتجه بعد ذلك نحو حماه فاستولىعليها مدينة وقلعة. ثم أتجه إلى حلب فحاصرها، ولكن لم يتمكن من فتحها، فرحل عنها إلى حماه ثم

اتجه إلى حمص، وتمكن صلاح الدين هذه المرة من احتلال قلعة حمص التى استعصت عليه من قبل، ثم استولى على بعلبك بعد أن أمن واليها وأهلها .وبذلك صارت أكثر الشام بيده على حد تعبير المصادر .

ولم يبق أمام صلاح الدين سوى حلب فخرج إليها، وضرب الحصار عليها، ولكنها قاومت صلاح الدين، ورفضت الاستسلام له، بل وأسرع أهل حلب وأميرها وهو "سعد الدين كمشتكين "-الذى كان قد انتزعها من ابن الداية وقبض عليه وعلى اولاده -إلى طلب النجدة من الباطنية، وخصصوا لهم ضياعا، وطلبوا منهم القضاء على صلاح الدين، وأرسل سنان مقدم الباطنية جماعة من الفدائيين إلى معسكر صلاح الدين فى حلب لقتله، ولكنهم فشلوا فى ذلك اذ القى احد رجالات صلاح الدين نفسه على الباطنى وقتله . وعندما ايقن أهل حلب من فشل الباطنية فى اغتيال صلاح الدين، لجأوا الى الصليبيين، واتصلوا بـ "ريموند الثالث " امير طرابلس الوصى فى ذلك الحين على "بلدوين الرابع "ابن عمورى الأول وخليفته، وذلك لصغر سنه فقد اعتلى عرش مملكة بيت المقدس وهو يبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة، وكان ريموند قد تولى الوصاية عليه بحكم أنه كان أقوى امراء الصليبيين فى ذلك الوقت، وكان قد ضم الى امارته طرابلس أقليم طبرية والجليل بعد أن تزوج من اشيفا -أرملة والتر الأمير السابق لذلك الإقليم.

ووعد أهل حلب ريموند بأن يدفعوا الثمن اذا نجح ريموند فى تخليص حلب من حصار صلاح الدين، وطلبوا منه أن يهاجم بعض المراكز التى كانت بيد صلاح الدين حتى يضطر الى رفع الحصار عن حلب، وبذلك رسموا له الخطة على نحو ما يذكر ابن الاثير، ورحب ريموند بتقديم المساعدات لاهل حلب، واسرع إلى نجدتهم، وذلك لاسباب من بينها :-

١) أن ريموند كان يدرك تماما أهمية تحالف المسلمين مع الصليبيين فى حلب .

٢) ادرك ريموند خطورة قيام وحدة اسلامية بين القاهرة ودمشق وحلب، وبمساعدته لأهل حلب ضد صلاح الدين يسد الطريق فى وجهه ويحول دون قيام وحدة اسلامية فى الشرق على حد تعبير المؤرخ الصليبى "وليم الصورى ".

ولجأ ريموند أولا إلى الطرق السلمية السياسية ففتح باب المفاوضات مع صلاح الدين حول مسألة حلب، ولوح له بأن الفرنج اتحدوا وصاروا يدا واحدة. ولكن صلاح الدين لم يخش هذا التهديد، ولم يعبأ به، وأرسل بعض قواته للاغارة على إمارة انطاكية. ونظرا لأن المفاوضات مع صلاح الدين لم تكن ذات جدوى فقد لجأ ريموند إلى طريق آخر ووسيلة آخرى لصرف صلاح الدين عن حلب، فقام بمهاجمة حمص -التى كان صلاح الدين قد استولى عليها من قبل -واضطر صلاح الدين الى الخروج لنجدة حمص، وترك حلب ولكن ليعود اليها مرة ثانية .

وفى الوقت الذى خرج فيه صلاح الدين ليسترد حمص، وأثناء اقامته فيها تقدمت عساكر الموصل وحلب لحصار حماه، وراسلوا صلاح الدين فى أمر الصلح، فقبل صلاح الدين الصلح على أساس أن يرد ما أخذه من حصون وقلاع، وأن يقنع بدمشق على أن يكون نائبا عن الصالح اسماعيل فيها وأن يرد كذلك ما أخذه من أموال الخزانة، فلبى صلاح الدين جميع طلباتهم . وعندئذ ظنوا أنه يعانى من نقص فى العسكر، فغالوا فى مطالبهم، غير أن صلاح الدين رفض اجابتهم لأى منها .

ودارت بين صلاح الدين وبين أهل الموصل وحلب معركة تعرف باسم "قرون حماه" فى عام ٥٧٠هـ /١١٧٥م، لم يثبت فيها عسكر الموصل وحلب، وعادوا مهزومين إلى حلب، وانتصر صلاح الدين بذلك عليهم، وراح يطاردهم حتى حلب .وكان من نتائج هذا الانتصار أن سعى أهل حلب إلى عقد الصلح مع صلاح الدين على أساس أن يحتفظ بما استولى عليه من بلاد الشام، وأن يكون لهم ما بأيديهم منها . وسرعان ما دخل صلاح الدين حلب، وأعلن عزل الملك الصالح اسماعيل وقطع الخطبة له وازالة اسمه من على السكة فى بلاده، واتخذ صلاح الدين لنفسه لقب "ملك مصر والشام " .

ولم يبق أمام صلاح الدين سوى الموصل حتى يتم توحيد الجبهة الاسلامية، وهنا كان على صلاح الدين أن يواجه خطر أبناء عمومته من المواصلة، فقد كان من الصعب على هؤلاء أن يصبح صلاح الدين حاكما على الشام وقد كان هو وأفراد أسرته يخدمون عند الزنكيين (المواصلة)، وقد صور ابن الاثير هذا

الشعور عندما وجد صلاح الدين يركب جواده ويساعده أمير سلجوقى وآخر زنكى فقال : "انك لا تدرى أى ميتة تموت، يعضدك أمير سلجوقى، ويأخذ بعنان (لجاد) فرسك أمير زنكى " .

ورأى صلاح الدين أن الطريق الوحيد للوقوف فى وجه المواصلة هو الحرب، خاصة أن صاحب الموصل ويدعى " سيف الدين غازى الثانى " قاد بحركة تعبئة ضخمة ضد صلاح الدين، وراح يستعين عليه بالصليبيين، فاتصل بريموند الثالث أمير طرابلس الوصى على عرش مملكة بيت المقدس فى عام ٥٧١هـ/١١٧٦م

ودارت معركة بين صلاح الدين وبين المواصلة وحلفائهم من الصليبيين عند "تل السلطان "-على الطريق بين حماه وحلب- حلت فيها الهزيمة بالمواصلة وحلفائهم، وقتل منهم كثيرون، وجمع صلاح الدين غنائم ضخمة . كذلك حاول صلاح الدين أن يقطع الصلة بين الموصل وحلب فقام بالاستيلاء على عدد من القلاع الواقعة شرقى حلب ومنها " بزاعة ومنبج وعزاز ". ولذلك تزايد نفوذ صلاح الدين فى بلاد الشام . وأحس الباطنية بالفزع والهلع، لذلك حاولوا مرة آخرى اغتيال صلاح الدين .

وأثناء حصار صلاح الدين لعزاز حاول الباطنية تنفيذ مخططهم ضد صلاح الدين، ولكن محاولتهم هذه المرة أيضا باءت بالفشل، فبينما يسير صلاح الدين فى حدائق عزاز ربض له باطنى فوق شجرة ليقتله، ولكن خوذة صلاح الدين أنقذته هذه المرة، ولم يصب إلاّ بخدش بسيط فى خده . لذلك سعى صلاح الدين للثأر من هذه الجماعة، فحاصر قلعتهم "مصياف" - قرب طرابلس على الساحل - وقتل كثيرين منهم، ولم يتركهم إلا بعد أن شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود الحارمى، الذى كانت تربطه صلة بحاكمهم "سنان "، وبعد أن تعهدوا بألا يتعرضوا لصلاح الدين مرة آخرى وقد وفوا بعهدهم .

ولم تفت هزيمة المواصلة فى تل السلطان فى عضدهم، وراحوا يكاتبون الصليبيين، ويرغبونهم فى قصد الثغور الإسلامية ليشغلوا صلاح الدين عنهم، ثم

بدأوا يعدون العدة للحصار، وحشدوا داخل مدينتهم عددا ضخما من المقاتلين، وكميات وفيرة من الطعام والسلاح والذخيرة، لذلك فشل صلاح الدين فى الاستيلاء على الموصل هذه المرة . ولكنه لم ييأس وحصارها مرة ثانية وثالثة إلى أن اضطر المواصلة فى النهاية إلى عقد الصلح مع صلاح الدين، وبمقتضى هذا الصلح قبل صاحب الموصل أن يكون تابعا لصلاح الدين، وأن يخطب باسمه على المنابر، وأن يضرب السكة باسمه. وهكذا نجح صلاح الدين فى ضم الشام الى مصر، وعادت إلى البلاد وحدتها من الفرات إلى النيل، وحقق صلاح الدين حلم عماد الدين زنكى ونور الدين محمود، ولم يبق أمامه سوى مهاجمة الصليبيين .

وكان على صلاح الدين أن يكسب حكمه صفة الشرعية، لذلك أرسل إلى الخليفة العباسى رسالة كتبها له القاضى الفاضل "عبد الرحيم البيسانى " كاتب الانشاء فى عهد صلاح الدين، ثم وزيره، الذى صخر قلمه فى خدمة صلاح الدين، وأبرز القاضى الفاضل فى هذه الرسالة الدور الهام الذى قام به صلاح الدين للقضاء على المذهب الشيعى فى مصر، ثم عرض لنجاحه فى اسقاط الخلافة الفاطمية بها، وقضاءه على ثورات الجند السودان وأتباع الفاطميين الشيعة، وتأسيسه لعدد من المدارس لنشر المذهب السنى وغير ذلك . ثم شرح للخليفة فى هذه الرسالة المحاولات التى قام بها المواصلة والباطنية للقضاء على صلاح الدين ولكنه تمكن من التصدى لها جميعا . وطلب صلاح الدين فى نهاية الرسالة من الخليفة أن يقلده حكم ما فتحه من بلاد مصر والشام واليمن والنوبة .

وما لبث الخليفة العباسى أن أرسل الى صلاح الدين رسول ومعه التشريفات وتوقيع من الخليفة بتولية صلاح الدين على مصر والشام وذلك لانه صاحب الفضل الاول فى اسقاط الخلافة الفاطمية فى مصر، وهو الذى رفع الرايات السود شعار بنى العباس فى كل مكان من العالم الاسلامى. ولذلك كان صلاح الدين يقول دائما "أننى ملكت ما ملكت بقلم القاضى الفاضل ".

وبتقليد الخليفة العباسى لصلاح الدين حكم مصر والشام يتم اعلان قيام الدولة الايوبية فى مصر والشام، ومن الملاحظ أن صلاح الدين لم يلقب نفسه طيلة حياته

بلقب "سلطان مصر والشام "بل بلقب "ملك مصر والشام " وذلك لان لقب سلطان كان أحد الالقاب التى يلقب بها الوزير فى أواخر العصر الفاطمى، واذا تلقب صلاح الدين بهذا اللقب فمعنى ذلك أنه لازال فى ذهن معاصريه وزيرا .

صلاح الدين وتحصين مصر :-

كان على صلاح الدين أن يطمئن على أمن وسلامة مصر قبل أن يغادرها لقتال الصليبيين فى الشام، وذلك بوضع نظام قوى لتحصينها حتى يمكنه مواجهة أى محاولة قد يقوم بها الصليبيون لغزوها خاصة أثناء غيابه فى بلاد الشام لمحاربتهم، وذلك عن طريق موانىء مصر الشمالية، وبصفة خاصة الاسكندرية ودمياط . والحقيقة أن صلاح الدين لم يكن مبالغا فى خوفه على مصر فقد دارت اتصالات جادة بين الصليبيين والبيزنطيين للقيام بمحاولة جديدة لغزو مصر وذلك فى عام ٥٧٣هـ/١١٧٧م .وكان هذا دافعا قويا لأن يقوم صلاح الدين بتحصين الموانىء المصرية، وبناء أسطول قوى قادر على التصدى لاية محاولة من جانب الصليبيين لغزو مصر .

والواقع أن تفكير صلاح الدين فى تحصين مصر يرجع الى أيام وزارته أى قبل سقوط الخلافة الفاطمية فى مصر، فقد شرع صلاح الدين فى ترميم سور القاهرة، واصلاح ما فيه من عطب بعد أن تهدم أكثره، وصار على حد تعبير أبى شامة "طريقا لا يرد داخلا أو خارجا" . وذلك فى عام ٥٦٧هـ/١١٧١م . غير أن صلاح الدين اكتفى خلال وزارته بترميم السور القديم فحسب، ويرجع ذلك إلى أسباب من بينها :-

١) أن سلطة صلاح الدين ونفوذه فى ذلك الحين كان محدودا، كما كان قليل الموارد، فهو لا يعدو أن يكون وزيرا للخليفة الفاطمى من ناحية، وتابعاً لسيده نور الدين من ناحية أخرى .

٢) أن صلاح الدين فى هذا الدور كان قليل الخبرة، خاصة فيما يتعلق بأحوال الصليبيين وخططهم فى الحرب .

ولهذين السببين اكتفى بترميم سور القاهرة القديم خلال فترة وزارته .

ولكن عندما أمسى صلاح الدين الرجل الأول فى مصر، وسيدها الأوحد بعد وفاة الخليفة الفاطمى العاضد ثم وفاة نور الدين محمود، وأصبح المسئول عن امنها وسلامتها وحمايتها هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى كان للفترة التى قضاها فى الشام يحارب الصليبيين أكبر الأثر فى حياته فقد اكسبته خبرة واسعة فى سياسة الشرق، كما انه شاهد فى بلاد الشام مدنا محصنة وأسوارا عالية محكمة البناء، واكتسب خبرة واسعة فى فن الحرب وأساليب الحصار، كما تعرف على الدور الذى تلعبه الحصون والقلاع والاستحكامات فى حماية المدن، لذلك ما أن عاد صلاح الدين من الشام حتى قام بسلسلة من التحصينات القوية لحماية مصر وموانيها .

أولا تحصينات صلاح الدين فى القاهرة :-

قام صلاح الدين بتشييد السور والقلعة فى مدينة القاهرة .

أما فيما يتعلق بالسور فقد وجد صلاح الدين أن القاهرة الفاطمية والفسطاط والقطائع والعسكر لا يوجد بها سوى سور واحد، وهو ذلك السور الذى بناه جوهر الصقلى، وجدده الوزير بدر الجمالى، وضم ذلك السور بين جنباته جامع الحاكم بأمر الله، لذلك أراد صلاح الدين أن يجمع عواصم مصر كلها داخل سور واحد، يحميها من أى غزو طارىء. ووفر صلاح الدين لبناء هذا السور كل ما يحتاج اليه من خشب وحديد وأحجار وغير ذلك، وروعى فى بناء هذا السور أن يكون محصنا بأبراج منيعة، واستمر العمل فى بناء السور حتى توفى صلاح الدين، وهو السور الموجود حتى الآن. وجعل لهذا السور أبواب منها : باب البحر، باب الشعرية، وباب البرقية، وباب القراطين (الباب المحروق فيما بعد) والقراطين هم باعة البرسيم.

وبعد الانتهاء من بناء السور، تم حفر خندق حوله، وظل هذا السور على حالته حتى عهد السلطان الكامل محمد الذى قام بتعليته .

أما عن القلعة فهى " قلعة الجبل" وقد شرع صلاح الدين فى بناء قلعة ضخمة على جبل المقطم فى اثناء تشييده للسور، وذلك لأسباب منها :-

١) أن تكون مقراً للحكم الأيوبى بدلاً من دور الحكومة الفاطمية وقصورها .

٢) ليجعل من القاهرة مدينة كسائر مدن الشام الاسلامية والصليبية على حد سواء، اذ كان لكل مدينة بالشام قلعة حصينة تقوم بحمايتها .

٣) لتكون القلعة ملاذا يحتمى به صلاح الدين اذا ما هددته ثورة فى الداخل من جانب اتباع الفاطميين فىمصر، أو هدده خطر خارجى من جانب الصليبيين، أو أى خطر خارجى قد تتعرض له القاهرة .

وقد أحسن صلاح الدين اختيار موقع القلعة اذ بناها على جبل المقطم، وبهذا يمكن أن تشرف على مصر اشرافا تاما، وتستطيع حمايتها، كما تستطيع ان تؤدى عملها على أكمل وجه . وسخر صلاح الدين فى بناء القلعة آلاف من الأسرى الصليبيين، قدرهم المقريزى بحوالى خمسين ألف أسير .واستخدم صلاح الدين فى بناء القلعة وعمارتها احجارا جلبت من منطقة الأهرام بالجيزة . وقد زار الرحالة الاندلسى "ابن جبير " مصر، وشاهد القلعة، ووصفها بأنها "حصن حصين المنعة ".

ومما تجدر الإشارة إليه أن صلاح الدين عهد الى الامير "بهاء الدين قراقوش "بالاشراف على بناء القلعة والسور كذلك. وسبق أن ذكرنا أن صلاح الدين عين الأمير بهاء الدين إماماً للقصر الفاطمى أى مشرفا عليه على اثر مؤامرة مؤتمن الخلافة جوهر قائد الجند السودان وذلك حتى يكون عينا على الخليفة العاضد، وليضبط الامور داخل القصر، أما اليوم فهو المهندس المعمارى المنفذ لجميع التحصينات الدفاعية التى اهتم بها صلاح الدين .

وكان بهاء الدين قراقوش رجلا قديرا من رجالات الدولة الايوبية، دخل فى صراع مع رجل آخر من مشاهير رجالات الدولة الايوبية وهو "الأسعد بن مماتى "صاحب كتاب " قوانين الدواوين " وقد ألف ابن مماتى فى خصمه كتاباً بعنوان "الفاشوش فى أحكام قراقوش " وصوره فى هذا الكتاب على أنه رجل مستبد ومتعجرف وغبى، وتداول القاهريون هذا الكتاب جيلا بعد جيل .

ومن المعروف أن عمارة القلعة لم تتم إلا فى عهد السلطان الملك الكامل،

كما أنه لم يقدر لصلاح الدين ان يسكنها، اذ أن الكامل كان أول من شيد فيها قصورا، كما أقام ابراجها الرئيسية، ومنذ عهد السلطان الكامل محمد أصبحت القلعة مقرا للحكم، وبها القصر السلطانى الذى سكنه الايوبيون فالمماليك، فالعثمانيون. فحكام مصر من أسرة محمد على حتى عهد اسماعيل .

ومما تجدر الاشارة اليه أن صلاح الدين شيد قلاعا أخرى خارج مدينة القاهرة ومنها " قلعة تقع فى جزيرة فرعون "-على بعد خمس كيلو مترات من طابا - وكانت تمر بها قوافل التجارة فى العصور الوسطى، وكذلك شيد صلاح الدين قلعة ثالثة - شرقى مدينة سدر -وتعرف باسم "الجندى "وبناها صلاح الدين بغرض تأديب البدو .

ثانيا :-تحصينات صلاح الدين فى الموانىء المصرية :-

لم تقف جهود صلاح الدين فى تحصين مصر عند حد القاهرة بل امتدت إلى الثغور والموانىء المصرية، وبصفة خاصة الاسكندرية، ودمياط، وتنيس، بعد ان تكررت هجمات السفن الصليبية عليها .

١) **تحصينات الاسكندرية :-**

كان للأسكندرية مكانة خاصة عند صلاح الدين، لدرجة أنه كان يقضى بها أسعد أيامه بمصر .لذلك شرع فى بناء سور ليحيط بهذه المدينة، وأمر والى الاسكندرية وكان يدعى " فخر الدين قراجا " بأن يكسر أربعمائة عمود رومانى إلى نصفين أو الى ثلاثة، ويلقى بها عند شاطىء البحر، وذلك لاسباب منها :-

١) أن يمنع تأثير الموج على سور المدينة. ٢)الايستخدم السور كمرسى لسفن العدو

كذلك قام صلاح الدين بزيارة الاسكندرية مرتين للاشراف على بناء السور ومشاهدته والعمل على إتمام بنائه .

أما بالنسبة لتنيس :-

تنيس جزيرة تقع الى الشمال الشرقى من بحيرة المنزلة قرب بورسعيد الحالية، وقد انتدب صلاح الدين الامير بهاء الدين قراقوش سنة ٥٧٧هـ لعمارة

قلعتها التى كثيرا ما كانت تتعرض لهجمات الصليبيين، وخصص صلاح الدين مبلغ ثلاثة آلاف دينار من أجل عمارتها .كذلك اهتم صلاح الدين بسور هذه المدينـــة، وعمل تقرير برسم ما يحتاج اليه السور من أجل اعادته كما كان من قبل .

أما عن دمياط :-

فقد قام صلاح الدين بتحصينها بنفسه، اذ خرج اليها وبصحبته ولديه الأفضل نور الدين على والعزيز عثمان وكاتبه العماد الاصفهانى سنة ٥٧٢هـ، وتفقدوا تحصينات الميناء، كما رتب صلاح الدين المقاتلة على البرجين فى دمياط، كما قام باحكام السلسلة التى اقيمت فيها بين البرجين، وأمر بعمل جسر عند السلسلة وبرجها، ووجه صلاح الدين عناية خاصة نحو عمارة سور المدينة وترميمه. وسد ما به من ثغرات، وبلغت النفقة على ذلك الف الف دينار كما يذكر المقريزى.

وتجدر الاشارة الى أن صلاح الدين أقام بالسويس برجا يسع عشرين فارسا، لحفظ طريق الصعيد الذى يجلب منه الشب الى بلاد الفرنج .

عناية صلاح الدين ببناء الاسطول :-

اهتم صلاح الدين ببناء أسطول قوى لمصر خاصة وأن الأسطول الفاطمى قد أصابه الضعف بسبب:-التدهور الاقتصادى والصراع على منصب الوزارة، كما أن مصر فقدت جزيرتى قبرص وكريت وكانتا من القواعد الهامة للاساطيل الاسلامية فى البحر المتوسط، علاوة على ذلك فقد استولى الصليبيون بعد وصولهم إلى بلاد الشام فى القرن الحادى عشر على جميع الموانىء الكبرى فيها .

وكان على صلاح الدين -ليتمكن من مهاجمة الموانىء الساحلية فى الشام التابعة للصليبيين - أن يكون لديه امداد بحرى يأتيه من مصر فهى بمثابة نقطة الارتكاز التى تخرج منها الحملات الى بلاد الشام. ولتوفير السفن الخاصة بالاسطول أمر صلاح الدين : بأن يكون خشب السنط حكرا للدولة، ويخصص لبناء سفن الاسطول، ومنع الناس من قطع هذا النوع من الخشب، كذلك اهتم بانشاء دور صناعة السفن اللازمة لاعداد الاسطول .وفضلا عن هذا وذاك فقد أنشأ صلاح

الدين ديوان عرف بأسم "ديوان الاسطول " للاشراف على بناء السفن وتجهيزها، كما كان هذا الديوان يقوم بالنفقة على العاملين فى بناء السفن، مما ساعد على اعادة النشاط الى دور الصناعة أى صناعة السفن. وقد جعل صلاح الدين الخدمة فى الأسطول اجبارية، وأصدر امرا بأخذ الرجال للخدمة فيه .

صلاح الدين والصليبيون :-

بعد أن نجح صلاح الدين فى توحيد الجبهة الاسلامية تحت قيادة واحدة، وبعد أن قام بتحصين مصر واطمئن علىأمنها وسلامتها، كان عليه أن يشرع فى الجهاد ضد الصليبيين فى بلاد الشام .أما عن الصليبيين فى بلاد الشام ففى الوقت الذى أصبح فيه المعسكر الاسلامى جبهة واحدة على رأسها قائد شجاع هو صلاح الدين، بدأ الانقسام يدب فى المعسكر الصليبى بالشام، فعندما توفى عمورى ملك بيت المقدس، خلفه على العرش ابنه "بلدوين الرابع "الذى اتصف بالذكاء والاخلاص والرغبة فى مواجهة الاخطار الداخلية والخارجية، التى واجهت الصليبيين فى الشام، غير أنه عندما اعتلى العرش، كان فى الثالثة عشر من عمره، وأصيب بمرض الجذام، وسمى بالمجذوم، مما حطم طاقته وفت فى عضده .

ونظرا لصغر سن بلدوين، فقد تولى الوصاية عليه "ريموند الثالث "امير طرابلس كما سبق أن ذكرنا، وشارك ريموند فى الوصاية على بلدوين أخت بلدوين وهى "سيبيل" Sybelle، وكانت سيبيل قد تزوجت مرتين الاولى من وليم مونتفرات فى عام ١١٧٦م وأنجبت منه ولدها"بلدوين الخامس "ثم توفى وليم بعدها فى عام ١١٧٧م بمرض الملاريا قبل أن تضع سيبيل ولدها بلدوين الخامس .وبعد وفاة وليم تزوجت سيبيل ثانية من "جاى لوزجنان أو لوزنيان" فى ١١٨٠م، وهو فارس فرنسى، ضعيف الشخصية، اتصف بالتردد وسوء التدبير، وتذكر الروايات أنه كان جميل الخلقة، ولكنه كان دنئ الخلق، حتى قال عنه أخاه حينما علم بأنه سيصبح ملكا : "إذا كان هذا ملكاً فما أجدرنى أن أكون الهاً...!!"، ولكنه ما لبث أن أعلن حاكما على بيت المقدس بحكم زواجه من سيبيل Sybelle.

وكان اعلان جاى حاكما على بيت المقدس بمثابة الشرارة التى فجرت الصراع بين الصليبيين فى بلاد الشام، فقد قوبل تعيينه بالرفض والغضب، اذ رأى فيه ريموند الذى كان يتطلع الى العرش أنه ليس بالرجل الكفء الذى يتطلبه الموقف، وأنه دون تحمل المسئولية .ومع ذلك فقد تمكن جاى من الانفراد بالعرش، خاصة بعد أن توفى بلدوين بمرض الجذام فى عام ١١٨٥م .

ونتيجة لذلك أنقسم الصليبيون الى معسكرين، أحدهما تتزعمه سيبيل ولدها بلدوين الخامس وزوجها جاى لوزجنان، أما المعسكر الثانى فكان على رأسه ريموند الثالث أمير طرابلس . وقد اختلفت نظرة كلا المعسكرين الى المسلمين. فبينما كان المعسكر الاول يرى ضرورة استخدام العنف والشدة مع المسلمين ومبادرتهم بالحرب، اذ بالمعسكر الثانى يرى ضرورة مهادنة المسلمين ومصالحتهم .وعلق المؤرخ وليم الصورى على هذا الانقسام بقوله أو بترديده قول السيد المسيح (انجيل متى) "كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب، وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت " .

وفى وسط هذا الانقسام ظهرت شخصية "ارناط " أو "ريجنالد دى شاتيون "وهو فارس فرنسى الاصل، حضر الى الشام بصحبة لويس السابع ملك فرنسا، ووقع أرناط فى أسر نائب نور الدين محمود فى حلب وهو "مجد الدين بن الداية " وذلك فى معركة حارم سنة ٥٥٥/١١٦٠م، ثم اطلق كمشتكين حاكم حلب سراحه بعد ستة عشر عاما، ثم تزوج من أرملة صاحب حصن الكرك ووريثته، وأصبح ارناط بمقتضى ذلك حاكما على هذا الحصن، الذى كان يتحكم بموقعه الفذ - جنوب البحر الميت - فى طرق المواصلات بين مصر والشام والحجاز. ولم يكن ارناط من طراز الفرسان الذين مجدتهم العصور الوسطى لتمسكهم بمبادىء الشرف والفضيلة، بل عرف بالتهور والطيش، والميل الى السلب والنهب والاعتداء على الابراء والمسالمين، حتى أن المؤرخين الاوربيين أنفسهم كانوا يطلقون عليه أسم "الفارس اللص ".

وكان ارناط أشد الصليبيين عداوة للمسلمين، وأكثرهم تعطشا لقتالهم، ومن

ثم فقد لعب ارناط دورا بارزا فى الصراع بين صلاح الدين والصليبيين، وجر بتصرفاته الطائشة على الصليبيين الكثير من المتاعب التى كانوا فى غنى عنها .اذ لم يكتف ارناط بقطع الطريق على القوافل المارة بمصر والشام والحجاز، وأنما لجأ إلى تهديد الحرمين الشريفين فى الحجاز، ومحاولة نبش قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكان يهدف من وراء ذلك الى : طعن العالم الاسلامى بتهديد مقداساتهم، والسيطرة على البحر الاحمر، واحتكار تجارة الشرق والمحيط الهندى، وخاصة تجارة التوابل التى تعد من أثمن التجارات فى هذا العصر .

وكان على ارناط من أحل أن يحقق مشروعه هذا أن يغزو البحر الاحمر. وهنا يجب أن نشير الى أن هذا لم يكن امرا مسموحا به فى ذلك الحين، اذ كان البحر الاحمر مغلقا فى وجه السفن غير الاسلامية، ولم يسمح لغير المسلمين بالمرور فيه حتى عصر على بك الكبير، لاسباب من بينها :-

١) أن البحر الاحمر يطل على الحرمين الشريفين .

٢) أن الملاحة فى البحر الاحمر تحتاج الى سفن من نوع خاص لا يستخدم فى صناعتها المسامير، لوجود مادة مغناطيسية فى قاع هذا البحر، فضلا عن الشعاب المرجانية التى تملائه، وقد برع المسلمون فى صناعة هذا النوع من السفن . .

٣) تحتاج الملاحة فى هذا البحر الى خبرة بحرية، وقد اكتسبها المسلمون وتعلموها بل واجادوها، خاصة الذين تقع بلادهم على ساحل هذا البحر .ولهذا لاعجب أن اطلق على هذا البحر "البحيرة الاسلامية ".

وبدأ ارناط تنفيذ مشروعه الغريب فى عام ٥٧٨هـ /١١٨٢م بالاستيلاء على آيلة، وهى ميناء هام يقع على رأس خليج العقبة، ثم لجأ ارناط الى بناء عدة سفن، حملت اجزاؤها مفككة الى خليج العقبة، وهناك ركبت وشحنها ارناط بالمقاتلين، واتجه على رأسها لمهاجمة الموانىء الاسلامية الواقعة على البحر الاحمر، فأغار على السواحل المصرية الواقعة على هذا البحر، ووصل بسفنه اولا الى ميناء "عيذاب "فى مواجهة جدة، وهو أشهر ميناء لتجارة التوابل فى العصور الوسطى،

ونهب ارناط بعض السفن التجارية التى كانت ترسو فى هذا الميناء، والوافدة من جدة واليمن وعدن والهند، وأسر تجار هذه السفن .

ثم انتقل ارناط واعوانه بعد ذلك الى شاطىء الحجاز، حيث نزلوا على ساحل الحوراء قرب ينبع، وتركوا سفنهم على الساحل، واستعانوا ببعض الخونة من البدو، الذين دلوهم على البلاد من الداخل، فتوغلوا فيها حتى أصبحوا على مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة، على نحو ما يذكر المقريزى، وعزموا على دخولها، ونبش قبر الرسول الكريم، ونقل جسده الشريف إلى بلادهم، ودفنه عندهم، ولايمكنوا المسلمين من زيارته الا بجعل أى ضريبة.

وكان العدوان على الحرمين الشريفين، والتهديد السافر للاماكن المقدسة بالحجاز أمرا لا يمكن السكوت عليه، فما كادت هذه الأخبار تصل إلى صلاح الدين وهو بالشام حتى أرسل الى أخيه العادل فى مصر يأمره بتجهيز الاسطول المصرى، وأسرع العادل إلى اعداد الاسطول، وجعل على رأسه "حسام الدين لؤلؤ" وارسله الى البحر الأحمر خلف العدو، وحملت أجزاء هذا الاسطول مفككة على ظهور الجمال الى القلزم، وهناك ركبت وشحنت بالمقاتلين، وانزلت فى البحر .

وبدأ الاسطول المصرى بالاغارة على آيلة حيث وجد بها عدد من السفن الصليبية، فاستولوا عليها وأسروا من فيها، ثم اتجه الاسطول المصرى الى عيذاب، حيث اطلق سراح التجار الأسرى بها وأعاد اليهم حوائجهم . ثم تعقب الاسطول المصرى اسطول ارناط إلى شواطىء الحجاز، فنزل على ساحل الحوراء حيث هاجم السفن الصليبية الراسية بهذا الميناء ودمرها واسر من فيها، ونزل حسام الدين بعد ذلك على الساحل، وأخذ يتعقب الصليبيين ويطاردهم حتى تم أسرهم جميعا، ولم ينجح فى الفرار سوى ارناط وبصعوبة بالغة.

وأرسل الأمير حسام الدين قائد الاسطول المصرى بعض الاسرى الصليبيين الى منى فى موسم الحج، فذبحوا كما تذبح الشاة عقابا لهم على فعلتهم هذه، أما باقى الاسرى فقد عاد بهم حسام الدين إلى مصر، وأمر صلاح الدين بقتل هؤلاء الاسرى ليكونوا عبرة لكل من يتجرأ على الاعتداء على حرم الله وحرم رسوله،

وتم قتل الاسرى بالفعل بعد استعراضهم فى شوارع القاهرة والاسكندرية، وهم يركبون الجمال والحمير ووجوههم إلى ذيولها، وحولهم الطبول والأبواق .

أما عن صلاح الدين فقد رد على عدوان ارناط بحصار حصن الكرك فى أواخر ٥٧٩هـ /١١٨٣-١١٨٤م غير أنه لم يستطع الاستيلاء على هذا الحصن لقوة تحصينه ويبدو أن صلاح الدين كان مشغولا فى ذلك الوقت بتنظيم الاوضاع الداخلية فى دولته، وإحلال أبنائه محل أخوته وأبناء عمومته فى الاجزاء الرئيسية من دولته. لذلك اكتفى صلاح الدين بأن عقد هدنة مع الصليبيين، مدتها أربع سنوات، تبدأمن عام ٥٨٠هـ/١١٨٥م، وكان لعقد هذه الهدنة اهمية كبيرة بالنسبة لصلاح الدين والصليبيين على حد سواء .فبالنسبة لصلاح الدين اتاحت له الفرصة لتنظيم دولته، أما بالنسبة للصليبيين كانت الهدنة فرصة ذهبية لتصفية كثير من المشاكل الداخلية التى نشبت فى دولتهم، خاصة بعد وفاة بلدوين الرابع ٥٨٠هـ/١١٨٥م والصراع على العرش بين جاى وريموند .

موقعة حطين واستعادة بيت المقدس (٥٨٣هـ/١١٨٧م) :-

أخذت قوافل الحج والتجارة تغدو وتروح بين البلاد الاسلامية بمقتضى الهدنة السابقة الموقعة بين صلاح الدين والصليبيين، وكانت هذه القوافل تمر بصحراء الاردن وحصن الكرك .ومما لاشك فيه أن ارناط حاكم هذا الحصن استطاع أن يجمع من وراء ذلك العديد من المكوس الجمركية التى كان يفرضها على هذه القوافل، غير أنه لم يقنع بذلك، أنما عاوده الحنين إلى السلب والنهب وأعمال اللصوصية، اذ كان لا يستطيع "أن يحيا هادئا دون أن ينهب أو يسرق "على حد تعبير المؤرخ الفرنسى جروسيه Grousset.

وكان أن نقض ارناط الهدنة، وانقض فجأة على على قافلة كبيرة للمسلمين، يقال أنه كان بها أحدى عائلات البيت الايوبى أو كان بها أخت صلاح الدين، وقيل أمه وذلك بعد عامين من عقد الهدنة وبالتحديد فى عام ٥٨٢ هـ/١١٨٦م. وكانت هذه القافلة فى طريقها من القاهرة الى دمشق .ويبدو أن ما كانت تحمله القافلة من ثروات ضخمة اسالت لعاب ارناط، فنصب كمينا لها، واستولى على ما

تحمله من ثروة وبضائع، وأسر رجالها فى حصن الكرك، وأساء معاملتهم إلى حد كبير "وسامهم الشد والشدة" على حد تعبير أبى شامة .

وأرسل صلاح الدين الى ارناط مهددا أياه وطالبا منه، أن يرد الاسرى والغنائم، ولكن ارناط رفض طلب صلاح الدين، ورد عليه ردا استفزازيا اذ أرسل يقول له : "فليأت محمدكم ليخلصهم". ومع ذلك فقد تمالك صلاح الدين نفسه، وظل محترما لشروط الهدنة مع الصليبيين، وارسل الى ارناط يقول له : "أين العهود والمواثيق، رد ما أخذت " وارسل صلاح الدين كذلك إلى جاى دى لوزينان Guy de Lusignan ، ملك بيت المقدس، طالبا منه أن يرغم ارناط على رد الاسرى والبضائع، غير أن جاى لم يفلح فى هذه المهمة، اذ رفض ارناط رجاء ملك بيت المقدس، وذلك لأنه كان يشعر بأنه صاحب فضل عليه اذ ساعده فى الوصول إلى عرش مملكة بيت المقدس عقب وفاة بلدوين الرابع، فما كان من جاى الا أن أخبر صلاح الدين بأنه عاجز على ارغام ارناط على رد الأسرى والغنائم .ولذا أقسم صلاح الدين أنه اذا تيسر له أن يقبض على ارناط فسوف يقتله بيده وكانت هذه الحادثة بمثابة عود الثقاب الذى اشعل نار الحرب.

ولم يعد أمام صلاح الدين الا إعلان الحرب على الصليبيين، فأخذ فى تعبئة قواته تعبئة شاملة، وحرص على توفير كافة الموارد البشرية والمادية استعدادا لقتال الصليبيين ولحركة الجهاد الكبرى، التى لم تنته سوى فى ختام القرن الثالث عشر بالقضاء على آخر البقايا الصليبية فى بلاد الشام وبالتحديد فى عام ١٢٩٢م .

وقد اختار صلاح الدين أن يقيم فى دمشق خلال هذه المرحلة، ليتخذها مركزا ينظم منه تحركات قواته من مصر وحلب والجزيرة الفراتية. وعندما اكتملت استعدادات صلاح الدين، خرج من دمشق عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م فقصد الكرك، وقطع اشجاره اولا، ثم قصد الشوبك ففعل به ما فعله بالكرك، ثم اتجه إلى بانياس قرب طبرية لمراقبة الموقف .

واثناء وجود صلاح الدين فى بانياس، أرسل قوة استطلاعية واستكشافية إلى عكا، وكان على هذه القوة لكى تصل من بانياس إلى عكا أن تمر باقليم الجليل الذى كان يخضع لريموند أمير طرابلس، ونظرا لتحالفه مع صلاح الدين وعلاقته الودية

به، فقد سمح ريموند لهذه الفرقة بالعبور، ولكن لم يتم العبور بسلام، فعندما علم مقدم الداوية "فرسان المعبد "ويدعى جيرار بمرور المسلمين عبر اقليم الجليل، جمع بضع مئات من الصليبيين، وتصدى بهم للفرقة الاستطلاعية بالقرب من "صفورية" على مقربة من عكا. وعند صفورية دارت معركة عنيفة بين المسلمين والصليبيين، أسفرت عن انتصار المسلمين الذين قتلوا القوة الصليبية عن بكرة أبيها، باستثناء بعض الافراد الذين نجحوا فى الفرار من القتل وهم جيرار واثنين من الفرسان. وعلق أبو شامة على هذه المعركة بقوله أنها "باقورة الخيرات ".

وحملّ الصليبيون ريموند تبعة هذه الهزيمة، ومسئولية هذه الكارثة التى حلت بهم، لذلك لم يجد ريموند مفرا من نقض تحالفه مع صلاح الدين، وعاد إلى التعاون مع بنى قومه الصليبيين من جديد. وردا على تصرف ريموند قام صلاح الدين بمهاجمة طبرية التابعة لاشيفا زوجة ريموند، واقتحم المسلمون المدينة وأحرقوها، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على قلعتها، التى احتمت بداخلها زوجة ريموند .ثم قام صلاح الدين بأفساد آبار طبرية حتى لا ينتفع بها الصليبيون اذا ما فكروا فى المجىء اليها .

وحشد الصليبيون جيوشهم عند صفورية، ثم عقدوا اجتماعا فى عكا، وفى هذا الاجتماع انقسمت كلمتهم، فقد رأى فريق منهم وعلى رأسه ريموند أمير طرابلس، أنه من الافضل ان تظل الجيوش الصليبية فى صفورية، لقربها من ممتلكاتهم على الساحل من ناحية، وليضطر صلاح الدين أن يقطع الطريق من طبرية الى صفورية، ويصل إليها وقد انهكه التعب، وبالتالى يسهل القضاء عليه وعلى جيشه والانتصار عليهم . أما الفريق الثانى فكان على رأسه ارناط حاكم حصن الكرك، وكان يرى ضرورة التقدم نحو طبرية لمفاجأة صلاح الدين .

وكان أن عمل الصليبيون برأى ارناط مما كان له اسوء الاثر على الجيش الصليبى، اذ كان الوقت صيفا، وازدادت حرارة الشمس، وزاد من أثر حرارتها ما كان يحمله الجنود من اسلحة وخوذ ودروع مصنوعة كلها من الحديد، لذلك كادت أجسامهم تشتعل من شدة الحرارة، وأكثر من ذلك أنهم عندما عبروا المنطقة الصحراوية، ووصلوا الى قرون حطين أى تلال حطين، أسرعوا إلى الآبار

المحيطة بطبرية ليروا عطشهم، ولكنهم وجدوا أن صلاح الدين كان قـد أفسـدها. وهكذا عانى الصليبيون من "مشقة الطريق، وحرارة الجو، وقلة الماء " فى حين نعم المسلمون بالظل المديد، والماء العذب الوفير .

وعندما علم صلاح الدين بزحف الصليبيين سر سرورا كبيرا وقال : "جاء ما نريد " .ويؤكد أبو شامة أن هجوم صلاح الدين على طبرية كان خدعة اراد بها صلاح الدين أن يجبر الصليبيين على ترك مواقعهم عند صفورية والمجىء إلى طبرية، وبالتالى تسهل هزيمتهم بعد أن يعتريهم التعب من طول الطريق وحرارة الجو. وقد تحقق ما اراده صلاح الدين .

وفى صباح اليوم الرابع من شهر يوليو عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م دارت وقائع معركة حطين، وكان اليوم شديد الحرارة، وزاد من حرارته أن المسلمين قاموا باشعال النيران فى الحشائش الموجودة أسفل هضبة حطين، وكان الهواء على الصليبيين، فحمل لهم حر النار والدخان .وسرعان ما دارت المعركة بين المسلمين والصليبيين فى هذا اليوم، وأحاط المسلمون بخصومهم وحاصروهم من جميع الجهات، وعندما وجد ريموند ثغرة حاول أن يخرج منها، قام المسلمون بخدعة حربية مكنتهم من فصله عن بقية الجيش الصليبي، لذلك فضل ريموند أن يفر بجيشه من ميدان المعركة نجاة بنفسه وجيشه، وأسرع بالعودة إلى طرابلس مقر ملكه، مما أضعف الجيش الصليبي، واتاح الفرصة لصلاح الدين للانقضاض عليه، فقتل من قتل، أما من نجا فكان مصيره الإسر. وفى ذلك يذكر ابن الاثير : "وكان من يرى الأسرى لكثرتهم لا يظن هناك قتلى، فإذا رأى القتلى حسب أنه لم يكن هناك أسرى".

وكان من بين الأسرى جاى لوز جنان، ملك بيت المقدس، وارناط صاحب حصن الكرك، وجيرار مقدم الداوية، وسيقوا جميعا إلى صلاح الدين فى خيمته حيث أحسن معاملتهم واستقبالهم، وكانوا جميعا عطشى فقدم لهم الماء المثلج، ليرووا ظمأهم، غير أنه لم يسمح لارناط بأن يشرب، وحدث كما يروى أبو شامة ان ملك بيت المقدس بعد ان شرب أعطى ارناط ليشرب، فقال له صلاح الدين : "قل للملك

انت الذى سقيته، أما أنا فما سقيته، ومن خلق العرب ومكارم أخلاقهم أن الأسير اذا أكل أو شرب من ماء من أسره يصبح آمنا ".لذلك أحضر ارناط إلى صلاح الدين، فعرض عليه الاسلام، فلم يفعل ورفض ذلك، وعندئذ قتله صلاح الدين، ورمى به على باب الخيمة. وقد عامل صلاح الدين جاى فى الأسر معاملة حسنة وسمح له بالإقامة مكرماً فى مدينة نابلس، وأحضر له زوجته سيبيل لتعيش معه، ثم أطلق سراحه بعد عام تقريباً من أسره إكراماً له. كذلك أطلق سراح بعض كبار الأسرى الصليبيين حتى يرافقوه عند عودته، ولقاء ذلك تعهد جاى "بالا يشهر فى وجهه سيفاً أبداً ويكون علامه ومملوكه" كما تذكر المصادر.

وتعتبر معركة حطين من المعارك الفاصلة فى تاريخ الحروب الصليبية، لان الصليبيين لم يفيقوا من تلك الضربة التى فقدوا على اثرها زهرة شبابهم وصفوة فرسانهم، بل ووقع نتيجة لها جاى لوز جنان ملك بيت المقدس فى أسر صلاح الدين، وبالتالى أصبح من السهل عليه أن يستولى على بيت المقس بسهولة، بعد أن غدت المدينة بلا ملك يحميها، ولا جيش يدافع عنها .ومع ذلك فقد ارجأ صلاح الدين الاستيلاء عليها، ووضع سياسة أخرى تهدف إلى الاستيلاء على الموانىء الساحلية فى الشام، وذلك ليحرم الصليبيين من الحصول على أى عون أومساعدات قد تأتيهم من غرب اوربا عن طريق البحر، مما يسهل عليه أن يستولى على المدن والقلاع الداخلية من أيدى الصليبيين .كما أن الاستيلاء على المدن الساحلية فى بلاد الشام سوف يهيأ له اتصالا سهلا بين شطرى دولته مصر والشام .

وراح صلاح الدين يستولى على مدن الساحل الشامى بداية من عكا والمعاقل القريبة منها، وقد استسلمت عكا بمجرد رؤية الجيش الاسلامى، ويبدو أن السياسة الرحيمة التى اتبعها صلاح الدين مع أهل الساحل، ساعدته كذلك فى الاستيلاء عليها. ونجح أخوه العادل فى ذات الوقت فى الاستيلاء على يافا وصيدا، ثم أتم صلاح الدين الاستيلاء على جميع مدن الساحل، ومنها بيروت وجبيل وعسقلان، ولم يستعص على صلاح الدين سوى "صور ". ويرجع السبب فى ذلك الى :-

اولا :- أن صلاح الدين كان يترك الحرية لاهل المدن التى فتحها، فأما أن

يظلوا فى مدنهم أما أن يرحلوا عنها، ففضل الغالبية الرحيل، وتجمعوا فى صور، ونتج عن ذلك أن "تجمع بها كل افرنجي بالساحل" على حد تعبير أبى شامة. وهذا يعنى أن جميع عناصر المقاومة، تجمعت فى صور، فأستحال على صلاح الدين الاستيلاء عليها، فقد أتخذها الصليبيون قاعدة ومركزا لاحياء مملكة بيت المقدس. وهذا ما جعل بعض المؤرخين المسلمين ومنهم ابن الاثير ينقد صلاح الدين نقدا مرا لاذعا، لتساهله مع خصومه تساهلا ألحق الضرر بمصالح المسلمين، ولكن تجدر الاشارة الى ان صلاح الدين، "عندما منح أهل الساحل حرية الاختيار فى البقاء أو الرحيل، كان يرغب فى أن يشجعهم على التسليم دون مقاومة، والاستيلاء على هذه المدن دون تضحية بارواح رجاله، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى اراد صلاح الدين أن يحشد الصليبيين فى مكان واحد بالساحل، فمن المعروف أن الحصون والقلاع الداخلية أشد خطرا من المدن الساحلية.

ثانيا : – ان حاكم صور ويدعى "كونراد" قام بالدفاع عنها، وساعدته المدن الإيطالية فى ذلك. وامتنع كونراد عن مراسلة صلاح الدين بشأن تسليم المدينة، وعندما وصل إليها صلاح الدين، عرض على حاكمها كونراد أن يطلق سراح أبيه المركيز "وليم الثالث مونتفرات" وكان من أسرى معركة حطين فى مقابل تسليم المدينة، فرفض كونراد وأصر على عدم التسليم، والدفاع عن المدينة رغم أن صلاح الدين هدده بذبح أبيه. والحقيقة أن كونراد كان يتطلع إلى عرش بيت المقدس، وسوف ينجح فى انتزاعه من جاى، خاصة بعد وفاة زوجته سيبيل التى منحته هذا الحق، فسوف يتم زواج كونراد من اختها ايزابيلا Esabelle ووقوع الاختيار عليه ليصبح ملكاً على بيت المقدس فى مقرها الجديد (عكا).

ثالثا : – تحصينات صور الطبيعية، فهى مدينة ذات موقع ممتاز، ويتميز ميناؤها بموقعه الفريد، وأسوارها ضخمة متينة التحصين، كما يذكر الرحالة ابن جبير، الذى زار هذه المدينة.

وبعد ان استعصت صور على صلاح الدين، ترك مدن الساحل، واتجه نحو الداخل للاستيلاء على مدن فلسطين الداخلية، وعلى رأسها مدينة "بيت المقدس".

وكان أهل بيت المقدس قد استفادوا من الفرصة التى اتيحت لهم باتجاه صلاح الدين نحو الساحل، فحصنوا مدينتهم، ورفضوا أن يسلموها لصلاح الدين مقابل تأمينهم، وعندما رأى صلاح الدين عنادهم، اقسم على أن يستولى عليها بحد السيف، وبدأ هجومه على المدينة من الناحية الشمالية، وعندما أحس الصليبيون أنهم لن يستطيعوا المقاومة، طلبوا الامان، وتمنع صلاح الدين فى البداية، ولكنه ما لبث أن لبى طلبهم، ووافق فى النهاية على أن يسمح لهم بالخروج سالمين، مقابل فداء عن كل رجل عشرة دنانير، وامرأة خمسة دنانير. وطفل دينارين، فمن دفع خلال أربعين يوما، سمح له بالخروج من المدينة ومن لم يدفع أسر إلا أنه كان كريما غاية الكرم مع رجال الدين المسيحى، وسمح للبطريرك بالخروج من المدينة ومعه كل أمواله وأموال الكنائس وذخائرها دون أن يدفع سوى عشرة دنانير. وتقدم نساء الفرنج اللائى افتدين أنفسهن إلى صلاح الدين والدموع تملأ عيونهن، وسألنه أين يستطعن الذهاب، فقد قتل أزواجهن أو اباءهن أوقعوا فى الأسر؟ فما كان من صلاح الدين الا أن وعدهن بأن يطلق سراح كل زوج أسير، وأعطى الأرامل واليتامى منهن منحة تتناسب مع مكانتهن من حر ماله.

وهكذا دخل صلاح الدين مدينة بيت المقدس فى يوم الجمعة الموافق ٢٧من رجب سنة ٥٨٣هـ/ ٢من اكتوبر ١١٨٧م، وشاءت الظروف أن يكون هذا اليوم هو يوم احتفال المسلمين بليلة الاسراء والمعراج، فأحتفل المسلمون بهذه المناسبة الدينية احتفالا كبيرا، وأحسن صلاح الدين معاملة الصليبيين مما جعل العديد من المؤرخين يشيدون بسياسة التسامح التى أتبعها صلاح الدين، ويقارنون بينها وبين المعاملة السيئة التى تعرض لها المسلمون على أيدى الصليبيين حينما دخلوا بيت المقدس فى عام ١٠٩٩م. وكان يوم استرداد بيت المقدس من أيام الاسلام، فقد ارتقى الخطيب المنبر، وأعلن استرداد صلاح الدين لهذه المدينة من أيدى الصليبيين، وكان هذا منتهى العظمة بالنسبة لصلاح الدين.

ولم يبق أمام صلاح الدين بعد أن قوض البناء الصليبي فى فلسطين سوى البقايا الصليبية فى شمال الشام، أى امارتى طرابلس وانطاكية .وبالنسبة لطرابلس:

بدأ صلاح الدين بالاستيلاء على بعض القلاع الصليبية الهامة فى اقليم الجليل التابع لطرابلس، كما حاصر قلعتى صفد وحصن كوكب، واستولى عليهما بصعوبة، كما استولى على بانياس فى أقصى الشمال من امارة طرابلس .

أما عن **انطاكية** : فقام صلاح الدين بالاستيلاء على اللاذقية أكبر موانىء الامارة، كذلك استولى على جبلة، وهاجم حصن صهيون، واستولى عليه، ونجح صلاح الدين أيضا فى الاستيلاء على معظم معاقل الامارة اللهم الا ثلاثة حصون هى : القصير، وبغراس، ودربساك، على أنه ما لبث أن استولى عليها .وبذلك أصبحت امارتى طرابلس وانطاكية "مقصوصتى الجناح " على حد تعبير أبى شامة. وعلى هذا النحو لم يبق للصليبيين بالشام سوى صور، ومن طرابلس عاصمتها طرابلس، وحصن الاكراد، وقلعة انطرطوس. ولم يبق من انطاكية سوى عاصمتها انطاكية، وحصن المرقب، وبعض المراقع الثانوية .

صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة :- .

كان لسقوط مدينة بيت المقدس فى أيدى المسلمين، وضياع معظم الممتلكات الصليبية فى الشام صدى قوى فى أوربا، خاصة بعد أن ذهبت سفارة على رأسها رئيس أساقفة صور، يصطحب معه جماعة من الرهبان والقساوسة، وتوجهوا الى اوربا وهم يلبسون السواد، ويحملون صورة السيد المسيح، أمامه رجل عربى يضربه بعصا، ويقولون هذا نبى العرب يضرب المسيح، وقد بالغوا فى دعايتهم، واعلنوا أن المسلمين قد دنسوا قبر المسيح فى مدينة بيت المقدس .

لذلك قامت البابوية وعلى رأسها البابا "كليمنت الثالث " (١١٨٧ _ ١١٩١م) بدعوة ملوك اوربا وامرائها للقيام بحملة صليبية كبرى لاسترداد مدينة بيت المقدس من أيدى المسلمين، والثأر لما حل بالصليبيين فى الشام على يد صلاح الدين .ولم يلبث أن استجاب لهذه الدعوة ثلاثة من ملوك اوربا هم : ريتشارد قلب الاسد (١١٨٠ -١٢٢٣م) ملك انجلترا، وفيليب اغسطس (١١٨٩ -١١٩٩م) ملك فرنسا، وفردريك بربروسا امبراطور المانيا. وقد فرضت اوربا لتمويل هذه الحملة

ضريبة خاصة عرفت باسم "عشر صلاح الدين ".

واختار فردريك أن يأتى إلى الشام عن طريق البر، عبر البلقان وآسيا الصغرى ليصل إلى بلاد الشام، هذا فى حين سلك كل من فيليب ملك فرنسا وريتشارد ملك انجلترا طريق البحر. على أن الحملة الالمانية لم يحالفها التوفيق اذ تعرضت فى الطريق لمصاعب عدة من جانب الدولة البيزنطية اولا ثم من جانب السلاجقة .فقد واجه بربروسا عداء شديدا من جانب الامبراطور البيزنطى "اسحاق انجيلوس (١١٨٥-١١٩٥م) " وذلك نظرا للتحالف بين بربروسا والنورمان اعداء الدولة البيزنطية، لذلك قام الامبراطور اسحاق بمحالفة صلاح الدين، وأخبره بمجيء هذه الحملة. وفى نفس الوقت سمح لفردريك بعبور الاراضى البيزنطية. وأمده بالمساعدات، ولكن ما لبثت حملة فردريك أن تعرضت لصعوبات من جانب السلاجقة عند عبورها اراضيهم فى آسيا الصغرى. وانتهى مصير هذه الحملة بغرق الامبراطور فردريك فى أحد أنهار آسيا الصغرى .(فى قيليقية) وهو يعبرها بفرسه، وتشتت على أثر ذلك حملته، ولم يمكنها الوصول إلى الشام .

اما عن فيليب فقد وصل بحملته إلى بلاد الشام فى ٢٠ ابريل ١١٩١م، فى الوقت الذى شرعت فيه البقايا الصليبية فى الشام، والتى تجمعت فى صور فى حصار عكا محاولة استردادها من أيدى المسلمين وقد وقع اختيار الصليبيين على عكا بالذات لانها كانت الميناء الرئيسى لمملكة بيت المقدس، هذا الى جانب تحصيناتها الطبيعية، فهى تقع على خليج صور وحيفا، ويسهل عن طريقها الوصول الى بيت المقدس، كذلك يستطيع الصليبيون الحصول عن طريقها على المساعدات والمؤن من الغرب.

وتولى فيليب مسئولية قيادة القوات الصليبية فور وصوله الى عكا، وما لبث ريتشارد أن وصل الى عكا بدوره، وانضم إلى الصليبيين فى حصارها الذى استمر عامين كاملين، نجح الصليبيون بعدهما فى الاستيلاء على المدينة بعد مقاومة عنيفة من جانب والى المدينة وحاميتها، وكان على رأسها الامير بهاء الدين قراقوش وابن المشطوب الهكارى، واضطرت الحامية الى التسليم رغم شجاعتها وما ابدته من مقاومة عنيفة، ولم تفلح الهجمات التى شنها صلاح الدين على الجيوش الصليبية لانقاذ عكا، ومحاولة تزويدها بالمؤن عن طريق ميناء بيروت. وكانت شروط

التسليم على النحو التالى :

- أن تسلم المدينة للفرنج بما فيها من الآلات والعدد والأسلحة.
- أن تدفع مائتى ألف دينار فدية لمن بها من أسرى المسلمين.
- أن يطلق سراح ألف وخمسمائة فارس من مجاهيل الأسرى الفرنج ومائة معينين بالاسم.
- أن يرد للفرنج صليب الصلبوت.
- أن يخرج جميع من فى المدينة من المسلمين سالمين.

وسلمت المدينة فى ١٧ جمادى الأخرة سنة ٥٨٧هـ/ ١٢ يوليو ١١٩١م ولكن حنث الفرنج بوعودهم ولم ينفذوا شروط الصلح، بل وقتلوا الأسرى وكان عددهم ثلاثة آلاف، ولم يبقوا سوى على الأمراء الأغنياء منهم. مما كان له أسوء الأثر على صلاح الدين خاصة وقد وقعت عكا فى أيديهم. ويرجع الفضل فى انتصار الصليبيين إلى أنه رغم الخلافات السياسية التى كانت بينهم، الا أنهم تكاتفوا وتعاونوا من أجل الاستيلاء على عكا .

وترتب على استيلاء الصليبيين على عكا أن ارتفعت الروح المعنوية للصليبيين، فى حين ضعفت عند المسلمين، بعد أن توالت هزائمهم، كذلك ضمن الصليبيون ميناء هاما على البحر المتوسط، يحصلون عن طريقه على الامدادات من الغرب الاوروبى .

وبعد نجاح الصليبيين فى الاستيلاء على عكا، حدث خلاف بين كل من فيليب اغسطس وريتشارد قلب الأسد، ترتب عليه ان اعتذر فيليب بالمرض، وأبحر عائدا الى فرنسا وذلك فى اغسطس من عام ١١٩١م، فى حين ظل ريتشارد فى بلاد الشام، ليصفى الحساب مع صلاح الدين، وتزعم ريتشارد القوى الصليبية، وعزم على استرداد بيت المقدس، وإعادتها إلى سابق عهدها .

وبدأ ريتشارد مشروعه بمحاولة الاستيلاء على المدن الساحلية من عكا الى عسقلان، ونجح الصليبيون بالفعل فى الاستيلاء على عدد من هذه المدن ومن بينها حيفا وقيسارية .ثم اتجه ريتشارد الى ارسوف، ولم يترك صلاح الدين الصليبيين يزحفون فى سهولة، وانما أخذ فى مطاردتهم حتى أصيب ريتشارد نفسه بجروح،

واوشك صلاح الدين أن يقضى على الصليبيين فى معركة خاضها معهم فى أرسوف، لولا ثبات ريتشارد الذى أعاد تنظيم رجاله بسرعة، واستطاع أن يحول المعركة لصالحه (شعبان ٥٧٨هـ/سبتمبر ١١٩١م).

وبعد نجاح الصليبيين فى ارسوف، جمع صلاح الدين رجاله، واتفق معهم على ترك المدن الساحلية بعد تخريبها، لان العدوأصبح قويا عند الساحل .وبدأ صلاح الدين فى تخريب المدن الساحلية، فبدأ بعسقلان ثم اللد والرملة، ثم اتجه بعد ذلك الى بيت المقدس لتقويتها وتحصينها، اذ كانت الهدف الذى يسعى اليه الصليبيون .

وفى الوقت الذى نجح فيه الصليبيون فى الاستيلاء على المدن الساحلية، وبدأوا يستعدون للتقدم نحو الداخل، حدث خلاف بين كونراد، حاكم صور، وبين الملك ريتشارد، وحاول كل منهما الاتصال بصلاح الدين لعقد صلح معه، وكان لكل منهما شروطه .فكانت شروط كونراد :- أن تكون له صيدا وبيروت، وأن يصبح حليفا للمسلمين ضد الصليبيين .ولكن صلاح الدين كان لايثق فى كونراد، لذلك طلب منه قبل عقد الصلح أن يقاتل معه الصليبيين، فرفض كونراد، وفشل فى عقد الصلح مع صلاح الدين. أما عن شروط ريتشارد للصلح مع صلاح الدين فكانت :-

-استعادة مدينة بيت المقدس، ورد صليب الصلبوت الذى يقال أن السيد المسيح صلب عليه .

-أن يأخذ الصليبيون البلاد الواقعة بين نهر الاردن والساحل .

-عقد تحالف بين المسلمين والصليبيين .

- أن يتزوج العادل أخو صلاح الدين من جوانا أخت ريتشارد، وأن يحكما سويا الدولة الجديدة فى بيت المقدس. ووافق صلاح الدين على هذا الشرط الاخير، كما قبل العادل الزواج من جوانا، غير أن جوانا رفضت عرض الزواج لأن رجال الدين حرضوها على عدم قبول الزواج من مسلم، وعندئذ أقترح ريتشارد كما تذكر بعض المصادر أن يتظاهر العادل بالمسيحية، فرفض العادل، ورفض صلاح الدين، وفشل هذا المشروع .

على أن ريتشارد عاد وفتح باب المفاوضات مرة أخرى مع صلاح الديـــن، وذلك نظرا لطول المدة التى أقام فيها فى بلاد الشام، وبعده عن وطنه انجلترا، إلى جانب أنه وصلته أخبار تمرد أخيه "حنا "وتطلعاته للتربع على العرش منتهزا طـول مدة غيابه عن انجلترا، مما تطلب سرعة عودته اليها. كما ان ريتشارد أحس أنه لن يستطيع أن يحقق أى انتصارات على قوم فى وسط بلادهم وباستطاعتهم أن يجددوا قواهم بصفة مستمرة، هذا فى حين تفصل بين دولته وبين ساحات القتال فى بـلاد الشام مساحات واسعة، فضلا عن أن ريتشارد ادرك أن مشاكل الصليبيين الداخلية فى الشرق كثيرة ومعقدة ويصعب حلها، وعلينا أن نضيف الى ذلك سـوء حالته الصحية، فقد اشتد عليه المرض، وأرسل إلى صلاح الدين يطلب فاكهة وثلجا، فأرسلها صلاح الدين إليه تقديرا لبطولته؟، كذلك انصراف الجميع عنه. كل ذلك دفع ريتشارد إلى فتح باب المفاوضات من جديد مع صلاح الدين .

وطال أمد المفاوضات بين الطرفين، وتخللها بعض المناوشات بسبب تمسك الفريقين بعسقلان فبينما يرى صلاح الدين ضرورة ان تكون عسقلان خربة ليست للمسلمين ولا للصليبيين، كان ريتشارد يرفض تسليم عسقلان وتخريبها .على أية حال انتهت المفاوضات بعقد صلح بين الطرفين، وعرف هذا الصلح باسم "صلح الرملة "فى ٢٢شعبان من عام ٥٨٨هـ/ ٢ سبتمبر ١١٩٢م ومن أهم شروطه :-

١) أن تكون المنطقة الساحلية الممتدة من صور الى يافا بما فيها عكا وحيفا وقيسارية للصليبيين .

٢) أن تظل بيت المقدس فى ايدى المسلمين .

٣) أن يسمح للحجاج المسيحيين بزيارة بيت المقدس دون الزامهم بدفع أية ضرائب.

٤) أن تترك عسقلان وما يليها جنوبا خرابا والا تكون لاحد من الطرفين خلال مدة الصلح ثم على من يحصل عليها بعد ذلك أن يقوم بإعادة تحصينها.

٥) أن تكون اللد والرملة مناصفة بين المسلمين والصليبيين .

٦) أن تكون مدة الصلح ثلاث سنوات وثلاثة أشهر .

وكان صلح الرملة خاتمة أعمال الحملة الصليبية الثالثة وتوقفت بعده أعمال

صلاح الدين الحربية، وبعد أن تم عقد الصلح، عاد ريتشارد الى بلاده بحرا، وظل صلاح الدين يقيم فى بيت المقدس حتى سمع برحيل ريتشارد من عكا، فشرع فى تنظيم ادارة اقليم فلسطين، ثم قام بجولة فى البلاد التى فتحها حتى وصل إلى دمشق حيث كانت تنتظره الأعمال التى تراكمت طوال خمس سنوات قضاها فى قتال الصليبيين. ولم يلبث صلاح الدين أن أصيب بالحمى، وما هى الا أيام حتى لقى ربه، وحزن عليه المسلمون أشد الحزن، وتمنى الكثيرون أن يفتدوه بأنفسهم .

والحقيقة أن وفاة صلاح الدين فى ٢٧ صفرعام ٥٨٩هـ/٤مارس ١١٩٣م كانت خسارة كبيرة للعالم الاسلامى بصفة عامة ولمصر والشام بصفة خاصة، فقد كان صلاح الدين بشهادة المؤرخين أعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية. ويعد عصره نقطة تحول خطيرة فى تاريخ مصر السياسى والحربى والادارى والمالى والاقتصادى .وقد ظهرت جهوده بجلاء من خلال قيامه بالغاء العديد من الضرائب التى فرضها الفاطميون، كما أنه أدخل نظام الاقطاع الحربى الذى اعتبر عصب النظام السياسى والادارى والحربى، فضلا عن ذلك فقد أنشأ صلاح الدين المدارس لتدريس المذاهب المختلفة، وشيد كذلك ديوان الاسطول للاشراف على بناء السفن وتجهيزها، نهيك عن قيامه بتشييد القلاع والاسوار لتحصين مصر وحمايتها. وهذا الى جانب جهاده ضد الصليبيين، واسترداده مدينة بيت المقدس .

الدولة الايوبية بعد صلاح الدين

توفى صلاح الدين، وترك خلفه دولة مترامية الاطراف، كما ترك عدد كبير من الابناء يقدر ب ١٧من الابناء وأبنة واحدة، هذا إلى جانب أخوته وابناء عمومته. ومن الملاحظ أن صلاح الدين اعتمد فى المرحلة الاولى من حياته على أخوته وابناء عمومته فى توطيد سلطانه، واختصهم بالمناصب الكبرى فى دولته، وكانوا ساعده الايمن فى الحرب والقتال، وفى حكم معظم اقاليم السلطنة المترامية . ولكن بعد أن استتب الامر لصلاح الدين، بدأ يغير سياسته هذه، فجعل لابنائه المكانة الاولى، ووزع عليهم الاجزاء الرئيسية، وخص أخوته وأقاربه بالمناصب الثانوية، والاجزاء الاقل أهمية .

ويروى فى هذا الصدد أن صلاح الدين قبل وفاته ببضعة أشهر، كان يتنزه فى حدائق دمشق بصحبة سليمان بن جندر، الذى كان صديقا لصلاح الدين وشاركه فى حروبه، والتفت ابن جندر الى صلاح الدين، ونظر الى أعلى شجرة حيث كان طير قد وضع فراخه فى اعلى الشجرة، وقال لصلاح الدين : "أن هذا الطير أعقل وأكثر حرصا منك " فلما سأله صلاح الدين عن مغزى قوله قال له سليمان : "أنظر الى هذا الطير، فقد وضع فراخه فى أعلى الشجرة، فى حين أنت وضعت أقاربك فى الحصون، واولادك على الارض " . وكان لهذه الرواية أكبر الاثر فى تغيير سياسة صلاح الدين .

أما عن الدوافع التى دفعت صلاح الدين الى تغيير سياسته فهى كما يتضح من الرواية السابقة أولا : عاطفة الأبوة الطبيعية التى جعلته يفضل أبناءه على أخوته، هذا الى جانب الخوف من أطماع أقاربه، وازدياد نفوذ أخوته .

وفى النهاية قسم صلاح الدين الدولة الايوبية بين أبنائه وأقاربه على النحو التالى : جعل أبنه الاكبر وهو "الافضل نور الدين على " يحكم دمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس، وامتدت دولته حتى حدود مصر. واحتفظ الابن الثانى وهو "العزيز عثمان " بمصر، وكان بها وقت وفاة أبيه. أما الابن الثالث وهو "الظاهر غازى " فقد حكم حلب وشمال الشام .

وكانت هذه هى الاقسام الرئيسة فى دولة صلاح الدين، وقد قسمها بين اولاده الافضل والعزيز والظاهر .أما بقية أجزاء الدولة وكانت ثانوية فقد وزعت على بقية اولاد صلاح الدين واخوته من ذلك أن العادل أخى صلاح الدين، أخذ الكرك والاردن، فضلا عن الجزيرة وديار بكر، وهى اقطاعات ثانوية بالقياس إلى اقطاعات ابناء صلاح الدين، كما أنها لا تتناسب مع مكانة العادل واهميته .أما بقية الاخوة والاقارب فقد حصلوا على اقطاعات ثانوية أيضا. ولذلك اتسمت الفترة التى اعقبت وفاة صلاح الدين بالنزاع بين ابنائه وأخوته واقاربه .

أما عن تفاصيل هذا النزاع فأن صلاح الدين اوصى بأن تكون السلطنة من بعده لابنه الافضل نور الدين على، صاحب دمشق، وأن تكون السلطة العليا فى بقية الدولة الايوبية للعزيز عثمان، فقد جرت العادة أن سلطان مصر هو السلطان الاساسى لمصر والشام، أما سائر حكام البلاد فهم ملوك .

وعلى الرغم من أن الأفضل عهد اليه بالسلطنة الا أنه لم يكن أهلا لهذه المهمة، وذلك لضعفه، وسوء سيرته، حتى وصفه المؤرخون بأنه "أقبل على اللعب ليله ونهاره وتظاهر بلذاته " وكرهه الناس لانه نحى امراء أبيه ومستشاريه، وجعل ثقته كلها فى شخص وزير جديد وهو "ضياء الدين بن الاثير " أخى المؤرخ الشهير ابن الاثير، وسمع كلام هذا الوزير، وقضى ليله ونهاره فى الشراب، وترك ملك صلاح الدين تتنازعه الاهواء .

وفر امراء صلاح الدين ووزراءه الى مصر حيث العزيز عثمان، وأخذوا فى استعداء الملك العزيز عثمان على أخيه الأفضل، وبالفعل خرج العزيز عثمان

بجيوشه قاصدا الشام، وشرع فى حصار اخيه الافضل فى دمشق، ولم تكن لدى الافضل القوة التى تمكنه من الصمود فى وجه أخيه العزيز، فاستنجد الأفضل بعمه العادل، وعندئذ جاءت الفرصة للعادل لتحقيق أطماعه الخاصة، وليقفز على أكتاف أبناء أخيه المتنازعين، لذلك استجاب العادل لنداء الأفضل. ورأى العادل أن يثير عاصفة أمام العزيز عثمان، فأتفق مع جميع أبناء صلاح الدين وأبناء عمومته الذين كانوا يحكمون بالشام على الوقوف فى وجه العزيز عثمان، ومنعه من الاستيلاء على دمشق، خاصة وأن العزيز إن ملك دمشق أخذ بلادهم بسهولة. وأدرك العزيز أنه لن يستطيع مقاومة اولئك الامراء جميعا، لذلك عاد الى مصر، واجتمع به العادل فى طريق عودته اليها، وطيب خاطره، واعطاه أحدى بناته ليتزوجها، واتفق معه ومع الأفضل على التسوية الآتية :-

١) أن يحتفظ الافضل بدمشق وطبرية وأعمال الغور.

٢) ان يأخذ العزيز بيت المقدس وما جاوره من اعمال فلسطين.

٣) أن يأخذ الظاهر جبلة واللاذقية. وذلك علاوة على ما بايديهم.

وهكذا ظهر العادل بمظهر الحريص على وحدة البيت الايوبى، والمحافظ على كيان المسلمين أمام الاخطار الخارجية .

على أن الأمور لم تستقر عند هذا الحد بين اولاد صلاح الدين، فقد تمادى الافضل فى لذاته ولهوه، وتشاغل عن أمور الناس بادمان الخمر والشراب، وفى نفس الوقت عاد العزيز عثمان الى أطماعه، فخرج من مصر قاصدا دمشق، فطلب الافضل النجدة من عمه العادل، وهذه المرة قام العادل بتحريض أمراء العزيز على تركه. ولذلك اضطر العزيز للعودة إلى مصر بعد ان وجد نفسه وحيدا .

وسرعان ما تم الاتفاق بين الامراء أى بين العادل والافضل على أن يأخذ الافضل مصر، والعادل دمشق، ولتنفيذ ذلك الاتفاق، جمع الافضل والعادل جيوشهما، واستوليا على بيت المقدس، ثم زحفا على مصر حيث العزيز عثمان، ووصلا الى بلبيس وضربا عليها الحصار .وعندئذ أرسل العادل الى العزيز يطلب

منه الثبات، وتعهد له بالانسحاب من بلبيس، وذلك لخوفه من ان يأخذ الافضل مصر ولا يعطيه دمشق .وأمام صمود العزيز، اضطر الافضل الى العودة من جديد الى دمشق .

على أن الأفضل ما لبث أن عاد الى ترك أمور الناس وشئون الحكم فى يد وزيره ضياء الدين بن الاثير، فاختلت الأمور وضج الناس من سوء الحكم، وأعلنوا سخطهم على كل من الأفضل وابن الأثير. وعندئذ أحس العادل ان الظروف أصبحت مهيئة لعزل الأفضل، فاتجه العادل الى مصر حيث العزيز، وعقد معه اتفاقية لتحقيق ذلك الهدف. وخرج العادل والعزيز معا من مصر فى عام ٥٩٢هـ/١١٩٥م قاصدين دمشق فما صدهم عن البلد صاد ولا ردهم راد "على حد تعبير ابن واصل. ولم تلبث دمشق أن سقطت فى أيدى العادل والعزيز، وعندئذ حل العادل محل الافضل فى حكم دمشق واواسط الشام، فى حين أخذ العزيز لقب السلطنة، وظلت له مصر وبيت المقدس . أما الافضل فلم يبق له سوى "صرخد" فى اقليم حوران شرقى بصرى، فى حين ظل الابن الثالث لصلاح الدين وهو الظاهر غازى فى حلب .

مصر فى عهد العزيز عثمان (٥٩٠-٥٩٥هـ/١١٩٣-١١٩٨م) :-

حكم العزيز عثمان مصر قرابة خمس سنوات، ويلاحظ أنه ولد فى القاهرة، وهو بذلك يعد أول حاكم من بنى أيوب يولد فى مصر ويتولى حكمها. وقد اشادت المصادر بأستقامته واستقامة حكمه، وعدله فى الرعية، اذ حاول أن يسير على نفس السياسة التى وضعها أبوه صلاح الدين التى تهتم بتنظيم شئون الدولة الادارية والمالية والعسكرية .

وعلى الرغم من أن مصر ظلت فى عهده كما كانت فى عهد أبيه قلب الدولة الايوبية، الا أنها تعرضت فى عهده لازمة اقتصادية بسبب انخفاض فيضان النيل فى العام الثانى من حكمه ١١٩٤م، وترتب على ذلك غلاء فى الاسعار، واختفاء السلع من الاسواق، ثم المجاعة. ويعد التقرير الذى كتبه عبد اللطيف البغدادى-

الذى كان طبيبا وعالما ورحالة وزار مصر فى أواخر أيام صلاح الدين، وعاصر هذه المجاعة _ من أفضل ما كتب عنها .اذ كان شاهد عيان لها، وسجل حوادثها فى كتابه "الأفادة والأعتبار " وهو يتحدث فى هذا الكتاب عن غلاء الأسعار، وندرة المحاصيل لدرجة أن الناس كانوا يذهبون الى الحقول، ويأكلون الفول وهو أخضر. وترتب على هذه المجاعة الوباء وكثرة عدد الموتى فى الطرقات، الذين لم يجدوا من يوارهم التراب، وخرج الناس الى المدن على أمل أن يجدوا مأوى، فمنهم من خرج الى الشام ومنهم من خرج الى الحجاز وشمال افريقية .

وكانت هذه المجاعة ضربة عنيفة حلت باقتصاد مصر فى عهد العزيز عثمان. ويبدو ان انشغال العزيز عثمان بنزاعه مع أخيه الافضل لم يساعده على سرعة وضع حد لتلك الازمة، التى أثرت على أحوال مصر تأثيرا خطيرا .

على أن العزيز ما لبث أن توفى فى عام ٥٩٥ هـ/١١٩٨م اذ سقط من فوق جواده قرب الأهرام، وأصيب بجرح ومات تاركا طفلا صغيرا هو الملك المنصور "ناصر الدين محمد "وكان فى العاشرة من عمره، لذلك رأى سائر الامراء فى مصر استدعاء العادل لحكم البلاد، ولكن هناك فريق آخر من الامراء وعلى رأسهم المماليك الاسدية والصلاحية، كانوا يخشون من بأس العادل، ورأوا من الافضل استدعاء الافضل نور الدين على من صرخد، وحدث ذلك بالفعل حيث سلموه مقاليد الامور فى مصر فى يناير ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م.

وما لبث الافضل أن اتصل بأخيه الملك الظاهر صاحب حلب، واتفق معا على الاستيلاء على دمشق من يد عمهما العادل، والقضاء على سيادته هناك. وعندما علم العادل بمؤامرة أبناء أخيه، أخذ يعد المدينة للدفاع، ووصل الافضل على رأس العسكر المصرى والظاهر على رأس العسكر الحلبى الى مدينة دمشق، وضربا عليها الحصار . واستمر الحصار لمدة ستة اشهر دون محاولة القيام بهجوم جاد وشامل، ونظرا لذلك فقد ترك كثير من أمراء الافضل والظاهر جانبهما، وانضموا الى العادل، كما أن العادل أخذ يبذر بذور الشقاق والخلاف والفرقة بين الاخوين، مما اضطر كلا منهما الى العودة، فعاد الافضل الى مصر وعاد الظاهر

الى حلب. غير أن العادل لم يدع الافضل يعود الى مصر بسلام اذ تعقبه، واعترض طريقه، وهزمه عند بلبيس، لذلك استسلم الافضل، وأقر بأن تكون مصر للعادل، وقنع باقطاعه فى حوران "صرخد ".

وهكذا صار العادل سلطان البلاد جميعها، وأصبحت مصر ودمشق وبيت المقدس بالاضافة إلى ديار بكر والجزيرة والاردن فى أيدى العادل أخو صلاح الدين. ونجح العادل بذلك فى أن يوحد الدولة الايوبية من جديد تحت رايته، وراح يستعد للوقوف فى وجه الصليبيين .

وقد اتبع العادل نفس سياسة صلاح الدين، فقام بتقسيم الدولة الايوبية بين أبنائه على النحو التالى :-أناب الكامل محمد فى حكم مصر، والمعظم عيسى فى دمشق، والاشرف موسى فى حران، واحتفظ لنفسه بالاشراف العام على جميع أنحاء الدولة .

العادل واتجاه الحملات الصليبية نحو مصر :-

بدأ الغرب الاوربى ينظر إلى توحيد الجبهة الإسلامية من جديد على يد العادل بعين القلق،كما بدأ أيضا ينظر الى مصر، ويدرك أهميتها فهى القاعدة التى انطلق منها الأيوبيون فى نشاطهم الداخلى والخارجى، كما أنها معقل الإسلام وحصنه المنيع، ومصدر المدد الوفير من الرجال والأموال والميرة والسلاح .لذلك بدأ الغرب الاوربى منذ أوائل القرن الثالث عشر يؤمن أيمانا عميقا بأن مفاتيح بيت المقدس موجودة فى القاهرة، وأن مصر هى الطريق الوحيد للوصول إلى بيت المقدس، والعيش فى بلاد الشام فى أمن وأمان .

ومن هنا بدأت تظهر فى الغرب الاوروبى فكرة الدعوة لحملة صليبية تكون وجهتها مصر، وراح الدعاة يشبهون مصر فى كتاباتهم برأس الأفعى، وأنه إذا قطعت الرأس بطل أمر الجسد .وبدأ الغرب الأوروبي يتخذ خطوات عملية للسيطرة على مصر، بأن قام البابا "انوسنت الثالث "(١١٩٨- ١٢١٦م) يدعو للحملة الصليبية الرابعة، وتقرر أن تكون وجهتها مصر .

أما عن الصليبيين فى الشام فقد حرصوا على عدم استفزاز العادل حتى تصل الحملة الصليبية الرابعة إلى الشرق، وليس أدل على ذلك من أنه عندما وصلت فرقة من الفرسان الفلمنكيين، تقدر بثلاثمائة فارس إلى عكا عام ١٢٠٢م، وحاولت مهاجمة المسلمين، نصحهم عمورى الثانى لوز جنان، ملك بيت المقدس، بعدم الهجوم لأن الحماسة وحدها لا تكفى لصد هجمات المسلمين، ومن الأفضل التريث والانتظار حتى تصل الحملة الصليبية الرابعة .

ومن ثم فأن سياسة عمورى الثانى كانت تتلخص فى عدم المبادرة بالعدوان مع التأهب والاستعداد للدفاع عن كيان الصليبيين ومصالحهم، وعدم الوقوف مكتوفى الأيدي أمام هجمات المسلمين . فعندما قام أحد الأمراء المسلمين وهو أمير أحد القلاع فى اقليم صيدا، بأغارات بحرية عدوانية على ممتلكات الصليبيين وسفنهم، ارسل عمورى شكاوى الى العادل لوقف نشاط هذا الأمير، ولكن بلا

جدوى، عندئذ عزم عمورى على رد العدوان بالمثل، فتربص أسطوله اولا لقافلة من السفن الإسلامية، بلغ عدد سفنها عشرين سفينة، كانت قادمة من مصر وفى طريقها إلى موانىء الشام، واستولى اسطول عمورى على ما تحمله القافلة من بضائع، قدرت بنحو ستين ألف دينار، واسر رجالها، وعددهم نحو مائتى رجل .ثم شرع عمورى بعد ذلك فى الاغارة على اقليم الجليل، واعتدى على المسلمين فيه، وسلب أموالهم واملاكهم .

وخرج العادل للقاء الصليبيين ولايقاف زحفهم، فأختار الصليبيون أن يتريثوا وينتظروا بعض الوقت حتى تصل الحملة الصليبية الرابعة .ولكن ما لبثت الأخبار أن وصلت بأن الحملة الرابعة لن تصل الى مصر وانها انحرفت نحو القسطنطينية، عاصمة الدولة البيزنطية، لذلك تم عقد صلح بين المسلمين والصليبيين فى عام ١٢٠٤م . ويرى البعض أن سياسة الملك العادل كان لها شأن فى تحويل هذه الحملة الرابعة عن مصر والشام إلى القسطنطينية، وأنه أرسل إلى البندقية فى ذلك الحين سفارة تحمل إليها بعض الهدايا ووعود بأن تمنح تجارة البندقية مزايا استثنائية مقابل أن يبذل دوج البندقية داندولو نفوذه لإبعاد الحملة عن مصر فى حين يشك البعض الأخر فى صحة هذه الرواية على أن هناك ما يقويها ويدعو إلى تصديقها، وذلك أن العادل كان رجلاً سياسياً، يؤثر دائما استعمال الوسائل الدبلوماسية دون الحرب لحل مشكلاته المختلفة؛ كذلك ارتبط مع البندقية بمعاهدات تجارية بعد ذلك.

ومن الجدير بالذكر أن العادل اتبع سياسة تتسم بالتسامح تجاه الصليبيين، غير أن هذه السياسة لم تكن تتفق مع روح العصر، لذلك عقد المسلمون عدة اجتماعات فى جامع دمشق لحث العادل على اتباع سياسة الشدة إزاء الصليبيين ومهاجمتهم، فقد ذكر أبو شامة أن أمرأة قطعت شعرها، وبعثت به الى العادل وقالت له : "اجعله قيدا لفرسك فى سبيل الله" أى أنها تحثه بذلك على ضرورة الخروج لقتال الصليبيين، ودفع ذلك العادل للخروج بالفعل لقتال الصليبيين، وقام ببعض العمليات الحربية ضدهم فى طرابلس، الا أنه ما لبث ان تصالح معهم بعد قليل .

السلطان الكامل والحملة الصليبية الخامسة (١٢١٨-١٢٢١م)

قامت البابوية بالدعوة لحملة صليبية جديدة بعد أن شعرت بخيبة أمل كبيرة نتيجة لفشل الحملة الصليبية الرابعة وانحرافها عن مصر إلى القسطنطينية .وكان على رأس البابوية فى ذلك الحين نفس البابا الذى دعا للحملة الرابعة، وهو البابا انوسنت الثالث، الذى وضع نصب عينيه محو آثار الانتصارات التى حققها صلاح الدين على الصليبيين فى الشام، والتى توجها باسترجاع مدينة بيت المقدس. وعقد هذا البابا مؤتمرا دينيا فى كنيسة اللاتيران بروما فى نوفمبر من عام ١٢١٥م، وقام البابا بإلقاء خطبة فى هذا المؤتمر، عبر فيها عما تقاسيه مدينة بيت المقدس من انتهاكات للاماكن المقدسة من جانب المسلمين .

وفى هذا المؤتمر أخذ مندوب مملكة بيت المقدس، يفيض فى وصف الحالة السيئة التى وصل اليها الصليبيون فى الشرق. ونوقشت فى هذا المؤتمر عدة مشروعات، وعرضت عدة أفكار لاسترداد مدينة بيت المقدس، وانتهى الأمر بالاتفاق على أن تكون مصر هى وجهة الحملة الصليبية الجديدة، وتحدد شهر يونيو عام ١٢١٧م موعدا للإبحار إلى الشرق وبالتحديد الى مصر. ومنح البابا انوسنت الثالث للمشتركين فى هذه الحملة امتيازات من بينها:

- الغفران التام من الخطايا والذنوب لكل من يقدمون سفنهم لنقل الصليبيين الى الشرق، ولكل من يعملون فى بناء هذه السفن او يساهمون فى نفقات الحملة .
- إعفاء من سيشتركون فى الحملة من دفع الضرائب المقررة عليهم، وضع أملاكهم تحت حماية الكنيسة لحين عودتهم، وتأجيل دفع ما عليهم من ديون .

وانتشر الدعاة فى الغرب للدعوة لهذه الحملة من اجل حشد اكبر عدد من النبلاء والفرسان والعامة للاشتراك فى هذه الحملة . ولكن الموت لم يمهل انوسنت الثالث حتى يرى نتيجة جهوده فى الدعوة لهذه الحملة، فقد توفى فى علم ١٢١٦م، وخلفه هونريوس الثالث، فاكمل عمل انوسنت الثالث .

وسرعان ما خرجت الحملة من الغرب، واتجهت الى بلاد الشام بعضها عن

طريق البحر بمساعدة سفن البندقية، والبعض الاخر عن طريق البر، واجتمع الجميع فى عكا . وهناك آمن "حنا دى بريين "ملك بيت المقدس فى عكا (١٢١٠-١٢٢٥م) بفكرة مهاجمة مصر، خاصة انه قد أحس بحرج موقف الصليبيين فى الشام. وعقد حنا دى بريين مجلسا لبحث الأمور الخاصة بالهجوم على مصر، وتقرر أن تكون مدينة دمياط أو الإسكندرية هى المكان الذى تبدأ الحملة بغزوه والاستيلاء عليه، وأيد هذه الفكرة جمهرة من الصليبيين المجتمعين ببلاد الشام، وعلى رأسهم الداوية والاسبتارية فضلا عن الصليبيين فى قبرس .

وعندما اكتملت استعدادات الصليبيين فى الشام، ترك حنا دى بريين حامية قوية فى عكا للدفاع عنها ضد أى هجوم من قبل المسلمين، واتصل الصليبيون بنجاشى الحبشة المسيحى ليتعاون معهم فى طعن الدولة الإسلامية من الجنوب عن طريق غزو بلاد الحجاز وهدم الكعبة. وخرج الأسطول الصليبي قاصدا دمياط فى مايو من عام ١٢١٨م. وقد اختار الصليبيون دمياط بالذات لأسباب منها :-

١) انها أقرب الموانىء المصرية للصليبيين فى الشام ولمراكزهم بها وخاصة عكا.

٢) كان ميناء دمياط وسلسلته الضخمة على حد تعبير الصليبيين أنفسهم، " قفل الديار المصرية " فضلا عن انه يمكن عن طريقه الوصول إلى القاهرة بسهولة .

٣) أن مدينة دمياط كانت إحدى ثلاث مدن مصرية هامة وهى دمياط ثم الإسكندرية والقاهرة. وسقوط أى من هذه المدن الثلاث كان يعنى سقوط مصر كلها .

٤) أن فرع دمياط كان يمثل طريقا طيبا ووسيلة سهلة للمواصلات، التى تربط الصليبيين بقواعدهم فى الشام .

٥) كان لموقع دمياط كشبه جزيرة، يحيط بها الماء من ثلاث جهات هى من الشمال البحر المتوسط، ومن الغرب النيل، ومن الشرق بحيرة تنيس، كل ذلك كان يخدم جند الحملة عن طريق انتفاعهم بالأسماك، التى يمكن اصطيادها من مياه النيل وبحيرة تنيس والبحر المتوسط فى إمداد الحملة بالغذاء اللازم لها. كما أن الاراضى الزراعية القريبة من دمياط كان يمكن عن طريقها توفير الخضر والفاكهة اللازمة لجند الحملة كذلك .

وعندما وصلت السفن الصليبية إلى مصب فرع دمياط فى ربيع الأول من

عام ٦١٥هـ /يونيو ١٢١٨م، أقام الصليبيون معسكرهم على الضفة الغربية للنيل فى مواجهة دمياط، ووجد الصليبيون المدينة محصنة تحصينا قويا ومن مظاهر هذا التحصين ما يلى :-

- السلاسل الضخمة أو المآصر التى كانت تمتد بعرض الميناء، وتحول دون دخول المراكب المعادية من البحر الى النيل، وتكون كذلك اداة لحجز السفن حتى تجبى منها الضرائب .
- برج السلسلة وهو بمثابة حصن بناه المسلمون وسط مجرى النهر لحماية دمياط ودفع أى عدوان يقع عليها، وكان يحرس هذا البرج رجال أشداء مزودون بالسلاح، وكان البرج يتكون من عدة طوابق ويعتبر الطابق الأوسط الطابق الرئيسى لهذا البرج، ويعلو البرج قبة ذات ثلاثة أقواس صغيرة .
- كما كانت المدينة محصنة بسور وخندق يحيط بها، فضلاً عن القلاع والأبراج القوية الضخمة.

وسارت السفن الصليبية فى النيل، وسار فرسان الصليبيين على الشاطىء، حتى وصلوا الى السلسلة، التى وقفت حائلا أمام تقدم سفنهم، وبالتالى الوصول إلى دمياط، سواء من ناحية النيل أم من ناحية البر، لذلك كان على الصليبيين أولا أن يحطموا السلسلة ويستولوا على برجها .

أما عن أهل دمياط، فقد أخذوا يعدون أنفسهم لحصار طويل الأمد، فقاموا بتخزين المؤن اللازمة، واستعدوا للدفاع عن مدينتهم، وأرسلوا فى نفس الوقت إلى الملك الكامل - الذى كان ينوب عن أبيه العادل فى القاهرة، فقد تركه العادل فى مصر، واتجه هو نحو الشام بعد أن علم بنزول الصليبيين فى عكا- يخبرونه بنزول الصليبيين على الضفة الغربية المواجهة لدمياط .

وعندما علم الملك الكامل بوصول الصليبيين الى دمياط أسرع على رأس جنده، وأقام معسكره بمنزلة العادلية جنوب دمياط، ليكون على اتصال بالمدينة من ناحية، وليمنع الصليبيين من العبور إليها من ناحية أخرى، وأرسل الكامل الأسطول فى ذات الوقت ليأخذ طريقه فى النيل إلى دمياط، وذلك حتى لا يمكن الصليبيين من الاستيلاء على برج السلسلة، وقطع تلك السلسلة التى تمتد بعرض

النيل .

اما عن العادل الذى كان فى ذلك الحين فى بلاد الشام فبدأ يستعين بأبنائه المعظم عيسى والأشرف موسى فى الاغارة على أملاك الصليبيين فى الشام لعله يشغلهم بذلك عن محاصرة دمياط .

وقضى الصليبيون ثلاثة أشهر كاملة يهاجمون برج السلسلة حتى تمكنوا من الاستيلاء عليه أخيرا فى أغسطس من عام ١٢١٨م، وقتلوا من فيه .وباستيلاء الصليبيين على البرج، أصبح من السهل عليهم تحطيم السلسلة، وقطع المآصر والسلاسل التى تعترض مدخل النهر. وكان ذلك خسارة كبيرة، أصيب على أثرها اهالى دمياط والايوبيون بصدمة عنيفة، ويقال أن العادل عندما علم بذلك "دق بيده على صدره فى حسرة والم ومرض من ساعته، ولم يلبث أن توفى " ودفن فى دمشق .

وبعد وفاة العادل، استقر كل واحد من أبنائه فى المملكة التى منحه أبوه اياها قبل وفاته، فأخذ الكامل مصر، وأخذ المعظم دمشق، وأخذ الإشراف حران .وقد ساعد ذلك على صمودهم فى وجه الصليبيين، اذ لم تحدث أى خلافات بينهم على الميراث، واتحدوا جميعا لمواجهة العدو ممثلا فى الصليبيين .فقام كل من المعظم والأشرف بحراسة جبهة الشام، والضغط على الصليبيين حتى يغادروا مصر. ونظرا لان مصر كانت من نصيب الكامل، فقد القى على عاتقه العبء الأكبر فى مواجهة الصليبيين وأبعادهم عن بلاده . وقد بذل الكامل كل جهده فى محاولة عرقلة الصليبيين ومنعهم من الوصول إلى القاهرة عن طريق النيل، ومن أجل ذلك أتخذ الخطوات التالية :-

أولا :- أقام الكامل جسرا عظيما بعرض مجرى النيل عوضا عن السلسلة التى حطمها الصليبيون، ولكنهم نجحوا أيضا فى تحطيم الجسر .

ثانيا :- احضر الكامل عدة مراكب كبيرة، واغرقها فى النيل عمدا ليعوق تقدم السفن الصليبية فى النهر، ونجحت حيلته هذه بعض الشىء فى إعاقة سفن الصليبيين عن مواصلة السير فى النيل فى اتجاه القاهرة .غير أن الصليبيين ما لبثوا أن تحايلوا لتفادى تلك العقبة، فحفروا خليجا هناك كان يجرى فيه

النيل قديما، فيصب فى البحر ويعرف بالخليج الأزرق وأجروا فيه الماء إلى البحر، وبذلك استطاعت السفن الصليبية ان تدخل فى النهر، وتصل إلى الموضع الذى أقام فيه الكامل معسكره .

ورغم نجاح الصليبيين إلا أنهم بدأوا يواجهون عدة مشاكل فى مصر عقب استيلائهم على برج السلسلة من بينها :-

- أن كثير من الصليبيين ظنوا أن مهمتهم قد انتهت بسقوط البرج وتحطيم السلسلة، فانسحبوا عائدين إلى بلادهم فى غرب أوروبا تاركين إخوانهم أمام دمياط، اعتقادا منهم أن مصر ستسقط بأسرها فى أيدي أخوانهم، ولهذا لا ضرورة لتواجدهم .
- ظلت قوات الحملة الصليبية فى ركود وجمود فى انتظار وصول امدادات جديدة من الغرب الاوروبى، مما منح الايوبيين الفرصة لتنظيم صفوفهم، والتقاط أنفاسهم بعد كارثة سقوط البرج والسلسلة . على أن الامدادات الجديدة ما لبثت ان وصلت إلى جيزة دمياط، وكان على رأسها الكردينال "بلاجيوس "مندوبا عن البابا .على أنه بوصول مندوب البابا ما لبث أن دار صراع بينه وبين حنا دى بريين حول قيادة الصليبيين، مما أنزل أبلغ الضرر بالحملة الصليبية الخامسة.

وما لبث الكامل بدوره ان واجه عدة مشاكل من بينها :-

اولا :-استغل البدو، ونقصد هنا بدو سيناء والشرقية حالة الفوضى التى أمست فيها البلاد نتيجة لهجوم الصليبيين، وأغاروا على القرى ونهبوها، وكانوا بذلك "أشد على المسلمين من الفرنج " على حد تعبير ابن الاثير .

ثانيا :- دبر أحد قواد الكامل، ويدعى عماد الدين بن المشطوب الهكارى مؤامرة كبرى لعزل الكامل، واستبداله بأخيه الأصغر "الفائز"، لصغر سن الأخير مما يتيح الفرصة لابن المشطوب فى السيطرة على الحكم . وكان ابن المشطوب من الأكراد، كما كان قائدا لفرقة منهم، وانتهز فرصة مجىء الحملة الخامسة ليقوم بثورته .

وخشى الكامل على نفسه من المتآمرين، فهرب من معسكره ليلا، وتبعه جنوده، وفى الصباح وجد الصليبيون المعسكر الاسلامى خاويا، فعبروا الضفة الشرقية للنهر بسهولة، واستولوا على كل ما فى المعسكر الاسلامى من عتاد وسلاح ومؤن، وقد عبرت المصادر عن ذلك بقولها :"فعبروا من غير صعوبة إلى الضفة الشرقية للنهر آمنين بغير منازع ولا ممانع". وهكذا ساء الموقف فى مصر.

ولكن سرعان ما وصل المعظم عيسى، شقيق الكامل، من دمشق فى الوقت المناسب، ونجح فى إعادة الثقة الى أخيه الكامل، وخلصه من ابن المشطوب، وأعاد معه تنظيم الجيش الاسلامى من جديد، عند فارسكور -جنوب العادلية - وبفضل ذلك تمكنت دمياط من الصمود تسعة أشهر أخرى، قاومت خلالها جميع الجهود التى بذلها الصليبيون للاستيلاء عليها، كما أرسل الكامل والمعظم إلى العالم الاسلامى، لطلب المعونة، وأوضحا للمسلمين ما يترتب على سقوط مصر فى أيدي الصليبيين من مخاطر، وأنه ان سقطت مصر فى أيديهم فلن يمتنع عليهم شىء من الممالك الإسلامية.

وسرعان ما وصلت الصليبيين إمدادات من قبرص ومن غرب أوروبا. وعندما علم الكامل بذلك بدأ يفتح باب المفاوضات مع الصليبيين، وعرض عليهم عرضا سخيا، يتضمن التنازل لهم عن بيت المقدس وجميع الأراضي التى كانت تابعة لهم قبل معركة حطين، وما تلاها من فتوحات قام بها صلاح الدين فيما عدا قلعتى الكرك والشوبك ووادى عربة(*) فى مقابل جلائهم عن دمياط ومصر، هذا إلى جانب عقد هدنة بين الصليبيين والمسلمين لمدة ثلاثين سنة .

وانقسم الصليبيون إزاء هذا العرض إلى فريقين، فريق على رأسه حنا دى بريين وأمراء مملكته من الفرنسيين، وقد قبلوا العرض، وفريق آخر على رأسه المندوب البابوى بلاجيوس وفرق الفرسان الرهبان من الداوية والاسبتارية، وقد

(*) سهل يصل عرضه إلى حوالى ثلاثين كيلو متر، وطوله يقرب من تسعين كيلو متر، وينتهى إلى ساحل البحر الأحمر، ويبعد عن النيل حوالى مائة كيلو متر.

رفضوا العرض، وأصروا على مهاجمة معسكر الكامل والمعظم عند فارسكور، بدلا من الاكتفاء بحصار دمياط .

وشدد الصليبيون الحصار على مدينة دمياط، ونتيجة لذلك وقعت المجاعة داخل البلد، بعد أن تعسر وصول الإمدادات إليها، رغم محاولات الكامل تهريب المؤن إليها، وانتشر وباء الطاعون بين أهل المدينة، وانهكتهم الأمراض، وغلت الأسعار ففنى كثير منهم، وأمام ذلك اضطرت المدينة للتسليم فى شعبان ٦١٦هـ/ نوفمبر من عام ١٢١٩م .ودخل الصليبيون المدينة، واعملوا فيها السلب والنهب، وسفك الدماء والأسر لكل من صادفوه ممن بقى من أهالى هذه المدينة، وأحالوا مسجدها الى كنيسة، غير أنهم خططوا بعد ذلك لاتخاذها مركزا منيعا لهم، فبالغوا فى عمارتها وتحصينها .

وكانت الظروف كلها فى صالح الصليبيين بعد سقوط دمياط فى أيديهم إلا أنه ما لبث ان اشتد النزاع بينهم مما الحق بهم الكثير من الأضرار . وقد دار النزاع بين الصليبيين حول ملكية دمياط، فكان حنا دى بريين، ملك بيت المقدس، يرى أن دمياط أصبحت جزء من مملكة بيت المقدس الصليبية، فى حين كان المندوب البابوى بلاجيوس، يرى أن دمياط يجب ان تخضع لسلطته وللكنيسة الغربية. ودار الصراع كذلك بين الصليبيين حول تقسيم الغنائم، اذ لم يقنع الإيطاليون من جند الحملة بما حصلوا عليه من غنائم، وطالبوا بالمزيد، وشهروا سيوفهم فى وجه باقى جند الحملة وخاصة الفرنسيين . وحدث كذلك خلاف بين الصليبيين بشأن تقدمهم نحو القاهرة، فقد صمم بلاجيوس على ضرورة الزحف نحو القاهرة مباشرة وقتال الايوبيين، فى حين رأى حنا دى بريين انه من الواجب زيادة تحصين دمياط، وإعطاء الجند الصليبيين قسطا من الراحة بعد ما عانوه فى الشهور التى سبقت سقوط دمياط .

ونتيجة لهذا الخلاف، انسحب حنا دى بريين عائدا إلى عكا فى أواخر مارس من عام ١٢٢٠م، وقرر بلاجيوس الزحف نحو القاهرة منتهزا فرصة وصول بعض القوات الصليبية من الغرب، وأرسل فى نفس الوقت إلى حنا دى بريين، يطلب منه

الحضور للمشاركة فى هذا العمل العسكرى، ورفض حنا فى بداية الأمر العودة إلى دمياط، ولكنه خشى بعد ذلك من تعرضه لغضب البابا والصليبيين، لذلك عاد من جديد إلى دمياط فى الوقت الذى استعد فيه الصليبيون للزحف نحو القاهرة.

أما عن الملك الكامل فقد نقل معسكره من فارسكور الى المنطقة المقابلة لطلخا، وأقام معسكره هناك حيث شيد مدينة المنصورة، وجاءت إليه الإمدادات من كل مكان، كما وصل إليه أخويه المعظم والأشرف. واجتمع الاخوة الثلاثة، وبدأوا يضعون خطة لمواجهة الصليبيين، والاستعداد لقتالهم .ومن الجدير بالذكر أن الملك الكامل قد كرر عرضه السابق على الصليبيين فى ذلك الوقت، ولكنهم رفضوا العرض ثانية، واستشاطوا فى مطالبهم إذ طلبوا من الكامل مبلغ ثلاثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب سور مدينة بيت المقدس، كما طالبوا بتسليم الكرك والشوبك .

وواصل الصليبيون زحفهم على الشاطىء الشرقى للنيل خلال شهر أغسطس من عام ١٢٢١م، وفى هذا الوقت كان فيضان النيل فى أعلى مستوى له، مما يدل على جهل الصليبيين بطبيعية أرض مصر ونيلها .وكان الكامل قد أرسل بعض السفن إلى فرع دمياط عن طريق فرع رشيد، وأصبحت بذلك خلف سفن الصليبيين. كما انزل الكامل عند شرمساح شمال شربين، الفى فارس مع آلاف من العربان، ليحولوا بين الصليبيين وبين الاتصال بدمياط عن طريق البر، وأخيرا أمر الكامل بقطع السدود، وفتح الترع على الصليبيين من جميع الجهات .

وعندما وصل الصليبيون إلى المنطقة المعروفة ب "رأس الجزيرة "وكانت المياه تحيط بها من ثلاث جهات، لم يدر الصليبيون إلا والمياه قد أحاطت بهم من كل جانب، وقد غرقوا فى الطين حتى بلغ ركبهم وسيقان خيولهم . وعندما حاولوا العودة الى دمياط بحرا، اصطدموا بسفن الكامل، وعندما حاولوا العودة برا، اصطدموا بالفرسان والأعراب. وهكذا أصبح الصليبيون فى موقف عسير لا يحسدون عليه، وأدركوا أنهم هالكون لا محالة، لذلك أرسلوا الى الكامل يعرضون عليه الصلح، ويعربون عن رغبتهم فى الجلاء عن دمياط وتسليمها له، والخروج

نهائيا من مصر، وذلك لقاء إنقاذهم من هذا الموقف الذى أصبحوا فيه. وعارض المعظم والأشرف أخوة الكامل فى إجابة طلب الصليبيين، ولكن الكامل قبل العرض، واشترط على الصليبيين أن يرسلوا إليه رهائن من كبرائهم .

والحقيقة أنه كانت هناك دوافع قوية دفعت الكامل الى قبول عرض الصليبيين ومنها :-أن الكامل كان يخشى من وصول نجدات ومساعدات للصليبيين من الغرب الاوربى، خاصة من جانب فردريك إمبراطور ألمانيا، الذى طلب منه البابا هونريوس إرسال حملة صليبية من صقلية فى صيف عام ١٢١٧م إلى مصر لمعاونة حملة حنا دى بريين، كذلك إحساسه بتعب جنده وعدم قدرتهم على مواصلة القتال، وأخيرا كان يخشى من أن يظل الصليبيون فى دمياط ويرفضون تسليمها، وفى هذه الحالة لابد من منازلتها وقتال الصليبيين، وكانت المدينة ذات أسوار منيعة. لهذه الأسباب جميعا رحب الكامل بعقد الصلح مع الصليبيين .

وتم توقيع الصلح بين الكامل والصليبيين فى التاسع عشر من رجب عام ٦١٨هـ الموافق السابع من سبتمبر عام ١٢٢١م، بعد أن أرسل إليه الصليبيون رهائنهم وعلى رأسهم كل من حنا دى بريين ملك بيت المقدس، والمندوب البابوى بلاجيوس. ونص اتفاق الصلح على عقد هدنة بين الطرفين مدتها ثمانى سنوات، وإطلاق سراح الأسرى من الجانبين .

وبعد توقيع اتفاقية الصلح أبحر الصليبيون عائدين الى أوروبا، أما حنا دى بريين فقد عاد هو ورجاله إلى بلاد الشام، يجرون اذيال الخيبة والعار، كالنعامة التى خرجت تبغى قرنين فعادت بلا اذنين. ودخل الكامل محمد دمياط وفى ركابه أخوته وقواده وعساكره، وكان يوم دخوله إليها من الأيام المذكورة، وتبارى شعراء العصر فى تمجيد هذا الانتصار والإشادة به. وهكذا فشلت الحملة الصليبية الخامسة، ويرجع ذلك الى :-

- الخلافات بين الصليبيين أنفسهم وخاصة بين المندوب البابوى بلاجيوس وبين حنا

دى بريين ملك بيت المقدس .

- جهل الصليبيين بجغرافية مصر وطبيعة البلاد المصرية وميعاد الفيضان .
- تكاتف الاخوة الثلاثة أبناء العادل وهم الكامل محمد والمعظم عيسى والأشرف موسى، ووقوفهم وقفة رجل واحد فى التصدى للصليبيين، مما كان له أكبر الأثر فى التغلب عليهم .

السلطان الكامل والإمبراطور فردريك الثانى

الحملة الصليبية السادسة (٦٢٥-٦٢٦هـ/١٢٢٨-١٢٢٩م)

كان التضامن القوى والارتباط الوثيق بين أبناء العادل الثلاثة الكامل والمعظم والأشرف عقب وفاة أبيهم واحدا من الأسباب الهامة التى ساعدت على الانتصار على الصليبيين، والقضاء على الحملة الصليبية الخامسة كما سبق أن ذكرنا. على أن هذا التحالف والتضامن ما لبث ان انفصمت عراه، وذلك لأنه حدث أن استولى المعظم عيسى على خزائن أبيه العادل الموجودة فى دمشق بعد وفاة أبيه دون بقية أخوته، مما كان له أثر كبير فى نفوسهم. ويضاف الى ذلك أنه أراد أن يوسع حدود مملكته ليس على حساب الصليبيين فى بلاد الشام، وإنما على حساب أخوته وأبناء عمومته. وهاجم المعظم بالفعل حماه التابعة لابن عمه الناصر صلاح الدين قلج ارسلان، واستولى على بعض أعمالها ومنها المعرة وسلمية.

ولم يقبل الملك الكامل وأخيه الأشرف موسى تصرف أخيهما المعظم، لذلك أرسل إليه الكامل يطلب منه الرحيل عن حماة ورد ما استولى عليه من أعمالها، ونفذ المعظم رغبة أخيه، وانصرف بالفعل عن حماه وهو حانق ومتذمر وغاضب على أخويه. وكان هذا الحدث هو بداية الوحشة والخلاف والصراع بين المعظم عيسى وأخويه الكامل والأشرف، على أن خطورة هذا الصراع تكمن فى التجاء كلا الطرفين المتنازعين إلى الاستعانة بالقوى الخارجية.

سارع المعظم الى الاتفاق مع كل من "مظفر الدين كركبورى "صاحب آمد، والملك المظفر "شهاب الدين غازى "صاحب خلاط وميافارقين، وولى عهد الملك الأشرف، واتفق الثلاثة على القيام بمهاجمة أملاك الأشرف موسى. وأمام هذا الخطر أرسل الأشرف إلى أخيه الملك الكامل يخبره بذلك، ليعاونه فى صد عدوان المعظم واتباعه، فأرسل الكامل الى المعظم يهدده بأنه اذ خرج لقتال الأشرف فسوف يستولى على بلاده، قائلا له "ان تحركت من بلدك سرت إليه وأخذته" فخاف المعظم وعاد إلى دمشق، اما اتباعه ففشل مظفر الدين فى الاستيلاء

على الموصل، وفقا للاتفاق بينهم، فى حين انحاز شهاب الدين إلى الأشرف وعاد الى طاعته، فعفا عنه الأشرف.

وهكذا فشل المعظم عيسى فى الاستيلاء على أملاك أخيه الأشرف عن طريق مساعدة كل من مظفر الدين وشهاب الدين، لذلك بدأ يبحث عن حليف جديد يساعده فى تحقيق أهدافه ممثلة فى الاستيلاء على أملاك أخيه الأشرف، ومواجهة أخيه الكامل محمد. وهذه المرة لجأ الى "جلال الدين بن منكبرتى بن علاء الدين خوارزم" سلطان الدولة الخوارزمية، وكان الأخير قد نجح فى إحياء الدولة الخوارزمية من جديد، واتخذ من أصفهان عاصمة له، وراسله الملك المعظم، وأطمعه فى بلاد أخيه الأشرف، واتفق معه "معاندة لأخيه الكامل ولأخيه الأشرف" على حد تعبير المقريزى. وذلك فى عام ٦٢٣هـ/١٢٢٦م.

وشكل الخوارزمية خطرا كبيرا بالنسبة للاشرف وذلك لمجاورة بلادهم لبلاده فى الجزيرة وخلاط، واخذ جلال الدين يهاجم إقليم جورجيا القريب من أملاك الأشرف، فى أعالي الجزيرة، مما دفع الأشرف الى أن يلتمس العون العسكرى من أخيه المعظم، فانتهز المعظم هذه الفرصة لتحقيق أطماعه، وألقى القبض على أخيه الأشرف، وأرغمه على الوقوف بجانبه ضد أخيه الكامل فى مصر، ومساعدته فى الاستيلاء على حمص وحماه، ولم يطلق سراحه الا بعد ان تعهد له بذلك. على أن الأشرف موسى ما كاد يفلت من أخيه المعظم عيسى حتى رجع عن جميع ما تعهد به للمعظم، وأكد تحالفه مع أخيه الكامل، واخبره بكل ما حدث، وذلك بعد أن أطلق المعظم سراحه فى عام ٦٢٤هـ/١٢٢٧م.

وحاصر جلال الدين خلاط عاصمة الأشرف ومقر أقامته، وأرسل خلعة للمعظم، لبسها وسار بها فى شوارع دمشق، وما لبث المعظم أن قطع الخطبة لأخيه الكامل على منابر دمشق، وبدأ يخطب لجلال الدين، بل وعزم المعظم على أن يزوج إحدى بناته لجلال الدين. وعندما علم الكامل بذلك خاف أن يكون اتفاق المعظم وجلال الدين سببا فى زوال الدولة، لذلك بدأ يستعد للزحف على بلاد الشام، وبدأ أيضا يتطلع للبحث عن قوة خارجية تساعده فى مواجهة أطماع أخيه المعظم،

وحلفائه من الخوارزمية . ووجد الكامل ضالته المنشودة فى شخص الإمبراطور "فردريك الثانى" إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، فى غرب أوروبا. فأرسل الملك الكامل اليه مبعوثا من قبله وهو الأمير "فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ " يدعوه للحضور إلى بلاد الشام لمساعدته ضد أخيه المعظم عيسى، وتعهد له فى مقابل ذلك أن يعطيه بيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بساحل الشام .

وكان الكامل يهدف من وراء ذلك إلى إشغال سر أخيه المعظم ليحتاج إليه، ويعود الى طاعته، فالإمبراطور فردريك سوف يدخل بطبيعة الحال فى عداء مع المعظم باعتباره صاحب دمشق وبيت المقدس، كذلك رأى الكامل أن يسلم فردريك مدينة بيت المقدس حتى يتفادى الوقوع فى حرب صليبية جديدة، خاصة أن أحداث حملة حنا دى بريين بكل ما قاسى فيها الكامل من مشاق، كانت لا تزال ماثلة أمام عينيه، هذا فضلا عن أنه يكسب بذلك صداقة ملك من ملوك الفرنج له مكانته وخطره ووزنه .

وعندما وصل رسول الملك الكامل الى بلاط الإمبراطور فردريك فى بالرمو بصقلية، أحسن الإمبراطور استقباله، ورد سفارة الكامل بسفارة مماثلة على رأسها الأب"برنارد" أسقف بالرمو، وأرسل فردريك للكامل الهدايا الغريبة والتحف العجيبة، ومن بينها دب أبيض صغير وفراء وخيل وقماش وجوارى .واستقبل الملك الكامل رسول الإمبراطور بحفاوة بالغة على طول الطريق من الاسكندرية وحتى القاهرة، وأكرمه اكراما زائدا، وأنزله فى دار الوزير "صفى الدين بن شكر". وأعرب السفير الصقلى عن ترحيب سيده الامبراطور فردريك بما عرضه السلطان الكامل، وموافقته على طلبه. وعندما عزم السفير برنارد على الرحيل من القاهرة، جهز معه الملك الكامل هدية سنية للإمبراطور، كانت عبارة عن تحف الهند واليمن والعراق والعجم ومصر والشام كما يذكر المقريزى .

ويبدو أن الإمبراطور فردريك كان قد استعد للرحيل الى الشام فى ذلك الوقت، لذلك اراد رسوله التحقق من موقف المعظم عيسى، صاحب دمشق وبيت المقدس، فمر بدمشق فى طريق عودته الى الغرب ليطلب من المعظم عيسى ان

يسلم بيت المقدس للإمبراطور، ولكن المعظم أساء استقبال رسول الإمبراطور، واغلظ له وقال : "قل لصاحبك ما أنا مثل الغير وما له عندى سوى السيف " .ولم يكتف المعظم بذلك الموقف الصلب من الإمبراطور فردريك الثانى، بل راح يتقصى أخبار الاتفاق بين الكامل وفردريك .

والحقيقة انه كان هناك دافعا قويا غير نجدة السلطان الكامل هو الذى دفع فردريك الثانى الى الترحيب بالذهاب الى بلاد الشام وبعرض الكامل وهو ان البابوية كانت تضغط على فردريك ضغطا شديدا للقيام بحملة صليبية جديدة بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة .ولكن فردريك ظل يماطل البابوية حتى لا يترك البابا حرا طليق اليد فى العدوان على مصالح الإمبراطورية أثناء غيابه فى الشرق، خاصة وأن هذا العصر كان يعرف فى التاريخ الاوروبى "بعصر الصراع بين البابوية والإمبراطورية "، فقد شهد هذا العصر صراعا عنيفا بين السلطة الدينية ممثلة فى البابوية وبين السلطة العلمانية ممثلة فى الإمبراطورية . فضلا عن أن فردريك كان يمتعض من فكرة القيام بحرب ضد المسلمين الذين أحبهم وعشق حضارتهم، لذلك لم يلب نداء البابوية، وراح يماطلها .

ونتيجة لمماطلة فردريك فى الخروج الى الشرق، أصدر البابا "جريجورى التاسع " ضده قرار الحرمان فى شوال من عام ٦٢٤هـ/الموافق سبتمبر من عام ١٢٢٧م، وإزاء هذا القرار وهجوم البابوية العنيف ضد فردريك الثانى، قرر الأخير القيام بحملته الصليبية قاصدا بلاد الشام وهى الحملة التى عرفت فى تاريخ الحروب الصليبية باسم "الحملة الصليبية السادسة " . وتعد هذه الحملة من أغرب الحملات فى تاريخ الحروب الصليبية لأسباب من بينها :-

١) أن هذه الحملة خرجت من الغرب، وهى ملعونة من البابا، وعلى رأسها إمبراطور محروم من رحمة الكنيسة وعطفها، هذا فى حين أن الحملات السابقة قد حظيت بعطف البابوية ورعايتها وتمتعت ببركتها .

٢) إذا كانت الحملات الصليبية السابقة قد حرصت على أن تجيش الجيوش، وتجمع آلاف المقاتلين والكثير من الأسلحة لقتال المسلمين فى الشرق، فأن هذه

الحملة خرجت من الغرب وعلى رأسها فقط الإمبراطور فردريك ولم يتجاوز عدد فرسانها الخمسمائة أو الستمائة فارس من حرسه الخاص .

٣) إذا كانت الحملات الصليبية قد خرجت من الغرب الاوروبى، وهى تكن روح العداء والكراهية الشديدة للمسلمين، فإن حملة فردريك الثانى قد خرجت وعلى رأسها إمبراطور لا يحمل للمسلمين سوى كل مودة ومحبة، فهو لم يخرج كعدو للمسلمين بل كصديق وحليف للملك الكامل الذى دعاه ليسلمه بيت المقدس نظير مساعدته له ضد أخيه المعظم عيسى، ولذا فقد اتسمت حملة فردريك الثانى بمسحة من التسامح الدينى تجاه المسلمين. ويرجع ذلك فى المقام الأول الى أن فردريك ولد من أب المانى هو هنرى السادس ملك المانيا، وأم نصف إيطالية، وهى الأميرة كونستانس ابنة وليم، ونشأ فردريك وتربى وتعلم فى صقلية التى كانت مركزا لحضارة عربية إسلامية زاهرة، فنشأ محبا للجدل والرياضيات، وأجاد ست لغات من بينها العربية، ونظم الشعر وتذوقه عربيا كان أم غير عربى، وكان عالما متبحرا فى علم الهندسة والحساب. وعرف عن فردريك حبه للمسلمين الذين تربى ونشأ بينهم فى صقلية، وأعجب بحضارتهم وعلومهم وحياتهم، وقربهم إليه، واستخدمهم فى حاشيته، حتى ان المؤذنين المسلمين كانوا يؤذنون عند موعد كل فرض فى معسكره حتى وصف هذا الإمبراطور بأنه نصف شرقى Semi Oriental نظرا لأنه أحاط نفسه بمظاهر شرقية عربية إسلامية، وقد جمع حوله عدد من العلماء العرب، وشجع الجغرافيين والفلكيين والأدباء العرب والمسلمين لذلك اتهمه بعض الكتاب بمحاباته للإسلام على حساب المسيحية، وقد ذهب البعض مثل فولتير ومونتسكيو إلى القول بأن كراهية فردريك الثانى للبابوية والكنيسة الغربية هى التى دفعته إلى حب الإسلام والمسلمين .

٤) أن فردريك الثانى حينما خرج بحملته إلى الشام، خرج ليفاوض لا ليحارب لدرجة أن البعض علق على ذلك بقوله " أن فردريك الثانى عندما غادر غرب اوروبا كان ينوى القيام بنزهة جميلة، يزور فيها صديقه الملك الكامل، سلطان

مصر، فقد وعده بأن يسلمه بيت المقدس نظير مساعدته له ضد أخيه المعظم. وكان يؤثر عن فردريك أنه كان يقول "ان صديقى السلطان المسلم، أثمن لدى من أى شخص آخر ما عدا ولدى الملك كونراد ". كانت هناك صداقة حميمة قد ربطت بين الرجلين، وليس أدل ذلك من أن فردريك الثانى كان يبعث الى الملك الكامل بعدة مسائل فى الهندسة والحكمة (الفلسفة) والرياضة، وكان يعرضها الكامل على الشيخ "علم الدين قيصر الحنفى "وغيره، ثم يكتب جوابها ويرسله إليه .

كان الكامل وفردريك يسبقان العصر، الذى عاشا فيه بشخصيتهما وعقليتهما وثقافتهما، فقد كان عصر ترمت وتعصب دينى، أما هما فكان الطابع الغالب على شخصيتهما هو : أن كلاهما حاكم مثقف وإدارى محنك، اهتما بالإصلاح، ونشر العلم، وحرية الفكر، وإنشاء المدارس ودور العلم أكثر من اهتمامهما بالحرب. فكلاهما كان لا يفضل اللجوء إلى السيف إذ استطاع حل مشكلاته بالطرق السلمية الدبلوماسية وقد عبر ذلك أحد المؤرخين بقوله : (كان الملك الكامل صورة شرقية من الإمبراطور، وكان الإمبراطور صورة غربية من السلطان الكامل محمد).

على أن فردريك لم يعتمد على وعود الكامل وحده، إنما قام -قبل أن يغادر الغرب -بإجراء اتصالات واسعة مع عدد آخر من أمراء البيت الايوبى بالشام، وذلك لإعداد المناخ المناسب لرد مدينة بيت المقدس الى الصليبيين . ومن هؤلاء الأمراء الذين اتصل فردريك بهم، الملك الجواد، وهو أحد أمراء بنى ايوب بالشام، فقد تبادلا الرسائل سويا، مما يظهر فى جلاء أن مراسلة فردريك لم تكن قاصرة فقط على الملك الكامل، وإنما امتدت إلى غيره من أمراء بنى أيوب .

على أن فردريك لم يكد يصل الى عكا فى عام ٦٢٦هـ /١٢٢٨م حتى كانت الأمور قد تغيرت تماما، وتغير الموقف فى بلاد الشام على غير ما كان يتوقع وذلك لأمرين :-

الأول :-أن البابوية أرسلت سرا لأول مرة فى تاريخ الحركة الصليبية إلى ملوك المسلمين فى مصر والشام، أى إلى ملوك بنى أيوب بصفة عامة، وإلى

السلطان الكامل بصفة خاصة، تحرضه على عدم إعطاء فردريك مدينة بيت المقدس حتى لا تكون سلاحا يشهره فى وجه البابوية، ويعتمد عليه فى دعم سلطته فى الغرب الاوروبى .مما يدل دلالة قاطعة على أن الصراع بين البابوية والإمبراطورية، كان فى نظر البابا أهم من المعركة بين الصليبيين والمسلمين فى بلاد الشام .

الثانى :-أن المعظم عيسى صاحب دمشق -الذى كانت أطماعه هى السبب فى استنجاد الكامل بفردريك – كان قد توفى فى أواخر عام ٦٢٤ هـ/١٢٢٧م تاركا ابنه "الناصر داود" ليخلفه على عرش دمشق، وكان الناصر داود شابا فى العشرين من عمره، محبا للهو والترف، عديم الخبرة، وكان شاعرا للبيت الايوبى، وله ديوان شعر . لذلك كان من السهل على الكامل، أن يقتسم مع أخيه الأشرف أملاك أخيهما المعظم عيسى، بعد منح الناصر داود الكرك والشوبك وبعض الجهات الثانوية.

وهكذا استقرت الأمور بين أبناء البيت الايوبى، ولم يعد الكامل بالتالى فى حاجة إلى تلك المساعدة التى طلبها من فردريك، ولكن ماذا يفعل حيال ذلك الإمبراطور، الذى كان فى طريقه الى الشام، والذى لم يحضر اليها الا بناء على طلبه. أيحاربه وهناك اتفاق مسبق بينهما ! أم يسلمه مدينة بيت المقدس كما وعده!!. لذا أصبح الكامل فى حيرة من أمره، وقام بمراسلة الإمبراطور فردريك وملاطفته لعدة أمور:-

أحدها :- أنه أحس أنه ليس من مصلحة البيت الايوبى أن يصطدم بالصليبيين فى الشام، فى الوقت الذى تعرض فيه الشرق لتهديد الخوارزمية ومن ورائهم المغول .

أما الأمر الثانى :-فهو أن الكامل وضع فى اعتباره أن أى تساهل مع الصليبيين أو تفريط فى حقوق المسلمين، معناه إثارة الرأى العام الاسلامى ضده، وخاصة فى دمشق التى كانت أكثر تعرضا لخطر الصليبيين .

الأمر الثالث :-أن الكامل كان على علم تام بضعف جيش فردريك، وبالعداء

بين فردريك وبين البابوية، وضعف شوكته فى الغرب، وأن الصليبيين فى بلاد الشام لن يذعنوا إلى الإمبراطور فردريك، ولن يقبلوا القتال تحت قيادته وهو المحروم من رحمة الكنيسة . لذلك استمرت الرسل تتردد بين الكامل وفردريك .

وساء موقف فردريك فى الشرق، خاصة وأنه خرج من بلاده محروما من رحمة الكنيسة، ومغضوبا عليه من البابا، هذا إلى جانب أنه اعتمد على وعد الكامل بإعطائه بيت المقدس لإصلاح مركزه فى الغرب الأوروبي، يضاف إلى ذلك أنه لم يصطحب معه جيشا كبيرا، بل اصطحب معه حرسه الخاص عند خروجه إلى بلاد الشام، وبالتالى لم يستعد الاستعداد اللازم لحرب المسلمين إذ لم يضع ذلك فى حساباته .ولذلك لجأ فردريك إلى أسلوب المفاوضة، واستخدام الوسائل الدبلوماسية للوصول إلى ما يصبو إليه، والعودة إلى بلاده مرفوع الجبين. وتنفيذا لهذه السياسة أرسل فردريك سفارة من رسولين إلى السلطان الكامل، تحمل له الهدايا ومنها منسوجات حريرية، وأواني ذهبية وفضية، وتطلب منه تنفيذ وعده بتسليمه مدينة بيت المقدس . غير أن الكامل تنكر لوعوده، وأعلن فى صراحة أنه كان سيعطى الإمبراطور فردريك بيت المقدس لقاء مساعدته له ضد أخيه المعظم، أما الآن فقد توفى المعظم ولم يعد السلطان فى حاجة الى مساعدته، ولهذا فهو لن يفرط فى بيت المقدس .

وفشلت المفاوضات كما فشلت جهود فخر الدين يوسف مندوب السلطان فى الوصول إلى حل بين الطرفين .وبدأ موقف فردريك يزداد سوء فى الشرق، خاصة بعد أن علم بأن البابوية انتهزت فرصة غيابه فى الشرق، واعتدت على أملاكه فى الغرب. وعندما أحس فردريك بأنه سيعود الى الغرب دون تحقيق هدفه وهو الحصول على بيت المقدس، وما سيلحق به من مهانة من البابوية – لجأ فردريك الى أسلوب الاستعطاف من أجل الحصول على بيت المقدس، بل والتذلل للسلطان الكامل، وظهر ذلك فى رسالة بعث بها الى السلطان الكامل جاء فيها : "انا عتيقك .... وأنت كاتبتنى بالمجيء.....فأن رجعت خائبا انكسرت حرمتى، ....فأن رأيت أن تنعم على بقبضة البلد ليرتفع رأسى بين الملوك، وأنا التزم بحمل دخلها

إليك ." وتظهر هذه الرسالة مدى الموقف الصعب، الذى أمسى عليه فردريك، بل روى عنه أنه كان يبكى بكاء مرا فى مراحل المفاوضات .

وأفلح أسلوب الاستعطاف، الذى سلكه فردريك الثانى مع الكامل اذ أعاد الكامل فتح باب المفاوضات من جديد مع فردريك، وقد اشترك فيها هذه المرة الى جانب الأمير فخر الدين يوسف، الشريف شمس الدين الاموى قاضى العسكر، ووافق الكامل على إعطاء بيت المقدس لقمة سائغة لفردريك دون قتال أو حرب. والحقيقة أن هناك أسباب دفعت الكامل إلى أن يسلم بيت القدس لفردريك بسهولة من أهمها :-

١) التلويح باستخدام القوة، فقد قام فردريك أثناء المفاوضات بتحصين يافا، مما جعل الكامل يخشى من تحالف فردريك مع بقية القوى الصليبية فى الشام للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين .

٢) لم يكن بإمكان الكامل أن يغامر بالدخول فى حرب ضد الصليبيين اذ يصبح بذلك بين ثلاث قوى معادية وهى :ابن أخيه الناصر داود الذى يمكنه أن يجمع شتات البيت الايوبى، والصليبيين، والخوارزمية الذين استنجد بهم الناصر داود.

٣) أن الملك الكامل لم ير أى ضرر من وراء إعطاء مدينة بيت المقدس للصليبيين، مادامت أسوارها ستظل خربة، وطالما أن شعائر الإسلام سوف تقام فى حرمها .

٤) يستطيع الكامل أن يكسب بذلك تحالفا دفاعيا مع الإمبراطور يتيح له مواصلة غزواته العسكرية دون أن تقلقه حملة صليبية جديدة، وينصرف بذلك إلى الاهتمام بشئون البلاد .

لهذه الأسباب قبل الكامل – تحت تأثير الأمير فخر الدين يوسف –عقد اتفاقية "يافا "مع الإمبراطور فردريك فى ٢٨ من شهر ربيع الأول عام ٦٢٦هـ/٢٤ من فبراير عام ١٢٢٩م، وتقرر بمقتضى هذه الاتفاقية ما يلى :-

- أن يأخذ الصليبيون مدينة بيت المقدس بشرط أن تظل على ما هى عليه من الخراب، ولا يجدد سورها، وبشرط ان تكون منطقة الحرم بما تحويه من قبة الصخرة والمسجد الاقصى بأيدي المسلمين، لا يدخلها الصليبيون الا للزيارة، ويتولاها جماعة من المسلمين، وان تقام فيها الشعائر الإسلامية من آذان وصلاة وإقامة.
-أن تكون القرى الواقعة على الطريق بين عكا الى القدس، ومن عكا إلى يافا فى أيدي الصليبيين .
- أن يطلق سراح الأسرى من الجانبين وبخاصة الأطفال الذين اسروا فى حملة الأطفال ١٢١٢م (*).
- أن تكون مدة الصلح بين الطرفين عشر سنوات وأربعين يوما .
- تعهد فردريك بالا يقدم أى مساعدة للصليبيين سواء فى الشرق أم فى الغرب ضد المسلمين طول مدة المعاهدة، والا يساعد أى جيش لا بالرجال ولا بالمدد، وأن يمنع أية حملة أوربية من المجىء إلى الشواطىء الايوبية بمصر والشام .

وبهذا نجح فردريك الثانى فى أن يكسب عطف السلطان الكامل، وأن يحقق ما جاء من اجله، وما عجزت الحملات الصليبية السابقة عن تحقيقه، ويشير المقريزى إلى أن الإمبراطور فردريك اعتذر لفخر الدين قائلا " بأنه لولا يخاف انكسار جاهه ما كلف السلطان شيئا من ذلك، ما له غرض فى القدس ولا غيره. وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج ".

وطلب الإمبراطور فردريك من الملك الكامل أن يسمح له هو ومن معه من

(*) قام فى أوربا صبى من الرعاة، وأدعى أن السيد المسيح أمره بقيادة حملة صليبية من الأطفال لإنقاذ بيت المقدس، واجتمع حوله عدد كبير من الأطفال بلغوا فيما يقال ثلاثين ألفا من مختلف الممالك، وهم خليط من الأولاد والبنات اللاتى اتخذن ملابس الأولاد، وكلهم فى سن الثانية عشرة، ووصلوا إلى مارسيليا، وقد غرر بهم بعض التجار وأصحاب السفن فحملوهم إلى الثغور والموانئ الإسلامية، وباعوهم بيع الرقيق.

الألمان بزيارة بيت المقدس، وذلك ليتوج إمبراطورا فى كنيسة القيامة من ناحية، وليؤكد حقوقه فى مملكة بيت المقدس من ناحية أخرى . وسمح له الكامل بذلك، فأتجه فردريك ورجاله إلى المدينة المقدسة، وفى نابلس سلم القاضى "شمس الدين" قاضى تلك المدينة مفاتيح بيت المقدس لفردريك، وصحبه أثناء أقامته فيها، وأمر قاضى نابلس المؤذنين الا يؤذنوا تلك الليلة، ولكن أخذ فردريك عليه ذلك، وقال له "أخطأت فيما فعلت، والله أنه كان أكبر غرضى فى المبيت بالقدس أن اسمع آذان المسلمين وتسبيحهم فى الليل". وأقام فردريك بالقدس ليلتين، طاف خلالهما بأرجاء المدينة، ثم رحل الى يافا ومنها اتجه الى عكا، وبعدها عاد الى بلاده فى جمادى الآخرة عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، وخاصة بعد أن وصلته أخبار سيئة من صقلية أجبرته على الإسراع بالعودة إلى غرب أوروبا .

لم يرض الجانبين الاسلامى والمسيحى عن اتفاقية يافا التى عقدها الكامل وفردريك، فلم يكد المسلمون يسمعون بتسليم القدس إلى الصليبيين، حتى اشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل، اذ عز عليهم هذا البلاء، واتهموا الكامل بالتهاون فى ديانة المسلمين وفتوحات صلاح الدين . وذهب المؤذنون الذين كانوا فى الصخرة والمسجد الاقصى إلى باب دهليز السلطان أى "خيمته "فأذنوا على بابه من غير وقت الآذان "فعسر ذلك على السلطان الكامل، أمر أن يؤخذ منهم ما معهم من القناديل والفضة وجميع الآلات، ويتوجهوا إلى حال سبيلهم ".

ويرجع موقف المسلمين هذا إلى عدم تقبلهم فكرة وجود علاقات طيبة وسلمية بينهم وبين الصليبيين، فى عصر شهد الكثير من الحملات الصليبية، كما أن أعداء الكامل لعبوا دورا بارزا فى إثارة الضجة ضد الكامل فى العالم الاسلامى، واتخذوا من تسليمه القدس لفردريك فرصة للتشنيع عليه .ومن أمثلة ذلك ما فعله الناصر داود الذى أشار على سبط ابن الجوزى بأن يجلس بجامع دمشق، ويذكر ما جرى على بيت المقدس، ويحفز الناس بما يثيرهم ضد عمه الكامل. ولم يجد الكامل إزاء هذا الا أن يرسل رسله إلى مختلف البلدان لتسكين قلوب الناس وطمئنة خواطرهم بعد انزعاجهم لأخذ الفرنج القدس.

أما عن موقف الصليبيين من اتفاقية يافا، فأنها لم تف بكل ما كان ينشده الصليبيون، على الرغم من أنهم حصلوا بمقتضاها على بيت المقدس، أما عن موقف الصليبيين فى الشرق، فقد استقبلوا فردريك منذ وصوله إلى عكا بفتور شديد، كما أن ما ادعاه فردريك من أحقية فى مملكة بيت المقدس، أوغر صدور الصليبيين عليه، لذلك لم يكن غريبا ان يقفوا من هذه الهدنة موقفا معاديا .هذا إلى جانب أنهم شاركوا البابوية رأيها فى أن الصليبيين لا ينبغى لهم "مصالحة المسلمين بل يجب قتالهم حتى النهاية .

وقد اتضح موقف الصليبيين فى الشرق بجلاء من خلال تصرف بطريرك بيت المقدس "جيرولد "مع الإمبراطور فردريك، فعندما علم جيرولد أن الإمبراطور ينوى زيارة مدينة بيت المقدس، أصدر قرار الحرمان على القدس نفسها، وعلى كل من يستقبل الإمبراطور فيها من السكان المحليين المسيحيين .

ولاعجب فى موقف كل من المسلمين والصليبيين من اتفاقية يافا، لان هذه العصور كانت تعرف بعصور الإيمان، فالمسلم الحق لا يجب أن تكون له علاقات مع الصليبيين، كما أن العلاقات بين مسلم ومسيحى اوربى فى العصور الوسطى كانت شيئا غريبا، لأن المسلمين لم تكن لديهم أفكار واضحة عن الحضارة والثقافة الأوربية .

سلطنة الصالح نجم الدين أيوب والحملة الصليبية السابعة على مصر

توفى السلطان الكامل محمد فى اوائل عام ٦٣٦هـ/١٢٣٨م، وترك ولدين هما :

- العادل الصغير أو العادل الثانى، وهو الابن الأصغر .
- الصالح نجم الدين أيوب، وهو الابن الأكبر، ومع ذلك فقد عهد بالعرش إلى العادل الثانى، رغم صغر سنه، وذلك لميله لام العادل، إلى جانب شدة بأس الصالح، فقد حدث أن اشترى الصالح جماعة من المماليك الترك، وحاول الاستيلاء على العرش من يد أبيه الكامل محمد، ولكن محاولته هذه باءت بالفشل، مما دفع

الكامل الى أن يجعل العادل الثانى وهو الابن الأصغر وريثا له ووليا لعهده .

غير ان الصالح نجم الدين نجح فى أن يستولى على دمشق من يد أخيه العادل فى عام ٦٣٧هـ/١٢٣٩م، وترتب على ذلك أن دار نزاع بين العادل الثانى وأخيه الصالح نجم الدين أيوب . وفى هذا النزاع استعان كلاهما بأعوان من أبناء البيت الايوبى نفسه، كما استعانوا بالخوارزمية، الذين تفرقوا فى البلاد بعد مقتل سلطانهم جلال الدين بن منكبرتى . ثم حدث فى نهاية هذا العام (٦٣٧هـ/١٢٣٩م) أن استطاع الصالح إسماعيل، عم العادل الثانى والصالح أيوب، أن يسترد دمشق من أيدى ابن أخيه الصالح أيوب، وظل يحكمها لمدة خمس سنوات .

أما عن الصالح أيوب فقد وقع فى قبضة ابن عمه الناصر داود، صاحب الأردن والكرك الذى لم يطلق سراحه الا بعد أن تعهد له بالقيام بحملة على مصر لانتزاعها من أخيه العادل الثانى، ثم منحها للناصر، كما يستعيد الصالح أيوب دمشق من الصالح إسماعيل، ويمنح نصفها للناصر داود، ويأخذ الصالح كذلك بعض البلدان فى شمال بلاد الشام. وبالفعل تم الاتفاق بين الناصر داود وبين الصالح أيوب على هذه الشروط، ووافق الصالح أيوب عليها، وتم إطلاق سراحه، وأخذ فى تجهيز جيش، وزحف به صوب الديار المصرية وبصحبته الناصر داود.

هذا فى الوقت الذى استاء فيه أمراء الدولة الايوبية من العادل الثانى لانشغاله باللهو عن تدبير أمور البلاد ومصالح الدولة، وقبضوا عليه وعزلوه، واستدعوا شقيقه الصالح أيوب الى القاهرة، فدخلها وأصبح سلطانا على مصر فى عام ٦٣٧هـ/١٢٤٠م، وتم سجن العادل الثانى بقلعة الجبل، ولم ينفذ الصالح أيوب شيئا مما سبق وتعهد به للناصر داود، خاصة بعد أن انفرد بحكم مصر .

وتعرض الصالح أيوب فى مصر لضغوط من جانب الأيوبيين فى الشام، وعلى رأسهم عمه الصالح إسماعيل، صاحب دمشق الذى سبق أن طرده منها واستولى عليها، واشتد النزاع بينهما وتطور بصورة خطيرة، وراح كل منهما يبحث عن حلفاء له فى صراعه مع الأخر، واستعان الصالح إسماعيل بكل من : الناصر داود صاحب الأردن والكرك، والمنصور إبراهيم صاحب حمص، وقرر

الثلاثة غزو مصر، واتصل الصالح إسماعيل كذلك بالصليبيين، وطلب مساعدتهم له ضد الصالح أيوب فى مصر، وعرض عليهم مقابل تلك المساعدة، أن يكون لهم نصيب فى مصر، فضلا عن بعض مدن الشام وحصونه. ورحب الصليبيون بالعرض، واتفقوا مع الحلف الثلاثى على غزو مصر، وحشدوا قواتهم عند غزة، وذلك فى عام ٦٤١هـ/١٢٤٣م .

وعندئذ لم يجد الصالح من قوة تسانده، وتقف الى جواره ضد خصومه الأيوبيين وحلفائهم الصليبيين، سوى الخوارزمية، الذين كانوا يعرضون خدماتهم الحربية على كل من يريد من ملوك الدول الإسلامية المجاورة خاصة بعد أن قضى المغول على دولتهم، فطلب الصالح مساعدتهم، ورحب الخوارزمية ولبوا نداء السلطان الصالح أيوب على الفور، وذلك على أمل أن يجدوا فى ذلك فرصة لهم لدخول الشام .وبدأ الخوارزمية يشنون هجماتهم على حكام الأيوبيين فى الشام، فولوا وجههم اولا شطر دمشق، ولكنها كانت قوية التحصين، ولذلك تركوها واستولوا على طبرية ثم على نابلس، ثم اتجهوا نحو بيت المقدس .

وكانت مدينة بيت المقدس فى ذلك الحين مدينة شبه مفتوحة، إذ كانت خربة الأسوار، ضعيفة التحصين، وليس لها ملك أو قائد صليبي يتولى أمر الدفاع عنها. فاستنجد الصليبيون الموجودون بها بأمير انطاكية وبأمير طرابلس وبملك قبرص، وبحلفائهم من حكام المسلمين أى ملوك الأيوبيين فى الشام، ولكن لم يلب ندائهم أى من هؤلاء. فبالنسبة لأمير انطاكية وأمير طرابلس وملك قبرص، فقد كان كل منهم مشغولا بمشاكله الخاصة، أما حلفاؤهم من ملوك الأيوبيين فى دمشق وحمص والأردن، فلم يجرؤ واحد منهم على منع الخوارزمية من الاستيلاء على بيت المقدس، لأنهم فى هذه الحالة سوف يتعرضون لنقمة العالم الاسلامى .

واقتحم الخوارزمية مدينة بيت المقدس فى عام ٦٤٢هـ/١٢٤٤م، واستولوا عليها بسهولة من أيدى الصليبيين، واعملوا فيها السلب والنهب والتدمير والتخريب. وهكذا عادت مدينة بيت المقدس الى أيدى المسلمين، وظلت بأيديهم حتى نهاية عصر الحروب الصليبية، اذ لم يقدر لجيش مسيحى أن يدخلها بعد ذلك .

وبعد أن استعاد الخوارزمية بيت المقدس من أيدى الصليبيين، اتجهوا نحو غزة للاجتماع بالجيش الذى ارسله السلطان الصالح أيوب، وكان هذا الجيش بقيادة المملوك "ركن الدين بيبرس "، وقد خرج هذا الجيش لمساعدة الخوارزمية فى ضرب قوات ملوك الشام ومن ناصرهم من الصليبيين، الذين خططوا لغزو مصر. وفى الوقت الذى التقى فيه الخوارزمية بجيش الصالح أيوب، كانت قوات الحلف الشامى الصليبي قد اتجهت بدورها نحو غزة، فى طريقها إلى مصر لإخراج الصالح أيوب منها .

والتقى الطرفان أى جيش الصالح أيوب والخوارزمية من ناحية، والصليبيون وجيوش دمشق وحمص والأردن من ناحية أخرى، فى معركة دارت عند غزة فى أكتوبر من عام ١٢٤٤م، وفيها حلت الهزيمة بالصليبيين وحلفائهم من "منافقى المسلمين "على حد تعبير المصادر، وقدرت خسائر الصليبيين بنحو ثلاثين الف قتيل وثمانمائة أسير، ولم يفلت منهم الا "الشارد النادر" على حد تعبير المصادر. وكانت معركة غزة،أعظم كارثة حلت بالصليبيين منذ موقعة حطين ٥٨٣هـ/١١٨٧م حتى أن المؤرخين أطلقوا عليها أسم "حطين الثانية ".

وأمل الخوارزمية بعد الانتصار الذى حققوه على الصليبيين فى بيت المقدس وفى غزة، أن يكافأهم الصالح أيوب بالسماح لهم بالاستقرار فى مصر، ولكن يبدو أن الصالح أيوب كان يخشى ما يترتب على دخولهم مصر من ضرر بالبلاد والعباد، فلم يسمح لهم سوى بالاستقرار فى الشام على حساب الصليبيين، ونجح الخوارزمية بالفعل فى التوسع على حساب الصليبيين فى الشام حتى وصلوا الى مشارف عكا .

أما جيش الصالح فقد انفصل عن الخوارزمية بعد معركة غزة، واتجه نحو بلاد الشام لمعاقبة ملوكها، خاصة صاحب دمشق والكرك لتحالفهما مع الصليبيين، وشروعهما فى غزو مصر، وتمكن جيش الصالح من الاستيلاء على معظم أملاك الناصر داود، ولم يبق له سوى الكرك، كما تمكن من الاستيلاء على دمشق من أيدى الصالح إسماعيل، ولم يبق له سوى بعلبك وبصرى وأعمالهما أو القرى التابعة لهما .

الحملة الصليبية السابعة على مصر :-

نتيجة للظروف التى أحاطت بالصليبيين فى الشام، وما ترتب عليها من ضياع بيت المقدس من جهة، والكارثة التى حلت بهم بعد معركة غزة من جهة أخرى، بدأ الغرب الاوربى يشعر بالقلق، ويخاف من ضياع البقية الباقية من ممتلكات الصليبيين فى الشام، ولذلك قامت البابوية بالدعوة لحملة صليبية جديدة لاستعادة بيت المقدس، والثأر من المسلمين لما حل بالصليبيين على أيديهم، غير أن أحوال الغرب الاوروبى فى تلك الأونة كانت تحول دون أن يلبى كثير من ملوك أوروبا وأمرائها تلك الدعوة، اللهم الا لويس التاسع ملك فرنسا، الذى اشتهر بالورع والتقوى، حتى لقب ب"القديس لويس" .

كان لويس التاسع ملك فرنسا، قد أصيب بمرض عضال، وأشرف على الموت، فنذر -كما يذكر جوانفيل مؤرخ حياة القديس لويس - أن شفاه الله من هذا المرض الخطير أن يقوم بحملة صليبية، ويذهب الى الاراضى المقدسة، ويستعيد بيت المقدس من جديد، ايمانا منه أن الله مَن عليه بالشفاء من مرضه ليقوم بهذه المهمة، وكان أن شفى من مرضه بالفعل لذلك راح يعد العدة لتنفيذ وعده .

وراح لويس يعد لحملته المنشودة، فكان يدعو لها بنفسه، ويقال أن القديس لويس قد لجأ الى حيلة طريفة من أجل أن يكسب أكبر عدد ممكن من النبلاء والفرسان والبارونات فى مملكته، ويدفعهم إلى الاشتراك فيها. وكان قد اعتاد أن يقدم الهدايا إلى كبار رجال دولته فى عيد الميلاد من كل عام، وفى ليلة عيد الميلاد من عام ١٢٤٥م، دعاهم كعادته فى كل عام، وأهدى كل واحد منهم وشاحا، كان قد أمر أن تحاك عليه علامة الصليب، وحين ارتدوا هذه الأوشحة، وشاهد كل منهم علامة الصليب على كتف الأخر، غمرهم السرور، ولم يجدوا بدا من تنفيذ رغبة مليكهم، وانخرطوا جميعا فى سلك الحملة الصليبية الجديدة .

ثم سعى لويس لتوفير احتياجات الحملة من السفن البحرية، واستعان فى ذلك بسفن جنوا ومرسيليا، بعد أن رفضت البندقية أن تقدم له أية سفن لعلاقاتها الطيبة مع مصر. كذلك اتصل لويس التاسع بفردريك الثانى، وطلب منه أن يخرج

بصحبته فى هذه الحملة، ولكن رفض فردريك رفضا تاما، لانه كان لايزال محافظا على وعوده التى قطعها على نفسه للسلطان الكامل وللبيت الايوبى . وبعد أن اتخذ لويس التاسع كافة الاستعدادات لحملته، قام بتنظيم شئون المملكة، وأناب عنه والدته الملكة "بلانش" صاحبة قشتالة، لتدبير شئون المملكة فى أثناء غيابه فى الشرق، وبدأ يستعد للرحيل .

وفى الوقت الذى أخذ فيه لويس التاسع، ملك فرنسا، يواصل استعداداته لحملته الصليبية، إذا بأخبار هذه الحملة تتسرب الى السلطان الصالح أيوب، وذلك عن طريق الإمبراطور فردريك الثانى، إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، الذى كانت تربطه بالسلطان الكامل محمد علاقات مودة وصداقة ومحبة، والذى لم يكتف بأن رفض الاشتراك فى هذه الحملة فحسب، بل أرسل بتفاصيلها الى السلطان الصالح أيوب بن السلطان الكامل وذلك حتى يستعد لمواجهة هذه الحملة، فقد ظل مخلصا ومصداقا للسلطان الكامل ولابنه الصالح أيوب من بعده، حتى أنه أرسل إلى الصالح رسولا متخفيا فى زى تاجر، يخبره بأن لويس عازم على المسير بجحافله الى مصر لامتلاكها .

وما أن علم الملك الصالح أيوب بتفاصيل حملة لويس حتى بادر بالرحيل من دمشق، واتجه الى مصر، على الرغم من اشتداد المرض عليه، وذلك لوضع الترتيبات اللازمة لحماية دمياط، التى كانت مقصد لويس، بعد أن أثبتت التجارب السابقة اختيار الصليبيين لها نقطة ارتكاز للاستيلاء على مصر. ومن الاستعدادات التى اتخذها الصالح أيوب لتحصين دمياط ما يلى :-

- أصدر الملك الصالح أوامره الى الأمير فخر الدين يوسف - قائد الجيش، ورسول الكامل من قبل الى فردريك - وبتجهيز الجيش، والحضور إلى دمياط، والوقوف على البر الغربى لفرع دمياط، لمنع الصليبيين من النزول على ذلك البر .

-اصدر الملك الصالح أوامره كذلك إلى عرب بنى كنانة، وهم مشهورون بالشجاعة والبسالة فى الحروب، بأن يبقوا فى دمياط للدفاع عنها إلى جانب حاميتها

العسكرية والجيش، ويقومون بحمايتها والدفاع عنها ضد الصليبيين .

-حشد الملك الصالح أيوب فى مدينة دمياط مجموعة كبيرة من الأسلحة وأدوات الحرب والمؤن والمواد التموينية اللازمة .

-قام الملك الصالح بتجهيز الأسطول، وشحنه بالرجال والسلاح والعتاد والميرة وآلات الحرب، وأرسله إلى دمياط. وبهذه الاستعدادات التى اتخذها الصالح أيوب، أصبحت دمياط مستعدة للقاء حملة لويس التاسع، وذلك بفضل تحذيرات فردريك الثانى.

ووصلت الحملة الصليبية السابعة، وعلى رأسها لويس التاسع أمام دمياط فى صفر من عام ٦٤٧هـ/يونيو ١٢٤٩م، وشاهد الصليبيون ما بدمياط من عدة وعتاد، ومع ذلك فقد أسرع لويس التاسع بإرسال رسول إلى الملك الصالح أيوب ليسلمه رسالة عنيفة من لويس التاسع، يطلب فيها من الملك الصالح الاستسلام، ويستعرض فيها مدى قوته، وذلك كنوع من الإرهاب والتخويف للملك الصالح أيوب. وقد جاء فى هذه الرسالة : "وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت فى طاعتى، تملأ السهل والجبل، وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون اليك بأسياف القضا" .ووصلت رسالة لويس إلى الصالح وهو مريض، فأغرورقت عيناه بالدموع، ورد على لويس ليندد بغروره، ويذكره بما فعله المسلمون بالصليبيين، وينذره بأنه سيندم حيث لا ينفع الندم.

ونظرا لتحصين دمياط -فقد تردد لويس بعض الشىء فى النزول إلى الشاطىء، ولكنه ما لبث أن قرر النزول إليه، ومحاربة المسلمين إذ قاوموه .ونزل لويس بالفعل على الضفة الغربية للنيل المواجهة لدمياط .وعلى الرغم من أن قوات الأمير فخر الدين تصدت للصليبيين وقاومتهم إلا أنها لم تنجح فى مهمتها، واستطاع الصليبيون النزول إلى الشاطىء، مما جعل الأمير فخر الدين ومعظم رجاله يفرون ليلا إلى الضفة الشرقية، حيث توجد دمياط . واستولى الرعب على أهل دمياط، عندما رأوا رحيل الجيش، فتركوا مدينتهم بما فيها، وولوا هاربين إلى القاهرة، تاركين أمتعتهم. أما عرب كنانة الذين عهد إليهم الصالح بالدفاع عن

دمياط فقد ولوا الأدبار بدورهم، وتركوا أبواب دمياط مفتوحة، ونسوا عند فرارهم أن يقطعوا ذلك الجسر الذى يربط دمياط بالضفة الغربية التى عليها الصليبيون .

وهكذا أصبحت مدينة دمياط مدينة مفتوحة خالية من كل وسائل الدفاع، فاستولى عليها الصليبيون بغير قتال فى يونيو من عام ١٢٤٩م، "صفوا وعفوا بغير كلفة ولا مؤنة حصار" على حد تعبير المقريزى والحقيقة أن الصليبيين ظنوا فى البداية أنها خدعة، ولكنهم ما لبثوا أن أدركوا حقيقة الأمر، فدخلوا دمياط، واستولوا على ما فيها من مؤن وآلات وأسلحة وأموال . وغضب الملك الصالح أيوب غضبا شديدا، وقرر معاقبة عرب بنى كنانة عقابا شديدا وذلك بشنقهم لفرارهم من دمياط، كما عنف الأمير فخر الدين ورجاله ووبخهم لعدم ثباتهم أمام الصليبيين بل وكاد يأمر بقتل فخر الدين نفسه، ولكن يبدو أن حالته الصحية بالإضافة إلى حرج موقفه العسكرى جعلته يؤجل عقابهم .

وإزاء الموقف العسكرى الجديد، قرر الصالح نجم الدين أيوب الرحيل إلى المنصورة، واتخاذها خط دفاع أول، ونقل الصالح على ظهر محفة إلى قلعة المنصورة، وتابع من هناك تنظيم شئون الدفاع، وأخذت الجنود فى تعمير المنصورة، وحشدها بالمؤن والسلاح .كما جاءت سفن الأسطول المصرى وعليها المقاتلين، وعسكرت فى النيل أمام المنصورة، كذلك اجتمعت بالمدينة أعداد كبيرة من المتطوعة من أهل مصر ومن العربان وعامة الناس للجهاد ضد الصليبيين والحيلولة بينهم وبين الوصول إلى القاهرة .

أما عن الصليبيين فبعد أن استولوا على دمياط .وقاموا فيها بأعمال السلب والنهب، وحولوا جامعها الى كنيسة باسم "كنيسة العذراء "وعينوا لها بطريركا كاثوليكيا. يلاحظ انهم لم يحاولوا أن يستغلوا انتصارهم فى مواصلة فتح باقى البلاد المصرية خاصة بعد أن أصيب المسلمون فى مصر بالذهول لضياع دمياط، بل ظلوا فى حالة جمود عسكرى طيلة خمسة أشهر، وذلك لأن الملك لويس كان ينتظر وصول نجدات له من فرنسا، على رأسها أخيه ارتوا كونت بواتييه، كما آثر الصليبيون الانتظار حتى تنتهى فترة الفيضان لكى لا يقعوا فى نفس الخطأ الذى

وقعت فيه الحملة الصليبية الخامسة .

وأفاد المسلمون من الوقت الذى أضاعه الصليبيون، وراحوا يعيدون تنظيم صفوفهم وتقوية استحكاماتهم، كما أخذوا يشنون الغارات والمناوشات على الصليبيين، وكثيرا ما نجحوا فى خطف الجند الصليبيين وإحضارهم إلى الملك الصالح طمعا فى المكافأة. وسرعان ما وصلت الإمدادات الى لويس التاسع وعلى رأسها كونت بواتييه فى أكتوبر من عام ١٢٤٩م، فقرر الصليبيون الزحف نحو القاهرة، ولم يكد لويس التاسع يشرع فى الزحف نحو القاهرة، حتى توفى الملك الصالح نجم الدين أيوب فى نوفمبر من نفس العام .

ولاشك أن وفاة الصالح فى تلك الظروف الحرجة ممثلة فى استيلاء الصليبيين على دمياط وقرارهم الزحف نحو القاهرة، جاءت خسارة كبيرة لعدم وجود من يحل محله بسرعة فى حكم البلاد وفى مواجهة الصليبيين .فضلا عن ان الصالح لم يعهد قبل وفاته لأحد بالسلطنة مما يترتب عليه حالة من الفوضى والاضطراب تغرق فيها البلاد فى وقت هى فيه فى أمس الحاجة إلى حاكم قوى، يأخذ بيدها لتواجه الخطر الصليبي .

وكان للصالح أيوب ولد واحد لايزال على قيد الحياة، بعد أن توفى أولاده الثلاثة الاخرين وهم :المغيث فتح الدين عمر الذى قبض عليه عمه الصالح إسماعيل، واستمر محبوسا بقلعة دمشق حتى وفاته، والملك القاهر وقد مات فى حياة أبيه، وخليل وهو الذى انجبه من شجر الدر، وقد مات هو الأخر صغيرا، ولم يبق من أولاد الصالح أيوب الا "تورانشاه " ولكنه كان شابا مستهترا عديم الخبرة، أهوج، لذلك لم يقلده أبوه حكم الدولة الأيوبية من بعده، وكان وقت وفاة أبيه ينوب عنه فى حصن "كيفا – على مقربة من نهر دجلة – وديار بكر " وحتى يصل تورانشاه، قامت "شجر الدر" زوجة أبيه بدور حفظه لها التاريخ .

ويتمثل هذا الدور فى خطوتين :- الأولى أنها اخفت خبر موت زوجها عن سائر الامراء والجند الا عن اثنين كانا موضع ثقتها وثقة السلطان الصالح وهما : الأمير فخر الدين يوسف، وكان له دوره السياسى والعسكرى فى الدولة الايوبية،

والطواشي جمال الدين محسن، وكان يتولى الاشراف على المماليك، وكان حكمه نافذا عليهم، وعلى سائر أفراد الحاشية، وكان كلاهما من أقرب الناس الى السلطان نجم الدين أيوب. ووضعت شجر الدر جثمان السلطان فى تابوت، وتم نقله على ظهر سفينة من المنصورة الى القاهرة، حيث تم دفنه فى قلعة جزيرة الروضة، حيث توجد ثكنات المماليك البحرية ثم نقل الجثمان إلى القبة التى شيدتها له شجرة الدر بعد ذلك. وحرصت شجر الدر على أن يستمر كل شيء على ما هو عليه، وكأن السلطان لازال على قيد الحياة، فاستمر الأطباء موجودين بقصر السلطان حتى يظن الناس أن السلطان لايزال مريضا، وظلت المكاتبات الرسمية تصدر بإسم السلطان وتوقيعه، ويقال أن شجر الدر كانت بارعة فى تقليد توقيع السلطان، ويقال أيضا أنه كان للسلطان خادم يدعى "سهيل" كان يجيد توقيع السلطان، خاصة فى حرف الصاد.

أما الخطوة الثانية التى أتخذتها شجر الدر فهى أنها أرسلت فى استدعاء تورانشاه على الفور من حصن كيفا، وقبل أن يصل جمعت الأمراء، وطلبت منهم بإسم السلطان الصالح أيوب أن يحلفوا لتورانشاه، وعرفتهم أن هذه هى رغبة السلطان، ونفذ الأمراء والجند رغبة السلطان، وحلفوا لابنه تورانشاه، وحتى يصل تورانشاه، قام الأمير فخر الدين يوسف بتدبير شئون البلاد مع بقائه فى وظيفة اتابك العساكر أى القائد العام للجيش. وهكذا سارت الأمور فى مصر وكأن السلطان على قيد الحياة .

ولكن على الرغم من هذه الاحتياطات التى اتخذتها شجر الدر، الا أن خبر وفاة السلطان الصالح، تسرب ليس الى المصريين فحسب بل الى الصليبيين كذلك، لذلك رأى لويس التاسع أن يسرع بالهجوم ليستفيد من الظروف السيئة التى أمست فيها البلاد، وليتمكن من إنزال ضربة بالمسلمين قبل وصول تورانشاه .

وهاجم الصليبيون المنصورة على حين غفلة من أهلها فىالخامس من ذى القعدة عام ٦٤٧هـ/ ١٠من فبراير من عام ١٢٥٠م ودون أن يستمعوا إلى أوامر الملك لويس، الخاصة بضرورة التريث والانتظار، وهكذا اندفع فرسان الصليبيين

داخل المنصورة، وأوغلوا فى طرقاتها مما أوقع الاضطراب بين جند المدينة وأهلها، وأحدث الصليبيون فيهم القتل والسلب، وقتل فى هذا الهجوم الأمير فخر الدين يوسف نفسه. وهكذا كان الموقف جد خطير بالنسبة للمسلمين لدرجة أن المؤرخ "ابن واصل " أطلق على ذلك اليوم الذى دخل فيه الصليبيون المنصورة "يوم الكبسة".

ولكن سرعان ما استرد الجيش الاسلامى شجاعته واستجمع قواه خارج المدينة وذلك بقيادة بيبرس البندقدارى الصالحى، وقد نجح بيبرس فى إنقاذ الموقف، وانقض على الصليبيين فى دروب المنصورة، واعمل فيهم القتل، فلاذوا بالبيوت، محاولين الاحتماء بها، وعندئذ انهال عليهم سكانها بالضرب والرمى بالحجارة والطوب. وهكذا انتهت المعركة بهزيمة الصليبيين وفرارهم منهزمين، وكان عدد ضحايا الصليبيين فى المنصورة بضعة آلاف، مما جعل أحد المؤرخين الأوروبيين يعتبرها "مقبرة الجيش الصليبي "، فى حين اعتبرها المقريزى " بداية النصر على الفرنج ".

وأعادت معركة المنصورة الثقة الى نفوس المسلمين، واشتدت بعدها هجماتهم على الصليبيين، والحقوا بهم خسائر فادحة فى الأرواح، ولم يجد الصليبيون طريقا للخلاص من جثث قتلاهم سوى أن يلقوا بها فى مياه النيل، ولكن بعد وقت قصير، بدأت الجثث تطفو على سطح الماء، فأمر لويس بجمعها ودفنها فى باطن الأرض، وقد ادى ذلك الى تفشى وباء الطاعون فى المعسكر الصليبي بشكل خطير. وهكذا عانى الصليبيون من نقص فى عدد فرسانهم بسبب كثرة ضحاياهم فى المنصورة، فضلا عن انتشار الأمراض والوباء فى معسكرهم .

تورانشاه والصليبيون :-

وصل تورانشاه الى المعسكر الأيوبي بالمنصورة، فى ١٩ من ذى القعدة عام ٦٤٧هـ/٢٤من فبراير عام ١٢٥٠م، فأرتفعت الروح المعنوية للجند المسلمين، وسرعان ما سلمت إليه شجر الدر مقاليد الأمور وبويع بالسلطنة، والتف حوله

الأمراء المماليك، ونزل فى قصر أبيه بالمنصورة. وبعد ان تسلم تورانشاه مقاليد السلطنة، بدأ يخطط مع كبار الأمراء لإنزال هزيمة ساحقة بالصليبيين. وكانت خطته تستهدف حصار الصليبيين برا وبحرا فى الجانب الغربى، ومنع وصول الإمدادات إليهم عن طريق دمياط، ثم مهاجمة السفن الصليبية وأسرها أو إحراقها وذلك ليشلوا حركتهم تماما ويرغموهم على الاستسلام .

وشرع المسلمون فى تنفيذ خطتهم بأن انزلوا مجموعة كبيرة من السفن الى بحر المحلة بعد أن شحنوها بالمقاتلين، وقامت هذه السفن بمباغتة السفن الصليبية، وفى نفس الوقت وصل أسطول المسلمين من جهة المنصورة، فصارت سفن الصليبيين محصورة بين سفن المسلمين، فوقع معظمها فى الأسر وانقطع المدد القادم من دمياط الى الصليبيين لذلك كاد الصليبيون يموتون جوعا .

وأدرك لويس التاسع الظروف السيئة التى أمسى عليها الصليبيون، فحاول أن يضرب عصفورين بحجر واحد، فشرع فى فتح باب المفاوضات مع المسلمين، وأرسل الى تورانشاه يطلب الهدنة، وعرض عليه تسليم دمياط ومغادرة البلاد المصرية مقابل تنازلهم عن بيت المقدس وبعض المدن الساحلية فى فلسطين، ولكن قوبل هذا العرض من جانب المسلمين وتورانشاه بالرفض، لأن المسلمين كانوا يدركون جيدا الوضع السيئ الذى أمسى فيه الصليبيون .

وهكذا أصبح أمام الصليبيين أحد امرين هما :-أما أن يظلوا فى معسكرهم شمال بحر اشموم وجنوبه، وفى هذا هلاكا لهم بعد أن نفذت مؤنهم، وتفشت بينهم الأمراض . وأما أن يعودوا أدراجهم الى دمياط للتحصن بها . وقد اختار لويس الأمر الثانى، وبدأ الصليبيون يتراجعون نحو دمياط، ولكن لم يتركهم المسلمون يتراجعون فى سهولة ويسر، بل تعقبوهم، وانزلوا بهم كثيرا من الخسائر، حتى وصلوا الى قرية "فارسكور" وعندها كانت نهاية المطاف، فقد اشتد المرض على لويس التاسع وعلى معظم رجاله، فأحدق به وبرجاله المسلمون وانقضوا عليهم عند فارسكور، واعملوا فيهم القتل والاسر، وحال المرض بين لويس التاسع وبين قتال المسلمين، فقاده أحد رجاله ليستريح فى منية الخولى عبدالله، وهى إحدى قرى

شرمساح فى منتصف الطريق بين دمياط والمنصورة. وفى الحال أحاط المسلمون بلويس التاسع وبمن معه من الفرسان الصليبيين، الذين حاولوا الدفاع عن الملك، ولكن المسلمين قاتلوهم حتى أبادوهم عن أخرهم، ثم القوا القبض على لويس التاسع، وقادوه أسيرا مكبلا بالأغلال إلى دار القاضى فخر الدين بن لقمان، كاتب الإنشاء، وسجن فى هذه الدار. وقد أكرمه تورانشاه، ورتب له من يقوم على خدمته، وهو الطواشى "صبيح" كما أرسل إليه تورانشاه خلعة نفيسة ليرتديها، وقد أشاد المؤرخون الصليبيون بتلك المعاملة الحسنة التى عومل بها لويس التاسع فى الأسر.

ولم تمض أيام قلائل على وقوع لويس والصليبيين فى الأسر، حتى طلب السلطان المعظم تورانشاه فتح باب المفاوضات مع لويس التاسع، وحاول تورانشاه أن يجبر لويس على الموافقة على التخلى عن بعض ممتلكات الصليبيين فى الشام، ولكنه رفض ذلك لانه ليس له سلطان على الصليبيين وممتلكاتهم فى الشام، وبالتالى ليس له الحق فى التنازل عنها. وفى النهاية عقدت معاهدة بين المسلمين والصليبيين، نصت على :-

- تسليم دمياط للمسلمين كفداء عن لويس التاسع .
- أن يدفع لويس التاسع مبلغ ثمانمائة ألف بيزنط أى ما يعادل ٣٦٠ ألف جنيه مصرى، فداء للأسرى الصليبيين .
- إطلاق سراح جميع الأسرى المسلمين الموجودين فى أسر الصليبيين، وكذلك إطلاق سراح الأسرى الصليبيين .
- حراسة وحماية عتاد الصليبيين الموجودة بدمياط بعد رحيلهم عنها حتى يتسنى لهم نقلها الى البلاد المسيحية .
- أن يمنح المرضى المسيحيون وغيرهم ممن سيبقون فى دمياط الأمان حتى يبيعوا ما يمتلكون الى أن يرحلوا عن البلاد المصرية .
- عقد هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات ، واقسم الطرفان على احترام شروط الهدنة والمحافظة عليها وعدم الإخلال بها .

وبعد التصديق على الاتفاقية السابقة، دخل المسلمون دمياط ثانية ورفعوا عليها العلم المصرى، بعد أن ظلت فى أيدى الفرنج، أحد عشر شهراً وتسعة أيام. رحل لويس التاسع عن البلاد المصرية متخذا طريق الشام وقد ودعه شاعر البيت الايوبى ابن مطروح الذى تولى نظارة الجيش فى عهد الصالح أيوب بقصيدة جاء فى أبياتها :

اتيت مصر تبغى ملكها   تحسب أن الزمر ياطبل ريح

دار ابن لقمان على حالها   والقيد باق والطواشى صبيح

وهكذا فشلت الحملة الصليبية السابعة فى النيل من مصر .

مقتل تورانشاه ونهاية البيت الايوبى :-

وبعد وقوع لويس التاسع فى الأسر، أطمئن تورانشاه من ناحية الصليبيين، وأخذ فى تنظيم أمور الدولة، هذا فى الوقت الذى تزايدت فيه شوكة المماليك بعد انتصارهم على الصليبيين فى المنصورة ثم فى فارسكور، واعتقدوا أنهم أصحاب الفضل الأول فى إنقاذ البلاد من الخطر الصليبي، وراحوا يرددون منذ انتصارهم على لويس التاسع عبارة "نحن خلصنا مصر والشام بسيوفنا من أيدى الفرنج". وهكذا فى الوقت الذى أراد فيه تورانشاه أن يحس بأهميته ومكانته، إذا به يجد المماليك البحرية عقبة تعترض سلطانه المطلق، وحجر عثرة فى سبيل رغبته فى الاستئثار بالسلطة والنفوذ، لذلك لم يحسن تورانشاه معاملة المماليك كما أوصاه أبوه بذلك، بل اتخذ خطوات من بينها :-

أولا : التخلص من كل من خشى منافستهم له من أبناء البيت الايوبى، ومن هؤلاء الملك "المغيث عمر" الذى اخرجه من قلعة الجبل الى الشوبك حيث اعتقل .

ثانيا :قام تورانشاه بأبعاد كبار موظفى الدولة وامرائها الذين اعتمد عليهم أبوه الصالح نجم الدين أيوب، بأن عزلهم وأحل محلهم غيرهم وعلى رأس هؤلاء الأمير "حسام الدين بن أبى على الهذبانى " نائب السلطنة .

ثالثا : لم يحفظ تورانشاه الجميل لزوج أبيه شجر الدر، التى صانت له عرشه

وملكه بعد وفاة أبيه، وأرسل إليها يهددها ويتوعدها ويطالبها بما تركه أبوه من مال وجوهر، فتخوفت منه شجر الدر، وكتبت للمماليك بما فعله معها .

رابعا : لم يرع تورانشاه لطائفة المماليك البحرية الذين كان لهم شرف الجهاد ضد الصليبيين حقوقهم، وبدلا من أن يكافأهم على وقفتهم المشرفة معه، أبعدهم عن تولى المناصب، واستغنى عنهم، وولى بدلا منهم الأمراء الذين قدموا معه من الشرق، ولم يكتف تورانشاه بذلك بل بدأ يحقد عليهم، ويتمنى إزالتهم من طريقه، ومن ذلك ما فعله مع الأمير "فارس الدين اقطاى "الذى أحضره من حصن كيفا بعد أن وعده بأن يؤمره ويكافئه، غير أنه تنكر له ولم يف بوعده له. لذلك استاء المماليك من تورانشاه، ولم يكونوا فى حاجة إلى من يحرضهم عليه، خاصة بعد أن احتجب عنهم، وتنكر لهم، وانصرف الى الفساد، وعبث بهم. وأخيرا أدرك المماليك سوء ما يضمره لهم تورانشاه، عندما رأوه وهو سكران ذات ليلة، يجمع الشموع بين يديه، ويضرب رءوسها بالسيف واحدة بعد أخرى فيقطعها، وهو يردد "هكذا أفعل بالبحرية ويسمى مماليك أبيه بأسمائهم ".

لذلك استقر رأى المماليك على ضرورة التخلص من تورانشاه، فتقدم أحدهم وهو الأمير بيبرس البندقدارى، وضربه بالسيف أثناء جلوسه على السماط بفارسكور، فطار أحد أصابعه، فهرب تورانشاه الى البرج الخشبى الذى كان معدا له هناك، وهو يصيح "من جرحنى" فقالوا له "الحشيشية "، ولكنه رد عليهم قائلا : "لا والله ما فعلها الا البحرية، والله ما أبقيت منهم بقية " . وعندئذ أسرع المماليك بالهجوم على البرج، ولكن تورانشاه احتمى بأعلى البرج، وأغلق بابه والدم يسيل من يده، لذلك أشعل المماليك البحرية النيران فى البرج، وعندئذ اضطر تورانشاه إلى أن يلقى بنفسه فى ماء النيل، والبحرية تلاحقه بالنشاب حتى غرق، فمات "جريحا حريقا غريقا" على حد تعبير ابن واصل .

وبمقتل تورانشاه فى المحرم من عام ٦٤٨هـ/مايو ١٢٥٠م، ينتهى الحكم الأيوبي فى مصر، بعد أن استمر إحدى وثمانين سنة .

قيام دولة المماليك البحرية

نشأة نظام المماليك :-

نتناول فى البداية معنى كلمة مملوك،هى مشتقة من الفعل " ملك " بمعنى اشترى، ويجب أن نفرق بين كلمتى عبد ومملوك . فالعبد أسود اللون، يعمل كخدم فى القصور والمنازل أو فى الزراعة . أما المملوك فهو أبيض اللون، ويستخدم فى أغراض أخرى متنوعة من بينها أن يكون تابعا أو جنديا، فالمماليك يستخدمون كقوة حربية.

أما عن كيفية شراء المماليك، فقد كان تجار الرقيق أو تجار النخاسة يتولون القيام بهذه العملية، فكانوا يجلبون المماليك من أسرى الحروب التى دارت بين الاتراك والمغول على أثر خروجهم من منطقة الاستبس، هذا إلى جانب أن بعض الناس فى بلاد الترك باعوا أولادهم فى أسواق النخاسة، على أمل أن يصبحوا فى يوم ما سلاطين، خاصة بعد أن قامت دولة المماليك، وأصبح المماليك سلاطينا. وتجدر الاشارة الى أن تاجر المماليك كان يلقب ب "الخواجا " أو "تاجر الخاص" .

ومن الشروط التى يجب أن تتوافر فى المملوك عند الشراء، جمال الخلقة، وقوة الجسم، وحبه للفروسية، والموطن الذى جاء منه، فقد تنوعت البلاد التى جاء منها المماليك واختلفت اصولهم، فمنهم الاتراك ومنهم الجركس والصقالبة، والروم، والأسبان، والالمان وغيرهم، خاصة بعد أن نافس التجار الاوروبيون والايطاليون بصفة خاصة التجار الشرقيين فى جلب المماليك إلى مصر والشام.

وكان المملوك يسمى أكثر من اسم، فاحيانا ينسب إلى استاذه أى الشخص الذى اشتراه أو أشرف على تربيته، مثال ذلك بيبرس البندقدارى، نسبة إلى الأمير الذى اشتراه وهو علاء الدين البندقدارى، أو ينسب إلى الثمن الذى اشترى به، مثال ذلك قلاوون الالفى، الذى اشترى بألف دينار، وكذلك يشبك الالفى، وقانصوه الالفى، وأيضا قانصوه خمسمائة، وكذلك ينسب المملوك إلى اسم التاجر الذى جلبه، مثال ذلك المؤيد شيخ المحمودى نسبة الى الخواجا محمود شاه الرومى الذى جلبه،

واينال العلائى نسبة الى الخواجا علاء الدين، وبرقوق العثمانى، نسبة الى التاجر عثمان بن مسافر، كما ينسب المملوك إلى أصله سواء أن كان شركسى أو أرمنى أو يونانى وغير ذلك .

وهناك رسالة مشهورة تحمل عنوان "فى شراء الرقيق وتقليب العبيد " وهذه الرسالة توضح كيف كان يتم تحرى الدقة عند شراء المماليك، وليس أدل على ذلك من أن الملك المنصور صاحب حماه عندما اراد أن يشترى بيبرس قبل أن يشتريه الامير علاء الدين البندقدارى، عرضه على أمه هو ومملوك آخر، فاشارت عليه بالا يشترى بيبرس وأن يقدم على شراء زميله، وذلك لأن عين بيبرس كان بها حول، ويقال لان "الشرفيه لايح ".

مرحلة التدريب فى الطباق :-

بعد أن يتم شراء المماليك الصغار، يرسلهم السلطان الى " الطباق ". والطباق من كلمة طبقة أى معسكر أو مدرسة عسكرية، وكانت مساحتها كبيرة لدرجة أن بعض المؤرخين يذكر أن كل طبقة كانت مساحتها مساحة حارة من حارات القاهرة، وقد وصل عدد الطبقات فى عصر الناصر محمد بن قلاوون اثنتا عشرة طبقة. ويمر المملوك فى الطباق بمرحلتين : الأولى ويسمى خلالها ب "المملوك الكتابى" ويوضع كل مملوك خلال هذه المرحلة فى الطباق الذى يضم بنى جنسه، أى أن كل مجموعة من المماليك من جنس واحد ينزلون فى طباق واحد، وذلك لتسود بينهم الألفة والمودة، ولأنهم يشتركون فى عادات وتقاليد واحدة .ويحفظ المملوك خلال هذه المرحلة بعض آيات من القرآن الكريم، وتعاليم الاسلام من صلاة واذكار وغيرها من آداب الشريعة الاسلامية، كما يتعلم المملوك اللغة العربية قراءة وكتابة، خاصة وأن المماليك يجلبون من بلاد غير عربية . وفى سن الشباب يتعلم المملوك شيئا من الفقه، وتستمر هذه المرحلة إلى أن يصل المملوك الى سن البلوغ، فيكون قد تعلم القراءة والكتابة بالعربية، وحفظ القرآن والم بتعاليم الاسلام.

اما المرحلة الثانية فهى مرحلة التدريب العسكرى، ويتسلم خلالها كل طائفة

من المماليك "مدرب أو معلم " يقوم بتدريب المماليك وتعليمهم مختلف فنون الحرب والقتال من رمى بالسهام، وركوب للخيل، واستخدام الرمح، والضرب بالسيف وغيرها من فنون الحرب والنزال، ويتسم هذا التدريب بالقسوة والعنف، ويستغرق وقتا طويلا. ويبدأ المعلم اولا بتدريب المملوك على كيفية ركوب الخيل، فيأتى له بفرس من الخشب أو من الحجر، ويدربه على كيفية صعوده ومعه سلاحه، ثم يدربه على فرس حقيقى، وتستمر عملية التدريب إلى أن يستطيع المملوك أن يضع قدمه فى الركاب، ويحارب على ظهر الجواد بدون سرج. ثم يتدرب المملوك بعد ذلك على عملية استخدام الرمح والتدريب على البرجاس. والبرجاس هدف خشبى بارتفاع الفرس، ويتكون من سبعة أقسام، وعلى قمة هذا الهدف حلقة معدنية مثبتة فى قطعة من الخشب، وكان الفارس يأتى على ظهر فرسه على مقربة من البرجاس لكى يدخل رأس رمحه فى تلك الحلقة المعدنية، فاذا نجح سقطت تلك الحلقة المثبتة بقطعة الخشب على الارض، واذا فشل سقط رمحه على الأرض .

ثم يدرب المعلم المملوك على كيفية الرمى بالنشاب أى القوس، وتستغرق هذه العملية وقتا طويلا لتعدد أنواع الاقواس، اذ بلغ عددها سبعة عشر نوعا، ويبدأ بالقوس الخفيف وينتهى بالقوس الذى يستخدم فى ميدان القتال، ويتعلم المملوك كذلك كيف يصيب الهدف، ثم يأخذ المعلم المماليك إلى الصحراء وأماكن الخلاء حتى يتدربوا على رمى النشاب .

ثم يتولى المعلم تدريب المماليك على الضرب بالسيف، فيأتى بمنضدة من الطين يتدرب الفارس من خلالها على كيفية مسك السيف والطعن به فى الطين فى كل يوم، ويستمر هذا التدريب الى أن يصل المملوك إلى حد البراعة فى الضرب بالسيف، والتحكم فيه وفى نوع الضربة التى يريدها، أيريد أن يقتل خصمه، أم يريد أن يجرحه وما مدى عمق الجرح الذى يريده . ويبدأ المملوك بعد ذلك فى الخروج من المعسكر أى الطباق لكى يتدرب فيما يسمى بأسم الميدان أو الملعب، وفيه يتدرب المماليك على طريقة الدخول فى المعركة والخروج منها، والهجوم والانسحاب وغيرهما من العمليات العسكرية. وكان على المملوك فى هذه المرحلة

أن يثبت مهارته وكفاءته وقدرته العسكرية حتى يترقى من رتبة الى أخرى الى أن يصبح فارس من الطراز الأول، ثم أميرا من الأمراء .

وتجدر الاشارة إلى أنه خلال فترة التدريب فى الطباق كان لا يسمح للمملوك بمغادرة الطباق الا مع جماعة، ومرة واحدة فى الأسبوع وذلك للنزول الى الحمام. وكان سلاطين المماليك يهدفون من وراء ذلك الى منع احتكاك المماليك بعامة الشعب والاندماج فى طبقات المجتمع المختلفة، وحتى يتم الاحتفاظ بعاداتهم وتقاليدهم ونظمهم . كذلك كان المماليك يخضعون خلال فترة التدريب لاشراف دقيق من قبل المؤدبين والمعلمين فاذا اقترف أحد المماليك ذنب أو أخل بنظام أو ترك فرضا من فروض الدين تتم معاقبته .

وبعد أن تتم مراحل تدريب المملوك فى الطباق والميدان، يمنحه السلطان حريته وقطعة من الأرض كاقطاع يتعايش منه، ويعطيه شهادة أو براءة تسمى (عتاقة) يصبح بمقتضاها حرا، وأن كانت علاقته بأستاذه أى الشخص الذى اشتراه، وبزملائه فى الطباق لا تنقطع، وتظل كما هى لا تتغير. وعلى هذا فهناك رابطتين تربط المماليك بعضهم ببعض وهما :-

الاولى: رابطة الأستاذية وهى تلك الرابطة التى تربط المملوك باستاذه أى من اشتراه ورباه واعتقه.

الثانية: رابطة الخشداشية أى رابطة الزمالة، وخشداش لفظ فارسى يعنى خواجا تاش أى الزميل فى الرق وفى العتق.

وطالما ظلت دولة المماليك محافظة على هذا النظام، وهو شراء المماليك الصغار وتدريبهم فى الطباق لتخلق منهم فرسان مهرة تربطهم رابطة الاستاذية بالشخص الذى اشتراهم ورباهم وعلمهم فى الطباق، كذلك رابطة الخشداشية بزملائهم فى الطباق – طالما ظلت محافظة على قوتها، واستطاعت أن تهزم جحافل المغول فى عين جالوت، وتطرد اخر البقايا الصليبية من بلاد الشام ومن عكا تحديدا. ولكن عندما تخلت دولة المماليك عن هذا النظام، واتبعت نظاما اخر وهو شراء المماليك وهم كبار فى السن، وزجت بهم فى الحروب دون خبرة أو دراية أو دراسة لفنون الحرب والقتال والجهاد، كان من المتوقع لهذه الدولة الانهيار .

جذور نظام المماليك :-

لم يكن المماليك عنصرا جديدا ظهر اول ما ظهر فى العصر الأيوبى، بل يرجع ظهور المماليك إلى عصور سابقة فى تاريخ مصر، فقد شاع استخدام المماليك فى مصر فى العصر الطولونى، بل أن "طولون" والد أحمد بن طولون (٢٥٤-٢٩٢هـ/٨٦٨-٩٠٥م) مؤسس الدولة الطولونية فى مصر كان مملوكا تركيا، اهداه عامل بخارى نوح بن أسد السامانى إلى الخليفة العباسى المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م) فى عام ٢٠٠هـ/٨١٥م . ولذلك أكثر احمد بن طولون من المماليك بمصر عندما استقل بها عن الخلافة العباسية سواء أن كانوا من الترك أم من الديلم أم من السودان. واعتمد أحمد بن طولون على هؤلاء المماليك فى تدعيم استقلاله والحفاظ على دولته، وبلغ عدد مماليكه من الأتراك أربع وعشرين الف مملوك. وقد سار على سياسته هذه من خلفه فى حكم الدولة الطولونية. كذلك اعتمد محمد بن طغج الاخشيد على عدد وافر من المماليك الاتراك عند تأسيس دولته بمصر فى عام ٣٢٣هـ/٩٣٥م وقد بلغ عددهم فى عهده نحو ثمانية آلاف .

وتدعيما لسياسة الطولونيين والأخشيديين فى الاعتماد على المماليك، اعتمد الفاطميون - الذين حلوا محل الاخشيديين فى حكم مصر منذ عام ٣٥٨هـ/٩٦٩م- اعتمادا كبيرا على خليط من العناصر، فاعتمدوا فى بداية الأمر على المغاربة ثم الروم والصقالبة، كذلك اعتمدوا على السودان والأرمن بالاضافة إلى الأتراك والأكراد .

ومع قيام الدولة الأيوبية فى مصرفى عام ٥٦٧هـ/١١٧١م ازداد الاعتماد على الجند المماليك، فلقد حرص صلاح الدين منذ البداية على إعداد جيش قوى، واعتمد فى تكوينه على عناصر من المماليك الأكراد والأتراك وغيرهم، وقد ساعده فى تكوين هذا الجيش الضخم تلك الأموال والمجوهرات التى حصل عليها من خزائن الفاطميين . وتشير المصادر إلى أن صلاح الدين أحدث تغييرا فى نوعية المماليك بمصر، حيث أزال العبيد والسود والأرمن من الجيش، وأحل محلهم

الاكراد والاتراك. وأهتم صلاح الدين إهتماما كبيرا بمماليكه، فكانوا كما ذكر معاصروه بمثابة أولاده وأخواته فى مقامه، وقد سار صلاح الدين على نفس سياسة نور الدين محمود فى اقطاع أمراءه ومماليكه الأراضى .

واكثر الايوبيون من المماليك بعد وفاة صلاح الدين ٥٨٩هـ/١١٩٣م وذلك لاسباب من بينها :-اولا : أن الدولة الأيوبية قامت فى المقام الأول على أساس حربى، اذ ولدت فى قمة الجهاد ضد الصليبيين، ولذلك كان طبيعيا أن يسعى حكامها إلى اقتناء أكبر عدد من المماليك .

ثانيا :-النزاع بين ورثة صلاح الدين، أى بين أولاده وأخوته، وما ترتب على هذا النزاع من انقسام الدولة الايوبية، وقيام إمارات هامة فى دمشق ومصر والكرك وحلب والجزيرة وغيرها، يحكمها بعض أبناء البيت الأيوبى، وكان لابد لكل امارة من هذه الامارات أن يكون لديها قوة عسكرية تعتمد عليها فى الاحتفاظ بامارتها، وتحقق بواسطتها أطماعها وأهدافها. وتمثلت هذه القوة فى المماليك، ولذلك أكثر الايوبيون من شراء المماليك، وظهرت عدة فرق من المماليك ارتبطت اسماؤها بأسماء أبناء البيت الايوبى، فظهرت العزيزية، والعادلية، والكاملية، ويلاحظ أيضا أن الاعتماد الكبير كان على المماليك الأتراك والأكراد .

وقد لعب المماليك دورا هاما فى الأحداث فى العصر الأيوبى، ويظهر ذلك بجلاء بعد وفاة العزيز عثمان، سلطان مصر، وتطلع عمه العادل إلى الاستيلاء على العرش، خشى المماليك الأسدية والصلاحية فى مصر من سطوة العادل، فتدخلوا فورا، واستدعوا الملك الأفضل من صرخد، وسلموه مقاليد الأمور فى مصر. كذلك يظهر دور المماليك فى تلك المؤامرة التى دبروها لخلع العادل الثانى، ابن الكامل، واحلال أخيه الصالح نجم الدين أيوب محله على عرش السلطنة، ولم ينس الصالح لهم هذا الفضل، وادرك أهميتهم فى توطيد سلطانه والاحتفاظ بملكه .

وما أن تولى الصالح أيوب عرش السلطنة فى عام ٦٣٧هـ/١٢٤٠م حتى قام بتطهير الجيش الأيوبى من العناصر المتمردة، وذلك بالتخلص من سائر المماليك الموجودين بالدولة سواء أن كانوا أشرفية أم كاملية بالقتل والسجن، خاصة بعد

خيانتهم له، ومحاولتهم التخلص منه . وبعد أن غدر به الأكراد والخوارزمية وغيرهم من الطوائف الاخرى، وتخلوا عنه فى وقت الشدة. وبدأ الصالح يكثر من شراء المماليك وخاصة من الأتراك، حتى "جمع من المماليك الترك ما لم يجمع غيره من أهل بيته، وحتى أصبح معظم امراء قواته من مماليكه "، وعمل على تكوين فرقة جديدة منهم، ترتبط به، وينتمى أفرادها اليه، وتدين له بالطاعة والولاء والتبعية، واتخذ منهم حرسا خاصا له، وأسكنهم معه فى قلعة الروضة دون طوائف المماليك الأخرى .

وأهتم الملك الصالح أيوب بمماليكه اهتماما كبيرا، وكان يسبغ عليهم من مظاهر عطفه ورعايته بمقدار ما يتقدمون فى تدريبهم، وعلى مقدار ولائهم له، ومنحهم الكثير من الاقطاعات، فيذكر ابن واصل "وصار كلما قطع خبز (اقطاع) أمير اعطاه لمملوك من مماليكه، وقدمه حتى صار معظم أمراء الدولة من مماليكه، لثقته بهم لاعتماده عليهم، واذا مات أحد مماليكه وكان له ولد أنعم باقطاع والده عليه، وان لم يكن له ولد، أنعم به على خشداشه". وبلغ من اهتمام الصالح بمماليكه ايضا أنه لم ينس أن يوصى ابنه تورانشاه بهم اذ قال له فى وصيته "وتوصى بالمماليك غاية الوصية، فهم الذين كنت اعتمد عليهم، واثق بهم، وهم ظهرى وساعدى، فتلطف بهم ...وتوعدهم بكل خير، فتكرمهم وتحفظ جانبهم، فهذه وصيتى اليك، فاعمل بما فيها ولا تخالف وصيتى " . ولذلك أصبحت فرقة المماليك سندا قويا للصالح أيوب، حرسوا ملكه، وذادوا عنه، وثبتوا دعائمه. وجرى سلاطين المماليك على هذه السنة اذ حرص كل سلطان على جعل الأمراء من مشترواته ليضمن ولاءهم له والمحافظة على ملكه .

واشتهر مماليك الصالح باسم " المماليك البحرية "وعن سبب تسميتهم بهذا الاسم يذكر المقريزى أنهم عرفوا بالبحرية "لسكناهم فى قلعة الروضة على بحر النيل " .وهناك رأى أخر يقول انهم عرفوا بالبحرية لانهم كانوا يجلبون عن طريق البحر صحبة تجار الرقيق أى أنهم جاءوا من وراء البحار، إذ جاء فى رواية جوانفيل وهو معاصر للصالح نجم الدين أيوب وحارب المماليك البحرية الصالحية

أنهم يسمون "بحرية" أو "رجال ما وراء البحر"، فقد كان معظمهم من الاتراك المجلوبين من بلاد القفجاق شمال البحر الاسود أو من بلاد القوقاز قرب بحر قزوين. ومن ثم فقد جاء المماليك إلى مصر عبر البحر الأسود ثم بحر القرم (قزوين) ومنه إلى البحر المتوسط حيث يسيرون فى ميناء الإسكندرية أو دمياط مما يؤكد صحة رأى جونفيل. وهناك رأى ثالث حول تسمية المماليك بالبحرية وهوان أسم البحرية يعنى "الحرسية السلطانية "باعتبارهم حرس السلطان، واطلق عليهم هذا الاسم تمييزا لهم عن بقية طوائف المماليك الأخرى، وأنه كان لدى السلطان الكامل أبو الصالح أيوب طائفة من المماليك تسمى "البحرية العادلية "نسبة الى السلطان العادل، وعلى ذلك فأن لفظ البحرية بمعنى الحرسية السلطانية لم يكن جديدا فى عهد الصالح نجم الدين أيوب . بل أن مؤرخى الحروب الصليبية من المسلمين يشيرون فى كتبهم إلى وجود فرق من جند الصليبيين الوافدة من أوربا تحتل اسم "البحرية" واطلقوا عليها اسم "الفرنجة البحرية".

وكان الصالح أيوب أول سلطان اهتم بتربية مماليكه تربية عسكرية ودينية منذ الصغر، فمعظم المماليك الذين سبق الاستعانة بهم قبل عهد الصالح كانوا من المحاربين كبار السن، الذين اتقنوا فن الحرب واللعب بالسيف، وعركوا المعارك، وباعوا أنفسهم لمن يدفع الثمن، وممن يمكن أن نطلق عليهم كلمة " المرتزقة "، ولكن مماليك الصالح أيوب كانوا من صغار السن، وأقام لهم الصالح فى جزيرة الروضة نظاما لحياتهم، يتضمن تربيتهم دينيا وعسكريا وحربيا، وهو ذلك النظام الذى سبق ان تحدثنا عنه .

سلطنة شجر الدر (٦٤٨هـ/١٢٥٠م):

لم يعد بعد وفاة تورانشاه بن الصالح أيوب أحد من كبار البيت الأيوبى سوى الناصر يوسف، ولذلك قاربت أيام البيت الايوبى على الانتهاء، وأصبح المماليك هم أصحاب السلطة الفعلية فى البلاد بحكم كونهم أصحاب القوة فى ذلك الوقت، ويتضح ذلك من تصريفهم الأمور عقب مقتل تورانشاه، وحثهم الناس على مباشرة اعمالهم، فيذكر أبو شامة انهم نادوا فى الناس " لابأس الناس على ما هم عليه، إنما كانت حاجة قضيناها " .ولم يسع الناس الا أن سمعوا وأطاعوا، وذهب كل إلى

عمله .

وكان على المماليك أن يختاروا من يتولى حكمهم، ولكن لم يكن فى استطاعتهم فى ذلك الوقت أن يولوا واحدا منهم منصب السلطنة، خاصة وأنه لم يكن قد برز فى ذلك الحين من بين المماليك شخصية يمكن أن تتفرد بالحكم دون غيرها من المماليك، فمعظم كبار المماليك ينظرون إلى بعضهم البعض نظرة زمالة، فهم جميعا "خشداشية "أى زملاء فى الرق والعتق، وهم جميعا سواء، وحتى يظهر الاول بين المتساويين، قرر المماليك تولية "شجر الدر" زوج استاذهم الصالح أيوب، وأم ولده خليل، منصب السلطنة، وذلك فى ١٠صفر من عام ٦٤٨هـ /١٠من مايو ١٢٥٠م. كما أتفق المماليك على أن يكون الأمير "عز الدين أيبك التركمانى" أتابك للعساكر.

والحقيقة أن هناك أسبابا دعت المماليك الى اختيار شجر الدر لمنصب السلطنة من بينها :-

-أنها - كما سبق ان ذكرنا - كانت زوج أستاذهم الملك الصالح نجم الدين أيوب .

- ما تمتعت به شجر الدر من رجاحة عقل، وحسن تدبير، لدرجة أن البعض وصفها بأنها كانت أحسن تدبيرا من زوجها الصالح أيوب، وقد ظهر ذلك بجلاء من تصرفها على أثر وفاة زوجها الصالح أيوب فى المنصورة، كما سبق أن ذكرنا.

- أن شجر الدر كانت تعتبر من ناحية الاصل والنشأة أقرب إلى المماليك، فهى جارية تركية، وقيل أرمينية، اشتراها الصالح أيوب، أو اهداها له الخليفة العباسى المستعصم . لذلك كان هناك نوع من التعاطف بينها وبين بقية المماليك. وهذا ما دعى كثير من الباحثين والمؤرخين إلى أعتبارها أول من حكم مصر من المماليك .

حكمت شجر الدر مصر ثمانين يوما، وقيل ثلاثة أشهر الا قليلاً، أثبتت خلالها جدارة لا مثيل لها، اذ استطاعت أن تقف فى وجه تيار المماليك المتحمس، كما استطاعت انهاء مشكلة الصليبيين فتشير وثائق الجنيزة إلى براعة هذه السيدة فى تصريف الأمور، وليس أدل على ذلك من أن المماليك كانوا يأتون إليها

ويستشيرونها فى الأمور المتعلقة بهم .ولكن لم يكن فى استطاعتهم مقابلتها، بل كانوا يتحدثون إليها من تحت الشباك.

أما عن مشكلة الصليبيين، فكانت أولى المشاكل التى واجهت شجر الدر، بعد توليها السلطنة، فالصليبيون لايزالون يحتلون دمياط، ولويس التاسع لازال أسيرا فى دار ابن لقمان بالمنصورة، وهذا يعنى أن خطر الصليبيين على مصر مازال قائما، وقد تأتى حملة من الغرب لمساعدة الصليبيين فى دمياط فى الاستيلاء على مصر، لذلك بدأت شجر الدر تفكر فى وسيلة لاستعادة دمياط أولا قبل الشروع فى أى عمل أخر داخل البلاد أوخارجها، ولذلك أرسلت الأمير "حسام الدين بن أبى على الهذبانى" الذى عرف عنه رجاحة العقل، وحسن المشورة، لمفاوضة لويس التاسع . ويشير المقريزى الى أنه جرى بينه وبين لويس مفاوضات ومحاورات ومراجعات الى ان وقع الاتفاق، الذى اطلق بمقتضاه سراح لويس التاسع مقابل تسليم دمياط، وعدم العودة لمهاجمة البلاد مرة اخرى، لأن لويس كان يرى أنه ليس من اللياقة أن يقايض عن نفسه بالمال، كذلك تم اطلاق سراح الأسرى الصليبيين مقابل مبلغ من المال .

وتم تنفيذ بنود الاتفاق بالفعل، فجلى الصليبيون عن دمياط، واطلق سراح لويس التاسع، وشرع الصليبيون فى دفع المبالغ المطلوبة منهم، خاصة بعد أن قامت مرجريت زوجة لويس التاسع، وكانت فى دمياط - بجمع نصف الفدية المتفق عليها. وبذلك نجحت شجر الدر فى إنقاذ البلاد من الخطر الصليبى ممثلا فى حملة لويس التاسع على مصر .

أما عن المشكلة الثانية التى كان على شجر الدر مواجهتها فقد جاءت من جانب الايوبيين فى الشام، فقد ثارت ثائرة الايوبيين فى بلاد الشام بعد أن سمعوا بمقتل تورانشاه، وتولى شجر الدر منصب السلطنة، واعتبروا ذلك نهاية لحكم الأيوبيين، وبداية لحكم المماليك فى مصر، لذلك رفضوا أن يعلنوا خضوعهم وولائهم لشجر الدر، فعندما أرسل المماليك إلى "جمال الدين بن يغمور " نائب دمشق، الذى عينه تورانشاه -لاستحلاف الأمراء لها، رفض جمال الدين الحلف

لشجر الدر، وأخذ فى مماطلة رسول المماليك .

ولم يكتف الأيوبيون برفضهم إعلان الولاء لشجر الدر والأعتراف بقيام دولة المماليك فى مصر بل أرسلوا إلى الملك الناصر يوسف صاحب حلب (٦٣٤-٦٥٨/١٢٣٦-١٢٦٠م) وأخبروه بموقفهم المعارض للمماليك، ورفضهم مبايعة شجر الدر، وطلبوا منه الحضور الى دمشق ليملكها، وبالفعل بادر الناصر يوسف بالذهاب الى دمشق، وتسلمها وقبض على بعض المماليك الصالحية وسجنهم. ولم تقف تطلعات الناصر يوسف عند ذلك الحد، وأنما تعداها إلى الاستيلاء على القلاع المجاورة لدمشق، مثل بعلبك وبصرى وصرخد وغيرها حتى وصلت جيوشه إلى غزة .

وهكذا ترتب على سلطنة شجر الدر أن بدأ الايوبيون فى بلاد الشام يشعلون نار الثورة ضد سلطنة المماليك الوليدة، بل وسرعان ما اتحدوا وتحالفوا للوقوف فى وجه المماليك فى مصر، وأكثر من ذلك سعوا الى غزو مصر فى محاولة منهم لاستردادها من أيديهم. هذا الى جانب أن الايوبيين استقلوا بحكم الشام، فانفصمت بذلك عرى الوحدة بينها وبين مصر .

وكان على شجر الدر أن تواجه مشكلة ثالثة من جانب الخلافة العباسية فى بغداد وتتلخص فى أنه كيف تستطيع سيدة أن تحكم العالم الاسلامى، حقيقة أن هناك سيدات كثيرات لعبن دورا هاما وخطيرا فى الحكم، مثل " ست الملك "أخت الخليفة الحاكم بامر الله الفاطمى (٣٨٦-٤١١هـ/٩٩٦-١٠٢٠م)، التى تولت الوصاية على ابن اخيها، وسيرت شئون البلاد وغيرها، ولكن أن تتولى سيدة منصب السلطنة فى العالم الاسلامى، فهذا أمر غريب، اذ كيف لسيدة أن تقابل السفراء، وكيف تمتطى جوادا، وتخرج على رأس الجيش الى ميدان الحرب والقتال، لتخوض غمار معركة من المعارك ؟ . لهذا لم ترض الخلافة العباسية عن تولى شجر الدر عرش السلطنة وهى امرأة، وأرسل الخليفة العباسى المستعصم من بغداد إلى القائمين على شئون مصر يقول لهم : "أن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا نسير اليكم رجلا ". وهكذا رفضت الخلافة العباسية الأعتراف بحكم شجر الدر مما

يترتب عليه إضعاف حكم المماليك فى مصر.

ويبدو أن شجر الدر كانت تشعر بحرج موقفها هذا، وبوضعها الغريب، مما جعلها تسرف فى التقرب الى أهل البلاد، وتمنحهم الاقطاعات والرتب والمناصب، الى جانب أنها خفضت الضرائب عن الشعب لتستميل قلوب رعيتها .كذلك حرصت شجر الدر على الا يبرز اسمها مكشوفا، لان أسم المرأة فى ذلك الحين كان عورة مثله مثل جسدها .لذلك كانت المراسيم والمناشير تصدر من القلعة وعليها علامتها "والدة خليل "، وكان الخطباء يخطبون لها على المنابر، ويدعون لها بعد الخليفة، ويقولون : "اللهم احفظ الجهة الصالحة، ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، أم خليل، المستعصمية، صاحبة السلطان الملك الصالح " .كما أن بعض الخطباء كان يقول : "اللهم أدم سلطان الستر الرفيع، والحجاب المنيع، ملكة المسلمين، والدة الملك خليل " .أما عن نقشها على السكة فكان "السيدة المصون المستعصمية، الصالحية، ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين " .

يتضح مما سبق حرص شجر الدر على التمسك بلقب "أم أو والدة خليل الصالحية "وذلك لتظهر صلتها القوية بالبيت الأيوبى، عن طريق زوجها الصالح نجم الدين أيوب، وابنها منه المنصور خليل، وأن كان الأخير قد مات صغيرا. كذلك حرصت شجر الدر على أن تقرن اسمها باسم الخليفة العباسى المستعصم فلقبت نفسها بالمستعصمية، وذلك تقربا منها إلى الخلافة العباسية حتى تنال رضاها. وقيل أيضاً لأنها كانت جارية للخليفة العباسى المستعصم قبل أن يشتريها الصالح أيوب، أو يهديها له المستعصم. وهكذا بذلت شجر الدر ما وسعها الجهد من أجل أن تضفى على سلطتها صفة الشرعية، وتجعل المعاصرين يصرفون النظر عن الحقيقة الهامة وهى أن مقاليد الحكم فى مصر غدت فى يد امرأة .

وعلى الرغم مما بذلته شجر الدر من جهود خلال سلطنتها الا أن مظاهر الكره أحاطت بحكمها فى الداخل والخارج على حد سواء، لذلك اضطرت شجرة

الدر الى خلع نفسها من حكم مصر، وقبول الزواج من الأمير عز الدين ايبك، اتابك العساكر، الذى اتفق المماليك على توليته السلطنة، ولقبوه بالملك المعز فى يوم السبت آخر ربيع الاخر عام ٦٤٨ /٢يوليو ١٢٥٠م وضربت السكة بأسمه، ودعى له على المنابر.

٢) سلطنة المعز أيبك (٦٤٨-٦٥٥ هـ/١٢٥٠-١٢٥٧م) :-

كان المعز أيبك أحد مماليك الصالح نجم الدين أيوب، وأخذ يترقى فى خدمة الصالح حتى وصل إلى مرتبة الامير، وتولى أيبك وظيفة الجاشنكير فى بلاط السلطان، وهو الشخص الذى يقوم بتذوق الطعام والشراب قبل السلطان خوفا من أن يدس فيه سم أو نحو ذلك، ولهذا كان رنك (شعار)أيبك عندئذ صورة خونجه أو خونجا، وهى مائدة صغيرة، ليتناسب مع وظيفته . واستمر أيبك فى خدمة أستاذه الصالح أيوب حتى توفى الأخير، ثم عين أيبك أتابكا للعساكر أى قائدا عاما للجيش، فى سلطنة شجر الدر ,وكان أيبك أول من شغل هذه الوظيفة بدلالتها الجديدة، التى عرفتها فى بداية عصر سلاطين المماليك، وهى القائد الأعلى للجيش، لذلك أطلقت عليه بعض المصادر "مقدم العساكر " وأخرى "اتابك الجيوش". وقد مهدت هذه الوظيفة الطريق أمام أيبك لتولى عرش السلطنة.

وفى ٢٩ربيع الآخر عام ٦٤٨هـ / يوليو ١٢٥٠م، اضطرت شجر الدر أن تخلع نفسها من العرش، بعد ان أحاطت بها مظاهر الكره من كل جانب كما سبق أن ذكرنا، وأشار عليها القاضى ابن بنت الأعز أن تتزوج من أيبك، فأذعنت، وبايع القاضى أيبك بالسلطنة، وتلقب بالملك المعز، وركب بشعار السلطنة -أى أنواع الملابس والزينات والترتيبات التى يظهر بها السلطان فى المواكب - وجلس على سرير الملك، وخطب له على المنابر .أما عن أسباب اختيار أيبك لمنصب السلطنة فكانت :-

١-ان أيبك كان من أواسط الأمراء وليس من كبار الأمراء وأعيانهم، ولم يكن قويا الى درجة يخشى معها المماليك بقاء نفوذهم، ولا ضعيفاً لدرجة ضياع نفوذ المماليك فى مصر نهائيا.

٢-كان أيبك لا يتمتع بشخصية قوية، وظن البعض أنه سهل، لين الجانب، ولذا تصور المماليك أن نفوذهم وسلطانهم سيظل قائما مع وجوده، وأنه فى إمكانهم أن يعزلوه عن الحكم فى أى وقت يشاءون . وقالوا : "هذا متى اردنا صرفه أمكننا" . وكان هذا السبب كذلك هو الذى دفع شجر الدر للموافقة على الزواج منه، لأنه يسهل قياده والسيطرة عليه، وكان أيبك فى بداية الأمر كما توقعت شجر الدر، فيذكر ابن تغرى بردى أن شجر الدر كانت " مستولية على أيبك فى جميع أحواله ليس له معها كلام ".

ولكن سرعان ما أثبتت الأحداث عكس ذلك، فقد اتصف أيبك بالسداد فى الرأى، والشجاعة، والكرم، وسعة الصدر، والعقل والسياسة، كما كان طاهرا، عفيفا، حسن التدبير، ملازم للصلاة، معرضا عن شرب الخمر، كما تصفه المصادر.

وكان على أيبك بعد توليه العرش أن يواجه عدة مشكلات، اقلقته وهددت سلطانه خلال فترة توليه الحكم، وتتمثل هذه المشكلات فى : -

أولا : المماليك البحرية :-

عز على المماليك البحرية أن يتولى أيبك عرش السلطنة وهو ليس منهم، فهو من المماليك الصالحية، لذلك ثاروا بعد اعلان أيبك سلطان، اذ كانوا يطمعون فى الاستئثار بالسلطة لأنفسهم . وكان على أيبك أن يواجه عدة شخصيات من المماليك البحرية، يأتى على رأسها "فارس الدين اقطاى الجمدار "مقدمهم، وقلاوون، وبيبرس، اذ كان هؤلاء اخطر المماليك البحرية .فلم يمانع هؤلاء في أن يلي أيبك عرش السلطنة لاعتقادهم فى ضعفه، وأنه من السهولة بمكان إزالته من العرش، ولكن على عكس ما توقعوا، ظهر أيبك فى صورة الرجل القوى القادر على مواجهة المشكلات التى قابلته بقوة وعزم على حلها.

وكان اقطاى مقدم البحرية وزعيمهم من أخطر الشخصيات التى واجهت

أيبك، لذلك اقطعه أيبك ثغر الإسكندرية، ولكنه لم يفلح فى الحد من شره أو من شو المماليك، بل تزايد نفوذ اقطاى وسلطانه وسطوته، حتى فاق نفوذ أيبك وسلطانه وسطوته كذلك، فبالغ اقطاى فى احتقار السلطان أيبك، فكان لا يسميه الا أيبكا، كذلك انتحل اقطاى لنفسه بعض الشعائر الخاصة بالسلطان وحده فى مجالسه ومواكبه، وخص بها نفسه، بل ان اصحاب اقطاى سموه "الملك الجواد"، وذهب اقطاى أبعد من ذلك اذ تزوج من أحدى أميرات البيت الأيوبى وهى أبنة الملك المظفر تقى الدين محمود صاحب حماه، وطلب من أيبك أن يسكنها القلعة لانها من بنات الملوك، ولا يليق سكناها بالبلد، وكان هذا يعنى ان اقطاى يطمع فى الحكم، لأن القلعة هى مقر الحكم، هذا فضلا عن أن زواج اقطاى من احدى اميرات البيت الأيوبى فى الشام يجعل له سندا شرعيا فى الحكم.

وقويت شوكة اقطاى، وطلب من أيبك أموالا يوزعها على المماليك، فرفض أيبك، فقرر البحرية الخلاص منه، وعندما احس أيبك بنية البحرية، ووجد أن زعيمهم "طغى وتجبر وبغى وتكبر" على حد تعبير المصادر فقرر الخلاص من اقطاى بالقتل، واستدعاه ظهرا بحجة أولا ان يستشيره فى أمر من الامور الهامة، اذ يذكر ابن عبد الظاهر : "أنه طلبه لمهم قد اتفق، ورأى يستشيره فيه". **وثانيا** ليأتى معه الى الخزانة، ويتأكد بنفسه من أنها خاوية. وهناك كمن له أيبك، هاجمه اتباعه، وأجهزوا عليه، ثم ألقى أيبك برأس اقطاى من القلعة للمماليك البحرية الذين تجمعوا اسفل أسوار القلعة، وكان عددهم سبعمائة فارس من البحرية وفى طليعتهم بيبرس وقلاوون وسنقر الاشقر .(٦٥٢هـ/١٢٥٤م). وعندئذ خاف المماليك البحرية من أن يكون هذا مصيرهم، فحاولوا الفرار إلى الشام، غير أن أيبك حال بينهم وبين الفرار بأن اغلق جميع أبواب القاهرة، ولكنهم احرقوا أحداها، وهو باب القراطين، وهم الذين يبيعون القرط (البرسيم)، وفر المماليك البحرية إلى بلاد الشام، ودخلوا فى خدمة الأيوبيين هناك، وعرف هذا الباب من يومها بالباب "المحروق".

وهكذا نجح أيبك فى التخلص من خطر المماليك البحرية، وقبض على من تبقى منهم فى القاهرة، فقتل منهم من قتل، وسجن من سجن، وصادر أموالهم وممتلكاتهم وأتباعهم ونساءهم. وحتى يتأكد من عدم اختفاء بعض المماليك البحرية بداخل البلاد، أمر المعز ايبك بالنداء فى القاهرة ومصر "بتهديد من أخفى أحد البحرية" بل وأرسل إلى ملوك الايوبيين بالشام يحذرهم من البحرية وغدرهم. ولكنهم لم يستمعوا إليه والحقوهم بخدمتهم.

ثانيا : الايوبيون في الشام :-

ما أن علم ملوك الأيوبيين في الشام بسلطنة أيبك حتى قاموا بثورة، وجمعوا قواتهم وقرروا غزو مصر، والهجوم على دولة المماليك الناشئة .عندئذ لجأ المماليك الى العوبة يتحايلون بها على الأيوبيين؛ فأتوا بطفل صغير من أبناء البيت الايوبى اسمه الاشرف موسى، حفيد الكامل محمد وكان عمره عشر سنوات، وقيل ست سنوات، وأقاموه سلطانا على العرش مشاركا لأيبك، وقبل أيبك أن يشاركه العرش هذا الطفل الصغير، ليسكن ويهدأ من روع الأيوبيين. وصارت المراسيم تخرج بأسم الملكيين الشريكين الاشرف موسى والمعز أيبك، وصورتها : "رسم بالأمر العالى المولوى السلطانى الملكى الاشرفى والملكى المعزى". وضربت السكة على الدنانير والدراهم باسمهما، الا أن الأشرف موسى لم يكن له من السلطنة الا اسمها، وكانت جميع الأمور بيد أيبك.

ولم تدخل هذه الحيلة على الأيوبيين، لأنهم يعتبرون مصر جزءاً من ملكهم الموروث بل أعظم أجزائه، ويعتبرون محاولة المماليك اغتصابها نوعاً من العقوق والخروج يجب معاقبتهم عليه، لذلك جمعوا قواتهم بقيادة الناصر يوسف، صاحب دمشق، وقرروا الزحف على مصر، وقتال المماليك والقضاء عليهم. وعندما علم أيبك بذلك " فت الخبر فى عضده، وخاف انصرام الامر من يده". ولكنه واجه هذه الأزمة بشجاعة متخذاً الإجراءات التالية:-

(١) قام بالقبض على بعض أمراء المماليك ممن يميلون الى جانب الايوبيين.

(٢) أعلن الولاء للخليفة العباسى المستعصم، وأنه ليس الا نائبا عنه فى حكم مصر.

(٣) قام أيبك بإطلاق سراح بقية الأسرى الصليبيين، ليأمن شر لويس التاسع الذى كان لايزال فى عكا يراقب الموقف بين المماليك والأيوبيين دون أن يسعى للانضمام الى جبهة دون أخرى حتى يرى ما تسفر عنه الإحداث. وكذلك مقابل أنت يتعهد الملك لويس بالتعاون مع ايبك على منع الناصر يوسف صاحب حلب من التقدم نحو مصر والإغارة عليها.

(٤) أمر أيبك بهدم حصون دمياط حتى لا يتخذها الصليبيون قاعدة لهم للهجوم على داخل البلاد.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه عندما أغار الأيوبيون على مصر، نسى المماليك عصبيتهم، وكانت قوتهم الرئيسية تتألف من المماليك البحرية، الذين خرجوا مع المعز أيبك لدفع خطر الأيوبيين، ودارت معركة فاصلة بين الطرفين قرب "العباسة" بالشرقية فى عام ٦٤٨ هـ/١٢٥١م، انهزم فيها الأيوبيون، وفروا عائدين إلى بلاد الشام وعلى رأسهم الناصر يوسف، وعاد أيبك مظفرا منتصرا إلى القاهرة ومعه لفيف من الأسرى الايوبيين. وقد أجمل ابن العميد فى كتابه أخبار الأيوبيين نتيجة اللقاء بين المماليك والايوبيين فى العباسة بقوله : "كانت وقعة لم يسمع بمثلها، ولا أرخ المؤرخون بأغرب منها، ذلك أن بعض العسكرين منصور وبعضها مكسور..." وترتب على هذه المعركة كذلك تثبيت أقدام المماليك ودولتهم الناشئة على أرض مصر، ومن ثم لم يعد أيبك فى حاجة الى أن يتنازل عن الحكم، وأن يعتبر نفسه نائبا عن الخليفة العباسى.

ولم يستمر العداء بين المماليك فى مصر والأيوبيين فى الشام طويلا وذلك لظهور خطر جديد هدد العالم الاسلامى كله فى ذلك الوقت، وتطلب من المسلمين الوقوف جميعا وقفة رجل واحد، الا وهو خطر المغول. وكان الخليفة العباسى فى بغداد، أشد احساسا بخطر المغول، الذى اقترب من بلاده وذلك لقربها من دولة هولاكو فى فارس . لذلك سعى الخليفة العباسى المستعصم إلى اصلاح ذات البين بين المماليك والأيوبيين، وأرسل الخليفة رسولا إلى الناصر يوسف، صاحب دمشق، يأمره بمصالحة الملك المعز أيبك، وأن يتفقا سويا على قتال المغول، ونظرا

لموجة الرعب والفزع التى صاحبت أخبار المغول عن مدى وحشيتهم، فقد استجاب الطرفان لدعوة الخليفة المستعصم، وتم الصلح بين المماليك والأيوبيين فى عام ٦٥١ هـ/١٢٥٣م على أساس :-

- أن تصبح مصر وفلسطين حتى نهر الأردن بما فى ذلك غزة والقدس والساحل للمماليك، أما بقية الشام فيما يلى نهر الأردن فتكون للأيوبيين فى الشام.
- أن يطلق المعز سراح جميع أسراه من أصحاب الناصر يوسف ومن أبناء البيت الأيوبى.

ورحب المعز أيبك بذلك ونفذ الاتفاق، وأطلق سراح من عنده من أفراد البيت الأيوبى.

وتظهر أهمية هذه الاتفاقية فى أنها تعد اعتراف رسمى من الأيوبيين بشرعية سلطنة المماليك فى مصر، وبمقتضاها حصل أيبك على موافقة مبدئية بأن يصبح سلطاناً شرعياً على مصر. وترتب عليها كذلك أن رسخت أقدام المعز على أرض مصر، وعظم أمره، وثبتت قواعد ملكه، و**أنشأ فرقة جديدة** من المماليك عرفت باسمه "المعزية "، وعندئذ تخلص من الصبى الايوبى شريكه فى الحكم، وانفرد بالسلطنة..

ثالثا : ثورات العربان فى مصر :-

تبدأ قصة هؤلاء العربان مع الفتوحات الاسلامية الأولى، إذ انتشرت هذه القبائل فى مصر، ولعبت دورا كبيرا فى الأحداث، التى مرت بها مصر، وأوضح المقريزى فى كتابه "البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب " كيف دخلت القبائل العربية مصر فى العصر الاسلامى، وانتشرت فى البحيرة والشرقية والصعيد وغيرها من أقاليم مصر، واستمر الاعراب يقومون بثوراتهم طوال العصور الوسطى، وخاصة فى اوقات الضعف. وكان على أيبك أن يواجه ثورات هؤلاء العربان الذين احتقروا المماليك لأصلهم غير الحر، وانفوا أن يخضعوا لهم، ونادوا بأنهم أحق بالملك من المماليك، وقالوا : "نحن أصحاب البلاد، وأنا أحق بالملك من المماليك، وقد كفى أنا خدمنا بنى أيوب وهم خوارج، خرجوا على

البلاد". وقاموا بثورة تزعمها شخص من ذرية على بن أبى طالب، يدعى "حصن الدين بن ثعلب "، غير أن أيبك نجح فى القضاء على ثورة هؤلاء العربان فى الشرقية والغربية والمنوفية وغيرها، وقبض على زعيم ثورتهم، واعتقله بقلعة الجبل، ثم نقله الى ثغر الاسكندرية حيث اعتقل هناك فى جب تحت الأرض، يعرف " بجب الشريف "، وقتل أيبك كثير من أتباعهم، وزاد فى الضرائب التى تؤخذ منهم حتى ضعف أمرهم، وعاملهم بالعنف والقهر حتى ذلوا وفكوا، على حد تعبير المقريزى. وبذلك أمن أيبك خطر العربان، ولكن إلى حين، فقد ظل خطرهم باقيا ما بقيت دولة المماليك.

رابعا : شجر الدر :-

تمثلت المشكلة الكبرى التى واجهت أيبك فى زوجته شجر الدر، اذ كانت شجر الدر من طراز النساء اللاتى تهوى الحكم، وتعشق السلطان، وتحب السيطرة والتحكم، وكانت كذلك كما وصفها ابن اياس "صعبة الخلق، قوة البأس " وهذا النوع من النساء اذا ذاق طعم السلطان مرة، من الصعب أن يتخلى عنه بعد ذلك. وقد ظهر ذلك بوضوح فقد حرصت شجر الدر منذ اللحظة الأولى من زوجها من أيبك على أن تحتفظ بسلطانها، وتتحكم فى أيبك وفى شئون البلاد.

وبالفعل سيطرت شجر الدر سيطرة تامة على جميع أمور البلاد، بل وعلى أيبك نفسه، بحيث صار فى جميع أحواله ليس له معها كلام، ويشير ابن العميد إلى أنها " كانت تمن عليه بأنها هى التى ملكته مصر وأعطته الأموال ".غير أن شجر الدر لم تكتف بالتحكم فى شئون الدولة وأمورها، بل أخذت تتحكم فى شئون أيبك الشخصية كذلك، فحالت بينه وبين زيارة زوجته الأولى أم على، وارغمته على هجرها، والزمته بطلاقها. ولذلك سئم أيبك الحياة مع شجر الدر، وخطب أبنة صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، ورغم أن أيبك أحاط امر هذه الخطبة بالسرية التامة الا أن شجر الدر علمت بهذه الأخبار عن طريق الصدفة .

قررت شجر الدر الخلاص من أيبك، بعد أن تأكدت من صحة أخبار خطبته، اذ كانت كما يصفها ابن تغرى بردى " شديدة الغيرة " وفى بداية الأمر اتصلت شجر الدر بالناصر يوسف الايوبى فى بلاد الشام، وبعثت له بهدية " واعلمته أنها قد عزمت على قتل المعز أيبك، والزواج منه، وتمليكه مصر "، ولكن الناصر يوسف خشى أن تكون هذه خديعة فلم يجب شجر الدر بشىء.

وكانت أخبار المؤامرات التى تدبرها شجر الدر للتخلص من أيبك تصل اليه أولا بأول، فقد أرسل اليه بدر الدين لؤلؤ، صاحب الموصل، يعلمه أن شجر الدر قد كاتبت الناصر يوسف فى امر التخلص منه، لذلك رأى أيبك أن يحتاط لنفسه ونزل من القلعة، خاصة بعد أن اخبره أحد المنجمين أنه سوف يقتل، وان وراء قتله امرأة. وعلى الرغم من احتراز أيبك منها الا انها خدعته، وأرسلت اليه تطلب منه ان يحضر اليها فى القلعة، وبالفعل انخدع أيبك، وصعد الى القلعة يوم الثلاثاء ٢٤ من ربيع الاول عام ٦٥٥ هـ/١٣من إبريل عام ١٢٥٧م، ودخل الحمام ليغتسل، فما كان من الخدم الذين أعدتهم شجر الدر الا أن قتلوه بالحمام، وشاركت شجر الدر فى تنفيذ هذه المؤامرة، فأخذت "تضربه بالقبقاب وهو يستغيث ويتضرع اليها حتى مات ".

وفى صباح اليوم التالى أشيع خبر قتل أيبك، وعلى الرغم من أن شجر الدر أشاعت أنه توفى فجأة فى الليل، الا أن المماليك المعزية دخلوا القلعة، وعاقبوا الخدم الذين شاركوا فى قتل المعز، وقاموا بالقبض على شجر الدر بعد أن اعترف الخدم بما اقترفت، وعزموا على قتلها، غير أن المماليك الصالحية قامت بحمايتها، ولكن والدة على وزوجة أيبك الأولى، لم تغفر لشجر الدر فعلتها هذه، ولم ترض أن تستمر شجر الدر على قيد الحياة بعد أن قتلت زوجها، فدبرت أمر قتلها، وأخذت الجوارى تضربها بالقباقيب إلى أن ماتت، وألقيت جثتها من فوق سور القلعة من ناحية باب القرافة، وذلك فى ١٦ من ربيع الاخر ٦٥٥هـ/٤من مايو عام ١٢٥٧م. وبذلك خلا المسرح من أيبك وشجرالدر على حد سواء.

سلطنة الملك المنصور على بن أيبك(٦٥٥-٦٥٧هـ/١٢٥٧-١٢٥٩م):-

بوفاة أيبك وشجر الدر انفتح الباب على مصرعيه أمام القوى المتنافسة حول حكم مصر، وبخاصة زعماء المماليك. فالمماليك لم يؤمنوا بمبدأ الوراثة فى الحكم،

بل كانوا يعملون بمبدأ الحكم للاقوى، ولكن عندما وجد أمراء المماليك أنهم لا يستطيعون الاجماع على واحد منهم ليتولى منصب السلطنة، قرروا اختيار على بن أيبك ليكون سلطانا على أثر مقتل أبيه، ولقب السلطان الجديد بالملك المنصور نور الدين على.

وكان المنصور على صبيا فى الخامسة عشر من عمره، وقد وقع الأختيار على أحد أمراء المماليك وهو "سيف الدين قطز "ليكون اتابكا له، أى وصيا عليه، وكذلك ليكون نائبا للسلطنة، فصار بذلك "مدبر الدولة "على حد تعبير المصادر. وانتهزأمراء البحرية الموجودين بالشام هذه الفرصة - أى تولى سلطان صغير عرش مصر - للعودة إلى مصر، وتحقيق أطماعهم، واتصلوا بالملك المغيث عمر بن العادل الثانى بن الكامل محمد، صاحب الكرك، وزينوا له فرصة غزو مصر، وخرجوا جميعا لغزوها عن طريق الشرقية، ولكن قطز استطاع صدهم، وأنزل بهم الهزيمة عند الصالحية.

وبينما كان السلطان المنصور على. يقضى وقته فى اللعب بالحمام، ومناقرة الديوك ومناطحة الكباشى وركوب الحمير بالقلعة، جاءت الأخبار إلى مصر، بأن المغول استولوا على بغداد حاضرة الخلافة العباسية (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، وقتلوا الخليفة العباسى المستعصم، وحرقوا المساجد والجوامع، وسفكوا الدماء، حتى جرت فى الطرقات كما يذكر ابن تغرى بردى ثم ولوا وجوهم شطر بلاد الشام. عندئذ عم أهل مصر الضيق، وأحسوا أن الخطر قريب منهم.

ولابد من وقفة هنا للتعرف على من هم هؤلاء المغول. تعد هضبة منغوليا الموطن الاصلى لقبائل المغول، وقد تأثرت حياة المغول وطباعهم بما ساد هضبة منغوليا من مناخ قاس، فالشتاء شديد البرودة لدرجة أن المياه تتجمد داخل آنية الشراب فى هذا الفصل من شدة البرد، أما الصيف فهو شديد الحرارة لدرجة كبيرة. هذا فضلا عن ان الرياح فى هذه المنطقة كانت شديدة، وتتحول فى كثير من الاحيان الى اعاصير تتلف كل ما يواجهها. لذلك كانت حياة المغول فى هذه المنطقة حياة قاسية، شاقة وعسيرة، ومليئة بالصراع من أجل البقاء.

وقد اثرت ظروف المناخ هذه على طبائع المغول، وجعلتهم يتصفون بالقسوة والخشونة، كما فرضت عليهم ضرورة حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم من أخطار الطبيعة ومن هجمات جيرانهم، بل وحتى من بعضهم البعض، كذلك فرضت عليهم ظروف البيئة هذه كثرة التنقل والترحال، من مكان الى اخر بحثا عن المراعى، وكانوا يقيمون اثناء ترحالهم فى خيام أو أكواخ صنعت من اللباد، وكانت تحمل على عربات يد خشبية ذات عجل حتى يسهل نقلها من مكان لاخر دون عناء ومشقة. ومن ثم لم تعرف قبائل المغول حياة الاستقرارالتى يتمخض عنها المدنية والحضارة.

وقد أثرت البيئة الطبيعية كذلك على الصفات الجسمانية التى اتصف بها هؤلاء المغول، بحيث تتلائم مع ظروف البيئة القاسية. فكانوا يتصفون بقوة البدن، ذو وجوه عريضة سمراء اللون يغلب عليها السواد، ورؤس كبيرة ذات شعر أسود خشن، وانوفهم فطساء مع بروز فى الخدين، وشفاههم غليظة، واسعوا الصدر، قصيرو القامة والأطراف، قويو العضلات مما منحهم سرعة فى الحركة.

واثرت بيئة المغول على طعامهم وشرابهم كذلك، فهم يعيشون على اللحم واللبن وبالنسبة اللحم، يأكلون لحوم جميع الحيوانات، دون أن يفرقوا بين لحوم الكلاب أو الذئاب أو الثعالب أو الفئران أو الخنازير، بل كانوا يأكلون فى بعض الأحيان لحوم الآدميين، خاصة لحوم أعدائهم ويشربون من دمائهم، واكثر من ذلك كانوا يأكلون لحوم بعضهم خاصة فى أوقات الحروب، وعندما لايجدون ما يأكلون. وكانت لحوم الخيل هى المفضلة عندهم، وكانوا يقومون بنقعها فى الماء المملح ثم يجففونها، ويمكنهم بعد ذلك قطعها كما لو كانت خبزا أسود، كما أنهم يحتفظون باللحم النيىء فى حقائبهم أثناء حلهم وترحالهم أو حروبهم الى أن يخرج ما به من دم ثم يأكلونه نيئا.

أما عن الشراب فهم يشربون لبن الخيل بعد أن يعطروه بالأعشاب، وهو أفضل شراب لديهم، ويبدو ان المغول عرفوا النبيذ كذلك، اذ أشار رشيد الدين الهمذانى، مؤرخ المغول المشهور الى أن جنود هولاكو حملوا معهم " قربة من النبيذ ".

وكانت ملابس المغول تتسم بالبساطة بساطة حياتهم البدائية، وهى مصنوعة من أصواف الغنم، ومن وبر الجمال، ومن جلود الحيوانات ولم يكن هناك فرق كبير بين ملابس الرجال وملابس النساء، مع ملاحظة انهم كانوا يرتدون ملابسهم لفترات طويلة خاصة فى فصل الشتاء حيث كانوا لا يخلونها على الاطلاق، أما فى الصيف فهم يغيرونها مرة واحدة فحسب، كما أنهم لايغسلون ملابسهم ولا أجسادهم، ولا يستحمون الا نادرا، كما أنهم لايميزون بين الطاهر والنجس.

وحياة المغول الأسرية حياة بدائية بطبيعة الحال، فكان من حق الزوج ان يتزوج أكثر من واحدة، ولم يكن هناك حد معين، فكثيرا ما وصل عدد الزوجات الى مائة زوجة، ويلاحظ أن الزوجة لاتصبح زوجة بالفعل إلا بعد أن تنجب للرجل طفلا، أما عن الطريقة التى يحصل بها الرجل على زوجته فهى عن طريق الشراء. وقد شجع المغول كثرة الانجاب حتى يستطيعوا التصدى للأخطار، لذلك اذ لم تنجب الزوجة، كان من السهل طردها، أما إذا انجبت فيزداد احترامها.

أما عن **ديانة** المغول فكانت وثنية وتعرف بـ"**الشامانية** "، ووفقا لهذه الديانة كان المغول يعبدون كل شيء يسمو عن مداركهم، وكل ما يرهبهم أو يخيفهم، وآلهتهم كثيرة فى النهر وفى الجبل والشجر الضخم وفى الشمس والقمر والبرق والرعد، ولم تكن لهم أماكن مخصصة للعبادة، وكان لديهم جماعة من الكهنة أقرب الى العرافين منهم الى رجال الدين .وتجدر الاشارة الى ان هناك بعض قبائل المغول قد اعتنقت المسيحية، مثل قبيلة "الكرايت "وقد اعتنقت المسيحية على المذهب النسطورى، وقد تحالف جنكيزخان مع هذه القبيلة وتزوج من بناتها، كذلك اعتنقت قبيلة مغولية بأكملها الإسلام، وهى مغول القفجاق أو مغول القبيلة الذهبية، الذين عرفوا بهذا الاسم نسبة الى لون خيامهم الذهبى.

وقد استطاع جنكيزخان ان يتولى حكم المغول، وقضى على القبائل المعادية، ووضع مجموعة من الشرائع، وهى التى تعرف " بالياسق أو الياسا" لتنظيم أمور الدولة، ثم وضع بعد ذلك خطط للتوسع على حساب المسلمين. ويمكن ان نقسم الزحف المغولى على الشرق الاسلامى إلى مرحلتين :-

- **الاولى** : كانت زمن جنكيزخان وخلالها قام المغول بمهاجمة أملاك الدولة الخوارزمية، والقضاء على نفوذ الخوارزميين والاستيلاء على أملاكهم.
- **الثانية** : كانت زمن جنكيزخان وأخيه هولاكو حيث قاد هولاكو فى هذه المرحلة الجيوش المغولية، وقام بمهاجمة بقية أراضى الشرق الأسلامى إلى أن وصل الى حدود مصر، وانتهت هذه المرحلة بمعركة عين جالوت(٦٥٨هـ/١٢٦٠م) على نحو ما سنرى.

تجدر الإشارة إلى أن المغول أشاعوا موجة من الرعب والفزع فى العالم الإسلامى من جراء اغاراتهم، حتى أن بعض المؤرخين ومنهم ابن الأثير ظل يقلوم نفسه سنوات حتى لا يسطر أخبارها، لأنه كان يعتبر أن فى تاريخ هذه الحوادث نعيا للإسلام والمسلمين، وعبر عن ذلك بقوله فى حوادث سنة ٦١٧هـ " لقد بقيت سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة... كارها لذكرها، فأنا أقدم رجلا وأوخر أخرى، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين... فياليت أمى لم تلدنى، وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا".

سلطنة سيف الدين قطز(٦٥٧-٦٥٨هـ/١٢٥٩-١٢٦٠م) :-

عندما وصلت أخبار اجتياح المغول بغداد، وانتقالهم منها إلى بلاد الشام، وما قاموا به من أعمال السلب والنهب والتخريب والتدمير والقتل، أحس قطز - وكان اتابك السلطان الصغير المنصور نور الدين على ونائب سلطنته - بخطورة الموقف فانتهز فرصة خروج الأمراء المعزية للصيد، وعزل المنصور على، والقى القبض عليه وعلى والدته، واعتقلهما فى أحد أبراج القلعة، ثم سيرهما بعد ذلك إلى دمياط حيث تم سجنهما فى دار هناك أعدت لهذا الغرض. ويعقب ابن تغرى بردى على ما قام به قطز بقوله : "والملك المظفر قطز هو أول مملوك خلع ابن استاذه من الملك، وتسلطن عوضه، ولم يقع ذلك قبله من أحد من الملوك "وصار ذلك من بعده سنة متبعة.

وغضب لذلك بعض مماليك المنصور، واحتجوا على عزله ونفيه، فاعتذر لهم قطز بأنه عزل المنصور لتخوفه من المغول من ناحية ومن الناصر يوسف، صاحب دمشق من ناحية اخرى، فقد أرسل الناصر يوسف ابنه الملك العزيز إلى هولاكو يطلب مساعدته فى الاستيلاء على مصر من ايدى المماليك، واستجاب المغول بالفعل لهذه الدعوة، وقرر هولاكو ارسال قوة تتألف من عشرين ألف فارس لمساعدة الناصر يوسف فى غزو مصر.

وذكر قطز للأمراء أنه يهدف من وراء عزل المنصور أن يكون على رأس البلاد ملك قوى قادر على التصدى لهذين الخطرين، رجل شهم يطيعه الجميع ، وينتصب للجهاد، عندئذ أجاب الجميع "ليس لها غيرك" كما يروى ابن تغرى بردى. وإذا نجح المماليك فى هزيمة المغول وصدهم. يصبح الامر متروكا لهم بعد ذلك يعينوا فى السلطنة من يرغبون فيه. فقد جاء على لسانه "انى ماقصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار.. فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو، فالأمر لكم أقيموا فى السلطنة من شئتم". وبذلك نجح قطز فى إرضاء الأمراء، وما ان مكن لنفسه حتى قام بالقاء القبض عليهم واعتقلهم وسجنهم، وقبض على زمام الأمور بيد من حديد، وذلك فى ١٧ ذى القعدة عام ٦٥٧هـ/ ١٨ أكتوبر عام ١٢٥٩م، بعد أن ثبت أقدامه فى الحكم، أخذ فى ترتيب السلطنه، فعين الصاحب زين الدين بن يعقوب وزيرا. و اقر الأمير فارس الدين اقطاى المستعرب فى أتابكية العساكر. وما ان انتهى قطز من ترتيب السلطنة حتى أخذ يتفرغ للاستعداد لمواجهة خطر المغول الذى هدد مصر والشام.

لم يلبث المغول أن زحفوا من العراق الى الشام فى سرعة مذهلة، وهددوا حلب أولى مدن الشام، وعجز المسلمون فى حلب عن التصدى لهم، والدفاع عن مدينتهم، فدخلها المغول وقتلوا ونهبوا وسلبوا على عادتهم، ولعل هذا ما جعل الناصر يوسف يصحو من غفوته، ويدرك حقيقة الغزو المغولى لبلاد الشام، لذلك اتصل بقريبه المغيث عمر صاحب الكرك، كما اتصل بقطز صاحب مصر، يطلب منهما النجدة السريعة بينما تخوف كثير من أمراء الأيوبيين بالشام من مقاومة

المغول، بل راحوا يعلنون أنه لا فائدة من التصدى للمغول ومقاومتهم، خاصة بعد أن أصبحوا " ملاك الدنيا من مطلع الشمس إلى حدود الفرات "، وراح بعضهم يعظم من شأن المغول وقائدهم هولاكو، ووصفه بأنه لايقاوم ولا يقهر، والأفضل الدخول فى طاعته.

وتجدر الاشارة الى الدور الذى لعبه المماليك البحرية، الذين فروا إلى بلاد الشام، وعلى رأسهم بيبرس البندقدارى، اذ لم يرض عن تخاذل الايوبيين وأمراء الشام وسبهم قائلا لهم : "أنتم سبب هلاك المسلمين" وسار بمن معه من المماليك البحرية الى غزة ومن هناك أرسل الى السلطان قطز يعرض عليه توحيد جهود المسلمين ضد خطر المغول، واستجاب قطز فى الحال لهذه الدعوة، وأرسل الى بيبرس يطلب منه القدوم الى مصر. وفى القاهرة استقبله قطز بدار الوزارة، واقطعه قليوب وأعمالها، وجعله قائدا ومقدما على المماليك البحرية . ويظهر من خلال ذلك مدى حرص قطز على أن يكون المماليك البحرية إلى جواره، خاصة أنهم قادة عسكريون ممتازون مدربون على جميع العمليات العسكرية والحربية، ومن ثم كان قطز فى أمس الحاجة الى مساعدتهم لدرء خطر المغول.

أما عن المغول وعلى رأسهم هولاكو، فبعد أن استولوا على حلب بستة عشر يوما أسرعوا فى الزحف على دمشق، فهرب أهلها، وتفرقوا فى البلاد، فدخلها المغول ونهبوها، ثم ساروا إلى بعلبك ومنها الى غزة، واشعلوا نار الحرب فى كل مكان من بلاد الشام وملأوها قتلا ونهبا ورعبا.

موقعة عين جالوت (٦٥٨ هـ/١٢٦٠م) :-

لم يلبث رسل هولاكو - قائد المغول - وعددهم أربعة، وقيل أربعين رسولا أو ينيف، أن حضروا إلى مصر ومعهم كتاب كله تهديد ووعيد، اذ يذكره فيه بما فعله المغول، ويُنذره سوء العاقبة اذا حاول مقاومتهم، ويطلب من المماليك الاستسلام والأعتراف بالولاء للمغول وبسيادتهم على مصر والشام .وقد جاء فى هذا الكتاب : "... أسلموا إلينا أمركم.. فما من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص،

فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال. فالحصون لدينا لاتمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لايسمع...".

ولكن لم يعبأ قطز بهذا التهديد، وعقد مجلسا للمشورة، يضم كبار الامراء، وتلى عليهم نص كتاب هولاكو، وبعد مناقشات استقر الرأى على ضرب رقاب رسل هولاكو والاستعداد لملاقاة المغول، وأعلن قطز " أن الرأى عندى هو أن نتوجه جميعا إلى القتال، فاذا ظفرنا فهو المراد، والا نكون ملومين أمام الخلق". ثم مزق قطز الكتاب، وقطعت رءوس رسل هولاكو، وعلقت على باب زويلة. وكان تصرف قطز هذا حيال السفراء من ناحية، واعلانه الاستعداد لحرب المغول من ناحية أخرى فيه جرأة، وذلك لأن المغول أثاروا فى ذلك الحين موجة من الرعب والفزع فى العالم كله، كما يظهر تصرف قطز مدى شجاعته وحبه للدفاع عن العالم الاسلامى، وكراهيته الشديدة للمغول الذين قتلوا أباه وخاله جلال الدين خوارزمشاه حاكم الدولة الخوارزمية، استولوا على أملاكه، وباعوه هو فى سوق الرقيق.

وأخذ قطز الاستعدادات للقاء المغول ففرض أولا رسوما بدعوى حرب المغول، واستعان بالعلماء والفقهاء لحث العامة والخاصة للخروج لمحاربة المغول، واستعان فى هذا السبيل بالشيخ العز بن عبد السلام، سلطان العلماء فى ذلك الحين. ثم اخذ قطز يحث الأمراء على الخروج لحرب المغول، بعد أن وجد بعضهم قد أظهر ترددا وتقاعسا عن الخروج للحرب قائلا لهم : "يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، أنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبنى، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته ..".

وكان لتلك الكلمات أثرها فى نفوس الأمراء، وسارعوا جميعا بالانضمام إليه والخروج معه للحرب، خاصة بعد أن تحرك السلطان، وبدأ المسير بنفسه ليثبت لكافة الأمراء أنه قادر على منازلة المغول بمفرده لو لزم الأمر، وقد أعلن قطز ذلك قائلا : "أنا القى التتار بنفسى".

ونتيجة لدعوة قطز للجهاد أخذ يتجمع لديه جيش ضخم من المماليك والجند المصريين، وعدد لابأس به من ملوك وأمراء وجند الشام الذين وصلوا إلى مصر تباعا بعد سقوط حلب ودمشق فى يد المغول هذا إلى جانب مجموعة من القبائل العربية التى أضيرت نتيجة لتخريب المغول لاراضيهم. وقد توافدوا جميعا إلى مصر لهدف واحد وهو الجهاد ضد المغول.

وفى الوقت الذى تماسك فيه المماليك من أجل صد المغول، بدأت عوامل الضعف تدب فى صفوف المغول، اذ توفى خاقانهم الاعظم " منكوخان " فى اغسطس من عام ١٢٥٩م، وتنازع أخوته بعد وفاته حول اقتسام امبراطورية المغول الواسعة، واضطر هولاكو إلى العودة إلى " قراقورم" عاصمة المغول بعد أن سمع بوفاة أخيه، تاركا جيشه فى بلاد الشام تحت قيادة " كتبغا "مما أدى إلى اضعاف الروح المعنوية لجيش المغول بالشام، على الرغم مما عرف عن كتبغا من كفاءة عسكرية، فقد اثبت فى كل المعارك التى خاضها قدرته الحربية ودهائه العسكرى. كما أجمعت المصادر على أنه كان يتصف بصفات المحاربين الشجعان فيقول عنه ابن تغرى بردى : "كان بطلا شجاعا مقداما، خبيرا بالحروب وافتتاح الحصون والاستيلاء على الممالك".

هذا إلى جانب ان هولاكو كان مهددا من ناحية القوقاز بابن عمه "بركة خان "خان مغول القفجاق (القبيلة الذهبية)الذي اعتنق الاسلام، وناصب هولاكو العداء، وضيق عليه لما قام به من قتل للخليفة العباسى وتخريب بغداد، وقتل المسلمين وإراقة دمائهم فى الطرقات.

ولم ينتظر قطز قدوم المغول إلى مصر، بل بادر بمنازلتهم فى بلاد الشام قبل أن ينازلوه إذ يذكر "ابن كثير ": "بادرهم قبل ان يبادروه، وبرز إليهم، واقدم عليهم قبل أن يقدموا عليه". وقد قسم قطز جيشه الى قسمين، قسم ضم مقدمة الجيش وطليعته، وعهد بقيادته إلى بيبرس البندقدارى، وأرسله الى غزة ليتحسس أخبار العدو، وكان بغزة فرقة من المغول بقيادة " بيدرا "، وكان هولاكو قبل رحيله عن الشام قد أمر بأن يتولى القائد بيدرا مساعدة كتبغا فى قيادة الجيش

بالشام. وما أن علم بيدرا بوصول طليعة جيش قطز حتى كتب إلى كتبغا، وكان فى ذلك الحين بالقرب من بعلبك، يخبره بتحرك الجيش المصرى، ويطلب منه المشورة، فرد عليه كتبغا قائلا : "قف مكانك وانتظر ".

ورأى بيبرس أن من الحكمة أن يفاجأ جيش بيدرا قبل أن يصل إليه كتبغا، وبالفعل داهم بيبرس جيش المغول بقيادة بيدرا عند غزة، وأنزل به هزيمة ساحقة، حيث قضى على معظم جيشه، وفر بيدرا بمن تبقى معه من الجيش، واسترد المماليك غزة، وطاردوا بيدرا حتى نهر العاصى وكان لانتصار بيبرس على بيدرا واستعادة غزة ومطاردة المغول رد فعل قوى عند المسلمين فى كافة أنحاء الشام، اذ رأوا فى هذا النصر بادرة أمل، وتشجعوا على الاستمرار فى قتال المغول.

وفى رمضان عام ٦٥٨هـ/يوليو ١٢٦٠م، وصل قطز على رأس القسم الثانى من جيشه الى غزة، التى تم استعادتها من أيدى المغول، ثم شرع قطز بعد ذلك فى الزحف عن طريق الساحل مارا بعكا الصليبية لاختصار الطريق ومباغتة كتبغا . ويبدو أن وصول قطز بهذا الجيش الكبير أزعج الصليبيين فى الشام، ومع ذلك فعندما أرسل قطز رسله إليهم طالبا الإذن لعبور جيشه لمقاتلة المغول، وافقوا على الفور، بل وخرجوا إلى قطز وعرضوا عليه المساعدة، والسماح له باتخاذ الطريق الساحلى، ويذكر المقريزى فى هذا الصدد : "خرجوا إليه بتقادم (هدايا) وارادوا أن يسيروا معه نجدة " . والحقيقة ان هناك أسبابا قوية دفعت الصليبيين إلى الترحيب بقطز وتقديم المساعدة له فى قتاله ضد المغول منها : -

أولا: خوف الصليبيين من بقاء المغول فى بلاد الشام، وهم قوم يتصفون بالهمجية والوحشية، لا أمان لهم ولا عهد، وقد يترتب على ذلك أن يقوموا بالاستيلاء على الممتلكات الصليبية فى بلاد الشام، ويعملوا على إبادة الصليبيين وطردهم من بلاد الشام.

ثانيا : كراهية الصليبيين للمغول، خاصة من اعتنق منهم المسيحية الشرقية على المذهب النسطورى، فى حين كانوا هم على المذهب الكاثوليكى، مما ادى إلى زيادة العداوة والكراهية بين الجانبين. والحق يقال أنه لو قدر للصليبيين

التحالف مع المغول لما امكن المماليك تحقيق النصر على المغول.

على أية حال فقد شكر قطز الصليبيين "واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه" على حد تعبير المقريزى، وهددهم اذا هم اعتدوا على مؤخرة جيشه، وأنذرهم بأنه فى هذه الحالة سيعود إليهم ويقاتلهم قبل أن يقاتل المغول . وبعد أن حصل جيش قطز على ما يحتاج إليه من مؤن وعتاد من الاراضى الصليبية، اتجه شرقا عبر اقليم الجليل إلى الأردن عن طريق الناصرة لاسترداد دمشق من يد المغول.

وأثار زحف قطز على بلاد الشام غضب كتبغا، "وصار كأنه بحر من اللهيب بسبب الغيرة والغضب " على حد تعبير مؤرخ المغول " رشيد الدين الهمذانى"، وأخذ يجمع المغول من شتى بقاع الشام، وقرر الزحف بسرعة لمقابلة جيش قطز وانزال الهزيمة به.

وما أن أحس قطز بقرب قدوم جيش كتبغا، حتى راح يثير روح الحماسة فى جنوده، ويحثهم على قتال المغول، ونصرة الإسلام والمسلمين، وذكرهم بما فعله المغول ببلاد الإسلام والمسلمين من قتل وسلب ونهب وسبى وحرق وتدمير وتخريب، فقرروا الاجتهاد فى قتال العدو ودفعه عن البلاد . وفى ذات الوقت وضع قطز خطة عسكرية محكمة تنم عن ذكاء عسكرى، وتتلخص هذه الخطة فى أن تقوم طليعة الجيش بقيادة بيبرس بمناوئة جيش كتبغا عند اقترابه، بينما يختبأ الجزء الأكبر من الجيش بين الأحراش والغابات المحيطة " بعين جالوت"-بين نابلس وبيسان من أعمال فلسطين -وبذلك كمن لجيش كتبغا.

وما أن أقترب جيش كتبغا حتى بدأت المناوشات بينه وبين طليعة الجيش المصرى بقيادة بيبرس وذلك فى ٢٥من رمضان عام ٦٥٨هـ/٥ من سبتمبر ١٢٦٠م، وتصور كتبغا أن طليعة الجيش المصرى بقيادة بيبرس تمثل الجيش بأكمله، فحمل حملة قوية على بيبرس، فتراجع بيبرس أمام كتبغا وفق الخطة المرسومة تجاه الكمين، والجيش المغولى فى أثره، وفجأة خرج الجيش المصرى من الكمين، من ثلاث جهات حيث حاصر جيش المغول، وعلى الرغم من هول المفاجأة لكتبغا الا أنه استمات فى القتال منذ طلوع الشمس وحتى منتصف النهار،

وأثناء القتال اضطربت صفوف الجيش المصرى نتيجة لما يتمتع به المغـول مـن مقدرة حربية فائقة، ولكن قطز ثبت فى مكانه، والقـى بخوذتـه علـى الأرض، وصرخ بأعلى صوته "واسلاماه" ياالله انصر عبدك قطز" وحمل بنفسه على المغول، مما رفع الروح المعنوية لدى الجنود المسلمين وجعلهم يثبتون ويحملون حملة قوية على العدو، الحقت بهم الهزيمة، وقتل كتبغا نفسه، وكثير من رجاله، امـا بقية الجيش فوقع فى الأسر، فى حين فر من استطاع الفرار، وتعقب بيبرس الفارين إلى الفرات . وبذلك "أبلى الأمير بيبرس بلاء حسنا بين يدى السلطان"، كما يذكر المقريزى. ولما تم النصر على المغول نزل قطز من فوق فرسه، وعفر وجهه فى التراب، وصلى ركعتين شكرا لله.

أما عن العوامل التى ساعدت المماليك علىتحقيق الانتصار فى عين جالوت فهى على النحو التالى :-

أولا : شجاعة المماليك وحسن بلائهم، اذ تربوا تربية عسكرية من الطـراز الأول، فالمماليك لم يقلوا بأى حال من الأحوال مقدرة وكفاءة عن المغـول، فكـانوا يجيدون الرمى بالسهام وركوب الخيل والضرب بالنشلب، ويبرعون فـى التكتيك الحربى كالمغول تماما. ومن ثم لم تكن هزيمـة المماليك للمغول بمحض الصدفة، بل يرجع الفضل فيها إلى مهارة المماليك الحربيـة، التـى حطمت الاسطورة الشائعة فى ذلك الوقت وهى أن المغول قوم لا يهزمون.

ثانيا : الموقف السلبى للصليبيين فى بلاد الشام، وعدم محاولتهم الاستفادة مـن الموقف واستغلال تلك القوة الجديدة ممثلة فـى المغـول لانـزال الهزيمـة بعدوهما المشترك الا وهو المسلمون.

ثالثا : عودة هولاكو الى قراقورم بمعظم جيشه، كان له أسوء الأثر على المغـول، اذ أضعف من الروح المعنوية لدى جنود المغول فى حيـن رفـع معنويـات المسلمين، هذا فضلا عن الخصومة بين مغول هولاكو وبنى عمومتهم مغول القفجاق المسلمين.

رابعا : بعد المغول عن مراكزهم الأولى، فقد تعذر عليهم نقل المؤن والإمـدادات

عبر المسافات الطويلة من وسط آسيا إلى بلاد الشام، ولهذا كان من الطبيعى ان تنزل بهم الهزيمة.

نتائج معركة عين جالوت

وتعد معركة عين جالوت من المعارك الهامة والحاسمة فـى التـاريخ، لمـا ترتب عليها من نتائج هامة، ليس بالنسبة للمماليك فحسـب، بـل وبالنسـبة للعـالم الاسلامى كله، والشرق الاسلامى بصفة خاصة. فبالنسبة للمماليك، كـانت معركـة عين جالوت من اخطر التجارب، التى مرت بها دولة المماليك الناشئة، كمـا أنـ كانت من أقوى العوامل التى ساعدت المماليك على تدعيم ملكـهم، فقـد حصـ المماليك فى عين جالوت على ما كان ينقصهم من مجد، لتثبيت أركان دولتـهم، اذ جعل الانتصار – فى عين جالوت - الناس ينسوا أصل المماليك غير الحر، وأنـهم انتزعوا العرش من ساداتهم الأيوبيين . كما أن هذا الانتصار أضفى عليهم نوعا مـن التشريف، خاصة وأنهم ظهروا فى صورة الدرع الواقى للعالم والقوة الوحيدة التـى استطاعت الوقوف فى وجه المغول، وكسر شوكتهم.

ومن ثم تعد معركة عين جالوت هى البداية الحقيقية بالنسبة لدولة المماليك، اذ أنها قضت على المعارضة الايوبية فى بلاد الشام، وحققت للسـلطان المملوكـى السيادة على من بقى من ملوك الأيوبيين فى الشام. وعلى ذلك تعد معـركة عيـن جالوت الحد الفاصل للصراع بين الأيوبيين والمماليك، فقد جاءت إيذانـا بغـروب شمس بنى أيوب وشروق شمس دولة المماليك.

ووضعت معركة عين جالوت حدا لغارات المغول المدمرة، التـى التـهمت الاخضر واليابس، ودمرت دولا وحضارات، فقد خرب المغول المساجد، وأحرقـوا المكتبات، وقتلوا خليفة المسلمين، ولم يسلم منهم شعب أو دولة فقد تعرض الجميع لأذى المغول، مسلمون، ومسيحيون، وأرمن، وكرج وغيرهم. ومن ثـم لا نكـون مبالغين اذ قلنا أن معركة عين جالوت أنقذت العالم أجمع من تدمير شامل على يـد

المغول. فلو لم ينتصر المماليك على المغول، لفعل المغول بمصر وأهلها ما فعلوه بالعراق وأهله، أو على الأقل لاستقروا فى الشام، كما استقروا فى العراق. وبذلك أنقذ انتصار المماليك بلاد الشام ومصر من الوقوع فى أيدى المغول. كذلك تكمن أهمية معركة عين جالوت فى أنها أعادت الوحدة إلى المسلمين فى مصر والشام، بعد ان ادى قيام دولة المماليك فى مصر، وغضب الايوبيين فى الشام إلى تمزيق رباط الوحدة التى جاهد من أجلها نور الدين محمود ومن بعده صلاح الدين.

ويعترف المؤرخون الاوربيون عند تأريخهم لمعركة عين جالوت، أنها لم تنقذ العالم الأسلامى فحسب من خطر المغول المدمر، بل أنقذت العالم المسيحى كذلك، لأنه لم يكن فى أوربا حينئذ ملك مسيحى قوى يستطيع مقاومة المغول، لو تقدموا فى طريقهم الطبيعى إلى أوربا، وكان من الممكن أن يتغير وجه التاريخ اذ حدث ذلك.

وبالنسبة للمغول، كانت معركة عين جالوت صدمة عنيفة قاسية للمغول أنفسهم فهم لم يهزموا من قبل سوى مرة واحدة على يد جلال الدين بن منكبرتى، وأن لم تكن الهزيمة لها نفس النتائج التى ترتبت على عين جالوت. واضطر المغول بعد عين جالوت إلى الانسحاب من الشام إلى العراق، وأصبحت حدود دولتهم تقف عند نهر الفرات، ولم تعد غزواتهم تتخذ شكل الغزوات الكاسحة، مثلما كان الحال من قبل، وأنما اتخذت شكل إغارات متقطعة، تنتهى بالانسحاب السريع، عندما تلوح لهم مقدمة الجيوش الاسلامية القادمة من مصر.

سلطنة الظاهر ركن الدين بيبرس (٦٥٨-٦٧٥هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م) :-

بعد معركة عين جالوت قام السلطان قطز بعملية تطهير سريعة فى بلاد الشام فنجح فى استرداد دمشق من أيدى المغول، هذا فى الوقت الذى قام فيه بيبرس بمطاردة المغول حتى حلب. وبذلك تمكن قطز من أن يبسط سلطان المماليك على بلاد الشام، خاصة وان أمراء الايوبيين فى الشام اعترفوا بالتبعية لدولة المماليك فى مصر، كما تعهدوا بأن يدفعوا اتاوة لقطز، ويدعوا له على المنابر. وهكذا استقرت

الأمور فى بلاد الشام.

أما فى مصر فقد عم الجميع الفرح بالانتصار على المغول، ودقت البشائر فى القلعة واستعدت القاهرة لاستقبال بطل عين جالوت، وأقيمت الزينات فى الطرقات والأسواق والحوانيت، واستعد أهل القاهرة لاستقبال قطز تحية وتكريما لبطولته، ولكن شاء القدر الا يصل قطز إلى القاهرة، فقد قتل فى طريق عودته إليها على يد بيبرس.

أما عن تفاصيل ذلك فقد كان قطز قد وعد بيبرس بأن يعطيه ولاية حلب تقديرا له على ما أبداه من شجاعة فى محاربة المغول. ولكن لم يكد يتم طرد المغول من بلاد الشام حتى تنكر قطز لوعوده لبيبرس، "ليقضى الله أمرا كان مفعولا" كما يذكر المقريزى. وأعطى حلب للأمير السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ. وبذلك أظهر قطز أنه قصير النظر فى تصرفه هذا، اذ نسى المكانة الكبيرة التى غدا بيبرس يتمتع بها، والتى لا يتجاهلها أى انسان بعد حرب المغول. ولو كان قطز حكيما لاعطى بيبرس حلب والهاه بها عن منافسته فى مصر، وكان يمكنه بذلك أن يمارس سلطانه دون أى منافس أو حاقد. كما أن المماليك البحرية ومنهم بيبرس لم ينسوا أن قطز شارك فى قتل كبيرهم اقطاى زمن أيبك، وبمعنى أخر أحس البحرية دائما أن لهم ثأر فى عنق قطز، ولذلك لم يكونوا فى حاجة إلى من يحرضهم عليه. ولهذين السببين عزم بيبرس على التخلص من قطز والانتقام منه، فدبر مؤامرة مع زملائه من زعماء البحرية لاغتيال قطز عندما تحين الفرصة لذلك.

وحانت الفرصة عندما وصل ركب السلطان وبصحبته بيبرس إلى "الصالحية" فعندما اقترب الركب منها، انصرف قطز إلى الصيد، وكان يهوى صيد الأرانب، فثارت أرنب وجنحت، وعندئذ نسى قطز أن يحترز على نفسه، وتعقب الأرنب حتى ابتعد عن رفاقه. واستغل المتآمرون هذه الفرصة، فتعقبوا السلطان حتى لم يبق معه غيرهم، وعندئذ تقدم منه بيبرس، وطلب منه أمرأة من سبى المغول، فأجابه السلطان إلى طلبه، وانعم عليه بما اراد، وقد تظاهر بيبرس

برغبته فى تقبيل يد السلطان، وكانت إشارة بينه وبين شركائه المتآمرين، فقبض بيبرس على يد السلطان ليمنعه من الحركة، فى حين انهال عليه بقية الأمراء البحرية بسيوفهم ورماحهم، والقوه عن فرسه، وأجهزوا عليه. وهكذا انتهت حياة بطل عين جالوت، وخلا الجو للبحرية وزعيمهم بيبرس.

وكان من الطبيعى أن تؤول السلطنة بعد مقتل قطز إلى قاتله أى إلى بيبرس، وذلك لأن "قاتل السلطان يصبح الأول بين المتساويين" أى بين سائر أمراء المماليك الذين كانت تربطهم رابطة الخشداشية (الزمالة) وهى من أقوى الروابط التى كانت تربط المماليك فى جميع الاوقات والفترات . فبعد مقتل قطز سار الأمراء البحرية إلى دهليز السلطان (الخيمة التى ترافق السلطان فى الحرب) بالصالحية، وأجمعوا الرأى على سلطنة بيبرس، وقابلهم عند باب الدهليز الامير " اقطاى المستعرب "، وعندما أخبروه بمقتل السلطان قطز، سألهم من قتله منكم ؟ فقال بيبرس : " أنا قتلته " فرد عليه اقطاى : "ياخوند (ياسيد) اجلس فى مرتبة السلطنة مكانه "، فقد كان شعار المماليك "من قتل ملكا أصبح هو الملك ".

وبعد أن بايع اقطاى وسائر الأمراء بيبرس بالسلطنة، قال له اقطاى : "لاتتم السلطنة الا بدخولك قلعة الجبل " فالقلعة مقر الحكم، وبها خزائن الدولة ودواوينها، وأدوات السلطة والحكم .وبالفعل أخذ بيبرس وبرفقته الأمراء البحرية طريقهم نحو القاهرة. وكانت القاهرة قد ازدانت وتزينت لاستقبال المظفر قطز، بطل عين جالوت، وكان الناس فى فرح وسرور بالانتصار على المغول وبعودة المنتصر، ولكن بدلا من أن يأتى قطز، جاء بيبرس، ونادى المنادى فى شوارع القاهرة "ترحموا على الملك المظفر، وادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس ".

وكان لهذا الخبر أثر سىء على أهل القاهرة، فقد أصابهم غم عندما سمعوا به، وذلك لأن بشرى الانتصار على المغول جاءتهم مقرونة بقطز، صاحب الفضل فى تحقيق هذا الانتصار، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان بيبرس من المماليك البحرية، ولم ينس أهل القاهرة ظلم هؤلاء البحرية وعسفهم، وما قاموا به من أعمال سلب ونهب وسبى للنساء، حتى أن المقريزى يذكر "أن الفرنج لو ملكوا

البلاد ما فعلوا فعلهم ". لذلك خاف أهل القاهرة من عودة المماليك البحرية بجورهم وظلمهم.

على أية حال شق بيبرس طريقه إلى القلعة، حيث استقبله الأمير "عز الدين ايدمر الحلى " نائب السلطنة، وكان قد خرج للقاء قطز، فأخبره بيبرس بما حدث لقطز، وعندئذ حلف الأمير عز الدين ايدمر والأمراء الموجودون بالقلعة لبيبرس كسلطان جديد، وعلى هذا النحو استقر السلطان الجديد فى قلعة الجبل قاعدة الحكم فى البلاد. وقد أشار الوزير "زين الدين بن يعقوب " على بيبرس بأن يغير لقب القاهر قائلا له : "ما لقب به أحد وأفلح " .لذلك تشأم بيبرس من لقب القاهر وابطله، واتخذ لقب جديد وهو "الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ".

وبدخول بيبرس قلعة الجبل فى ٢٣ اكتوبر من عام ١٢٦٠م تبدأ صفحة جديدة فى تاريخ المماليك، اذ أن عصر بيبرس وأعماله وإصلاحاته جعلته بحق المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى مصر والشام، فقد تعاقب على عرش دولة المماليك خلال الفترة الاولى من تاريخها خمسة سلاطين هم : شجر الدر، عز الدين أيبك، على بن أيبك، قطز، فبيبرس، مما يدل على عدم الاستقرار الذى تعرضت له الدولة فى بدايتها . أما بيبرس فقد حكم مدة طويلة تقدر بسبعة عشر عاما، لم يقدر لأحد من سلاطين المماليك أن يحكم مثلها فيما عدا "الناصر محمد بن قلاوون "فطول مدة حكمه من ناحية، ونجاح سياسته فى حكم البلاد، وكذلك سياسته الخارجية من ناحية أخرى، جعلته بحق المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى مصر والشام.

سياسة بيبرس الداخلية :-

قام بيبرس بعدة أعمال على الصعيد الداخلى أهمها :

أولا: العمل على توطيد الامن وتحقيق الاستقرار :-

بدأ بيبرس بالعمل على توطيد الأمن وتحقيق الاستقرار فى البلاد، وذلك بالقضاء على المناوئين والثائرين سواء فى الشام أم فى مصر. ففى بلاد الشام، ثار الأمير " علم الدين سنجر الحلبى "الذى كان قطز قد ولاه على دمشق، عندما علم

بمقتل قطز، واعلن نفسه سلطانا وتلقب الملك المجاهد، وخطب له فى خطبة الجمعة بدمشق فى ٦ من ذى الحجة سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م؛ ودعا الخطيب فى دمشق للملك الظاهر بيبرس أولاً ثم للملك المجاهد ثانياً، وضربت السكة باسمه إلى جانب اسم السلطان الظاهر فصارت النقود باسمهما. وصار سنجر يركب بشعار السلطنة، ويقلد موكب السلطان أثناء خروجه فى دمشق، كما قام بتجديد قلعة دمشق استعداداً لما قد يشنه بيبرس من هجوم على دمشق. وهددت ثورة الامير علم الدين نفوذ بيبرس فى الشام، لذلك أرسل حملة بقيادة أستاذه "علاء الدين البندقدارى"، ونجحت الحملة فى القبض على الأمير علم الدين سنجر، والقضاء على ثورته وإحضاره إلى القاهرة. وولى بيبرس الأمير علاء الدين على دمشق، وكلفه بالقبض على بعض الأمراء الذين كان بيبرس متخوفا منهم.

ولم تكن فتنة الأمير سنجر الحلبى هى الوحيدة، التى فاجأت الظاهر بيبرس فى بداية حكمه، فقد ثار الأمير شمس الدين أقوش سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م فى بلاد الشام أيضاً، وكان السلطان الظاهر بيبرس قد كلف الأمير علاء الدين البندقدرى بالقبض على الأمراء الذين توهم منافستهم له مثل الأمير شمس الدين اقوش، الذى كان قطز قد ولاه على نابلس وغزة وبعض بلاد الساحل، وانتهز فرصة وفاته، وانقض على حلب واستولى عليها هو وجماعته. ثم اخذ يوطد مركزه فى حلب ويستعد لمواجهة أى هجوم من جانب السلطان الظاهر بيبرس عليه لاستعادة حلب.

وأرسل بيبرس بالفعل جيشاً بقيادة الأمير جمال الدين المحمدى الصالحى ليسترد حلب من الأمير شمس الدين أقوش. ونجحت قوات الظاهر بيبرس فى دخول حلب والاستيلاء عليها، وفر الأمير أقوش إلى الرقة على نهر الفرات، وهناك استطاع أن يحشد جموع من العسكر، عاد بها إلى حلب ثانية، وسيطر عليها للمرة الثانية. وعندما علم الظاهر بيبرس بذلك، عزم على التوجه بنفسه إلى بلاد الشام وعندما وصل دمشق وعهد إلى الأمير علاء الدين البندقدارى بأنه يتولى نيابة حلب ويجهز جيشاً لمحاربة أقوش، ونجح الأمير علاء الدين فى أن يدخل حلب هذه المرة فى ذى القعدة من عام ٦٥٩هـ/١٢٦١م وفر منها الأمير أقوش ثانية.

ولما عاد بيبرس إلى مصر، هاجم أقوش حلب ودخلها وملكها فى المحرم من عام ٦٦٠هـ/١٢٦٢م، فأرسل إليه بيبرس هذه المرة الأمير شمس الدين سنقر الرومى، وطلب من الأمير علاء الدين البندقدارى أن يساعده فى مهمته، وتمكنت قوات بيبرس من دخول حلب وعلى رأسها علاء الدين البندقدارى وفر أقوش منها وطلب من السلطان القدوم إلى مصر، وطلب العفو والصفح، وأرسل أميرا معه كفنه وسيفه، فأذن له بيبرس، وعفا عنه وأكرمه عند قدومه إلى مصر فى ذى الحجة سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م، وولى السلطان نيابة حلب للأمير عز الدين ايدمر الشهابى.

وعلى الرغم من نجاح بيبرس فى القضاء على ثورة علم الدين سنجر وغيرها، الا أنه كان يخشى قيام ثورة أخرى فى بلاد الشام من جانب الأيوبيين، ويبدو أنه كان متخوفا من المغيث عمر الايوبى، صاحب الكرك، بصفة خاصة لذلك تحايل عليه حتى حضر لمقابلته فى بيسان، وعندئذ قبض عليه واعتقله بالقلعة وبذلك تخلص بيبرس من الحركات المناوئة فى بلاد الشام.

أما فى القاهرة فكان على بيبرس أن يواجه ثورة أخرى، وهى ثورة شيعية استهدفت إحياء الخلافة الفاطمية فى مصر، واستولى الثوار على ما حوته دكاكين السيوفية من أسلحة، وشقوا الطريق وهم يصيحون "يآل على". ولكن جند بيبرس أحاطوا بالثوار وقضوا على حركتهم فى سهولة، وبذلك قضى على هذه الثورة وخمدت نار الفتنة.

ثانيا : التقرب إلى العامة والخاصة :-

عمل بيبرس على التقرب من العامة والخاصة على حد سواء وذلك عن طريق تخفيف عبأ الضرائب عن الأهالى، والغى الأموال التى كان قطز قد فرضها واستحدثها بدعوى حرب المغول، كما عفا عن المسجونين من أصحاب الجرائم، وأفرج عنهم وبذلك نجح بيبرس فى أن يكسب محبة العامة والخاصة.

وأهتم بيبرس بعمارة القلاع والأسوار والقناطر والمدارس والمساجد، كما قام

بعدة إصلاحات بالحرم النبوى، وأرسل الكسوة إلى الكعبة المشرفة، كما بعث الصناع والآلات لعمارة قبة الصخرة بالقدس.

ثالثا : بيبرس وإحياء الخلافة العباسية :-

واجه بيبرس عندما أصبح سلطانا على مصر والشام مشكلة أخرى وهى أن العالم الاسلامى أصبح بدون خليفة، فقد اعتاد المسلمون أن يعيشوا فى ظل الخلافة منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، سواء أن كان مقرها المدينة المنورة أم دمشق أم بغداد، وبعد سقوط الخلافة العباسية فى أيدى المغول (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) وجد المسلمون أنفسهم فى حيرة لانهم لا يستطيعون العيش بدون خليفة ، فالخليفة هو الذى يمنح "التقليد " الذى يمكن بموجبه لأى حاكم أن يمارس مهام منصبه، فيقود الجيوش، ويجمع الضرائب، ويكسب حكمه صفة الشرعية. لذلك واجه بيبرس مشكلة هامة وهى من الذى سيمنحه التقليد ليكسب حكمه صفة الشرعية ؟ ومن ثم فكر بيبرس فى نقل الخلافة العباسية إلى مصر.

والحقيقة أن بيبرس لم يكن أول من فكر فى نقل الخلافة العباسية إلى مصر، بل هو أول من نجح فى تنفيذ هذا المشروع، فقد كان " أحمد بن طولون " أول من فكر فى نقل الخلافة إلى مصر، اذ دعا الخليفة العباسى المعتمد للقدوم إلى مصر ليحتمى فيها من تسلط أخيه وشريكه فى الخلافة " الموفق طلحة " وذلك فى عام (٢٦٨ هـ/٨٨١م) . واستجاب الخليفة المعتمد بالفعل لفكرة أحمد بن طولون، ولكن سرعان ما انكشف أمره، وأعاده الموفق طلحة إلى بغداد ثانية، وفشلت بذلك محاولة أحمد بن طولون نقل الخلافة العباسية الى مصر.

ثم فكر" محمد بن طغج الاخشيد" فى تحقيق هذه الفكرة، ليقر دعائم دولته خاصة بعد أن تأزم الموقف بين الخليفة المتقى وبين الحمدانيين والاتراك فى عام (٣٣٣هـ/٩٤٤م).

وحرص الأيوبيون على الحصول على موافقة الخليفة العباسى على تقليدهم وتعينهم، فقد حرص صلاح الدين على استصدار تقليد من الخليفة بتوليته مصر

واليمن وبلاد العرب والشام وما تم على يديه من فتوحات . وكان لهذا التقليد أثره فى تقوية مركز صلاح الدين ونجاحه فى نضاله ضد الصليبيين . كذلك كثيرا ما كان يلجأ سلاطين الأيوبيين إلى الخليفة العباسى عندما ينشب أى نزاع بينهم، وأكثر من ذلك أوصى الملك الصالح نجم الدين أيوب نائبه الأمير حسام الدين بن أبى على الهذبانى بأن يعهد بالبلاد إلى الخليفة العباسى، لانه كان ضعيف الثقة بأبنه تورانشاه.

وسعى سلاطين المماليك كذلك للحصول على موافقة الخليفة العباسى وذلك لتدعيم مركزهم أمام ادعاءات أمراء الأيوبيين، فعندما نصبوا شجر الدر ملكة على مصر، ارسلوا الى بغداد يطلبون موافقة الخليفة العباسى المستعصم، ولكن لم تقبل الخلافة هذا الوضع كما سبق أن ذكرنا وأرسل الخليفة المستعصم إلى القائمين بالأمور فى مصر يقول لهم :"إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا نسير اليكم رجلا " . فما كان منهم الا أن خلعوا شجر الدر وولوا أيبك منصب السلطنة . وعندما أحس أيبك أن الأيوبيين فى الشام قرروا الزحف على مصر وقتال المماليك والقضاء عليهم، اعلن ان البلاد للخليفة العباسى المستعصم، وما هو الا نائبا عنه فيها، وعندما استقرت الامور بين الايوبيين فى الشام وبين المعز أيبك، ارسل المعز أيبك إلى الخليفة العباسى يلتمس تشريفه بالتقليد والخلع أسوة بمن سبقه من حكام مصر.

وبعد سقوط الخلافة العباسية فى بغداد، ومقتل الخليفة العباسى المستعصم على أيدى المغول، فكر المماليك فى نقل الخلافة إلى مصر، فبعد أن انتصر قطز على المغول فى عين جالوت٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، استدعى قطز أحد العباسيين الفارين ويدعى "العباس أحمد " إلى دمشق، وبايعه بالخلافة . وعندما اعتلى بيبرس العرش أحس بأنه فى حاجة ماسة إلى تأييد شرعى لحكمه، وذلك لأسباب عديدة :-

١) أن المماليك بصفة عامة لم يكن لديهم سند شرعي يستندون إليه فى حكم البلاد، فقد شعر المماليك منذ اللحظة الأولى التى تولوا فيها حكم البلاد، أنهم انتزعوه من سادتهم الايوبيين. هذا إلى جانب تجريح المعاصرين للمماليك بسبب أصلهم غير الحر. ومن ثم كان على بيبرس أن يبحث عن قوة تحميه، وتمنحه صفة

الشرعية، فحامي حمى الخلافة لابد وأن يكون صاحب السيادة العليا على ما عداه من ملوك وحكام، وهذا ما كان يتمناه بيبرس.

٢) الثورات التى اعترضت حكم بيبرس فى بدايته سواء فى مصر أم فى الشام، وحاجته الى دعامة يستند إليها سلطانه، خاصة بعد أن نظر إليه المعاصرون على أنه اغتصب منصب السلطنة من المظفر قطز بطل عين جالوت وقاهر المغول.

٣) اراد بيبرس أن يحيط عرشه وعرش من يجيء بعده من سلاطين المماليك بسياج من القداسة والأحترام والتبجيل.

٤) اراد أن يكون له الحق فى الاشراف على الحرمين الشريفين، وأن يجعل القاهرة قبلة للعالم الاسلامى كله، هذا إلى جانب ما يتمتع به من مكانة مرموقة فى نظر الحكام المسلمين.

٥) خوف بيبرس من أن يحظى الحفصيون فى شمال افريقيا بهذا الشرف، فقد فكروا فى أن يقيموا منهم خليفة، وهو "المستنصر الحفصى"، ولقبوا حاكمهم "بأمير المؤمنين"، وادعوا أنهم ورثة العباسيين فى شمال إفريقية، وقد استندوا فى ذلك الى أن الأمير ادريس، شريف مكة، وكذلك أهل الحجاز الذين اعتبروا الخليفة المستنصر الحفصى وريثا للخلافة المنهارة، وأعلنوا تبعيتهم له. وهذا لم يقبله بيبرس لأنه أراد أن يجعل سلاطين المماليك أقوى حكام المسلمين فى ذلك الوقت.

هذه هى الأسباب التى دفعت بيبرس إلى إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة، وإخراج هذه الفكرة إلى حيز التنفيذ الفعلى. فعندما سمع بيبرس بوصول أحد ابناء البيت العباسى إلى دمشق، ويدعى "أبو القاسم أحمد العباسى"، أرسل يستدعيه على الفور، واتخذ كافة الاستعدادات والاحتياطات الأمنية للمحافظة على سلامته وراحته، وما أن أقترب الأمير العباسى من مصر، حتى خرج بيبرس بنفسه للقائه وبصحبته الوزير بهاء الدين بن حنا والقاضى تاج الدين بن بنت الاعز وسائر الأمراء وجمهور الأعيان وجميع العسكر، كذلك خرج فى شرف استقباله اليهود حاملين التوراة، والنصارى حاملين الانجيل. وحين تقابل الظاهر بيبرس مع الامير العباسى

ترجل له وعانقه، وسار الأمير العباسى وهو مرتديا شعار بنى العباس وبصحبته السلطان الظاهر إلى قلعة الجبل.

وفى القلعة عقد السلطان الظاهر مجلسا عاما، حضره قاضى القضاة ابن بنت الاعز والقضاة والعلماء وسائر أرباب الدولة، ليشهدوا بصحة نسب هذا الامير العباسى، وفى هذا المجلس شهد العربان -وكانوا من عرب خفاجه الذين حضروا من دمشق بصحبة الأمير العباسى - بأن نسبه يتصل بالعباس بن عبد المطلب، وقبل قاضى القضاة هذه الشهادة، وعندئذ قام السلطان الظاهر بيبرس وبايع الامير أحمد بالخلافة، بايعه على كتاب الله وسنة رسوله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والجهاد فى سبيل الله، وأخذ الاموال بحقها وصرفها فى مستحقها، وتبعه بالمبايعة القضاة والعلماء، ثم بايعه سائر الناس. ونقش اسمه على السكة، وأمر بالدعاء له على منابر المساجد فى الخطبة، فيذكر اسمه اولا ثم اسم السلطان الظاهر بيبرس، ولقب الخليفة الجديد بـ "المستنصر بالله". وبذلك تم إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة، بعد أن ظل العالم الاسلامى بلا خليفة طيلة ثلاث سنوات ونصف.

واذا كان بيبرس قد أدى دوره وأحيا الخلافة العباسية، فيبقى دور الخليفة نفسه، إذ كان عليه أن يقوم بتقليد السلطان الظاهر بيبرس حكم البلاد، وحدث ذلك بالفعل فى عام ٦٥٩ هـ/١٢٦١م فى حفل كبير حضره قاضى القضاة والقضاة والعلماء والامراء. وفى هذا الحفل نصب منبر وصعد عليه "فخر الدين بن لقمان" صاحب ديوان الانشاء، وقرأ تقليد الخليفة المستنصر بالله للسلطان الظاهر بيبرس، كما خلع الخليفة على السلطان الظاهر خلعة السلطنة، وهى عبارة عن جبة بنفسجية اللون، وعمامة سوداء، وطوق ذهب، وسيف. ولبس السلطان الظاهر بيبرس الخلعة، وبذلك تم له ما أراد، وأصبح يتولى منصب السلطنة بتفويض من السلطة الشرعية الكبرى فى العالم الاسلامى وهى الخلافة.

على أن بيبرس سرعان ما أحس أنه أوجد له شريكا فى الحكم، اذ أن النقود صارت تضرب باسم الخليفة والسلطان معا، وأصبح اسم الخليفة يذكر فى الخطبة على جميع منابر المساجد يوم الجمعة قبل أسم السلطان، ولم يغب عن بيبرس أنه

لو حدث صدام بينه وبين الخليفة، فأن كفة الخليفة ستكون الراجحة، وذلك لأن الرأى العام فى العالم الإسلامى سيقف حتما إلى جانب الخلافة، باعتبارها السلطة الشرعية الأولى فى حكم المسلمين، منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولذلك بدأ بيبرس يفكر فى التخلص من الخليفة المستنصر، بعد أن حصل منه على التقليد بالسلطنة.

فى بداية الأمر ادعى بيبرس أنه يريد إعادة أحياء الخلافة العباسية فى بغداد، واستردادها من أيدى المغول، وبالفعل تجهز الخليفة للسير إلى بغداد بصحبة بيبرس وعدد من الفرسان، على أن بيبرس ما لبث أن ترك الخليفة عند دمشق ليتابع السير إلى بغداد وحده مع قلة من الفرسان، بلغ عددهم ثلاثمائة فارس، وتقدم الخليفة المستنصر بمن معه من فرسان حيث التقى بالمغول، الذين قضوا على جيشه قضاء مبرما، ولم ينج من هذا الجيش الا عدد قليل منهم أبو العباس أحمد، الذى شارك الخليفة الهجوم على المغول، أما الخليفة المستنصر فقد لقى حتفه.

واختلفت آراء الباحثين حول موقف بيبرس من تلك الواقعة، فيرى فريق أن بيبرس كان قد أعد بالفعل لتلك الحملة، وانفق أموالا كثيرة، واشترى مائة مملوك كبارا وصغارا، ورتب للخليفة كل ما يحتاج اليه . لذلك ما أن علم بمصير الخليفة حزن حزنا شديدا، وأبدى أسفه على ما أنفقه من أموال من أجل الإعداد لتلك الحملة. وينكر هذا الفريق القول بأن بيبرس أراد بتلك الحملة الخلاص من الخليفة العباسى، لانه لو اراد الخلاص منه فأنه لم يكن ليعجز عن التفكير فى حل أفضل من إرسال الخليفة ليلقى حتفه. والدليل على ذلك أن بيبرس سوف يسعى لتنصيب خليفة جديد.

أما الفريق الثانى من الباحثين فيرى أن بيبرس اراد بالفعل التخلص من الخليفة المستنصر، والا لماذا ارسل معه قوة صغيرة تقدر بثلاثمائة فارس فقط، وهى قوة يتعذر معها الصمود فى وجه المغول. فضلا عن أن بيبرس ترك الخليفة عند دمشق بمفرده ليتابع السير إلى بغداد.

ويمكن التوفيق بين الرأيين، عن طريق القول بأن بيبرس كانت نواياه طيبة تجاه الخليفة المستنصر فى أول الأمر، وأنه كان جادا فى إحياء الخلافة العباسية

فى بغداد حتى آخر لحظة، وحتى وصل إلى دمشق مع الخليفة، فقد عزم على أن يمده بعشرة آلاف فارس، ولكن بعض أعوانه -كما يذكر المقريزى- اشاروا عليه بالا يفعل ذلك، لان المستنصر اذا استقر فى بغداد فسوف ينازعه ويخرجه من مصر لذلك رجع عما عزم عليه ولم يرسل للخليفة الا ثلاثمائة فارس، بعد أن ادرك خطورة إحياء الخلافة فى بغداد، ورأى من الاوفق أن تظل تلك الخلافة تحت إشرافه فى القاهرة.

وكان على بيبرس أن يمضى فيما بدأه من مشروع إحياء الخلافة حتى النهاية، خاصة بعد أن أصبح ملتزما أمام الرأى العام الاسلامى بالاستمرار فى مشروعه، لذلك استدعى بيبرس أمير عباسى آخر وهو "أبو العباس أحمد " إلى القاهرة وأحسن استقباله وبايعه بالخلافة، ولقب الخليفة الجديد "بالحاكم بأمر الله" وذلك فى عام ٦٦٢/ ١٢٦٣م وبذلك تم احياء الخلافة العباسية مرة أخرى فى القاهرة ولكن حرص السلطان الظاهر فى هذه المرة على الحد من نفوذ الخليفة الجديد عن طريق ما يلى :-

- لم يترك بيبرس للخليفة الجديد الفرصة للظهور وتأكيد نفوذه على حساب السلطنة.
- استحضر بيبرس عدد من أمراء بنى العباس للتلوح بهم فى وجه الخليفة الحاكم بأمر الله اذا حدثته نفسه بالخروج عن الدائرة التى رسمها له السلطان.
- أسكن بيبرس الخليفة الجديد فى أبراج القلعة حتى يكون قريبا منه وتحت سمعه وبصره، وبذلك لا يخشى بأسا منه.
- أصبحت سلطة الخليفة دينية فحسب، أى يذكر اسمه فى الخطبة على منابر مصر والبلاد التابعة لها، فيما عدا جامع السلطان بالقلعة، فيذكر على منبره اسم السلطان فقط فى الخطبة.
- سمح بيبرس فى بداية الامر بنقش اسم الخليفة على السكة ولكنه عاد واسقطه ثانية، وبقى فقط فى الخطبة.

وعلى هذا النحو حد بيبرس من نفوذ الخليفة العباسى فى القاهرة، وأصبح

دور الخليفة قاصرا على تقليد السلطان الجديد مهام منصبه، وزيارة الأمراء والأعيان والقضاة والعلماء والكتاب وتهنئتهم بالأعياد والشهور . وقد صور المقريزى الوضع الجديد للخليفة العباسى بقوله "أن الخلافة ليس فيها أمر ولا نهى، وانما حظ الخليفة أن يقال له أمير المؤمنين ". وبذلك لم تجن الخلافة العباسية شيئا من جراء إحيائها فى القاهرة، بل كان المستفيد الأول هم سلاطين المماليك، اذ أصبح لهم منذ ذلك الحين وحتى سقوط دولتهم فى عام٩٢٣هـ/ ١٥١٧م المقام الاسمى على كل حكام العالم الاسلامى، بأعتبار أنهم حماة الخلافة والمتمتعون ببيعتها، كذلك أصبح للقاهرة مكانة سياسية تفوق كل عواصم العالم الاسلامى، اذ أمست مقر الخلافة التى يدين لها العالم الاسلامى أجمع بالولاء الروحى.

سياسة بيبرس الخارجية :-

أولا : علاقة بيبرس بالمغول :-

تتسم علاقة بيبرس مع المغول بكونها علاقة مودة ومحبة وعلاقة عداء فى آن واحد، فقد ارتبط بيبرس بعلاقة المودة والمحبة مع دولة مغول القفجاق أو مغول القبيلة الذهبية، التى اقامت فى القوقاز وجنوب روسيا وشمال البحر الاسود، وكانت تعيش فى خيام ذهبية اللون، ولذا سمى هؤلاء المغول بهذا الاسم تميزا لهم عن دولة مغول فارس التى قامت على أثر سقوط بغداد فى أيديهم عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، وقد اعتنق مغول القفجاق الاسلام، وكانوا يحملون كل مودة ومحبة للمسلمين، واشتد العداء بينهم وبين بنى عمومتهم مغول فارس لهذا السبب.

ارتبط بيبرس مع مغول القفجاق بعلاقات ودية وبصداقة ومحبة، فتزوج بيبرس من أبنة خانهم " بركة خان "، وخطب بيبرس لبركة على منابر المساجد فى القاهرة ومكة والمدينة وبيت المقدس، وتبادل معه الهدايا والسفارات، وقد بلغ عدد السفارات المتبادلة بين المماليك ومغول القفجاق ما يقرب من أربعين سفارة منها تسعة فى عهد السلطان الظاهر بيبرس . ويرجع حرص بيبرس على إقامة هذه العلاقات الودية مع مغول القفجاق الى : -

١-أن بلاد القفجاق كانت الموطن الرئيسى للمماليك، والذى يضمن بيبرس عن طريقه وصول شحنات من المماليك بصفة مستمرة فقد كان الجيش المملوكى فى حاجة ماسة إلى هؤلاء المماليك، بسبب كثرة الحروب بين المماليك والصليبيين وبينهم وبين المغول من ناحية، والثورات الداخلية بين المماليك انفسهم من ناحية أخرى، ومن ثم كانت دولة المماليك فى حاجة ماسة دائما لجلب المماليك من أجل تجديد شباب الجيش المملوكى وتعويض الخسائر فى الأرواح التى تنجم عن الثورات الداخلية.

٢- أراد بيبرس أن يحول بين مغول القفجاق وبين التعاون والتحالف مع بنى عمومتهم مغول فارس.

٣- حتى يضمن بيبرس عدم انضمام مغول القفجاق إلى الصليبيين عند صراعه معهم.

وكان من نتائج علاقة الصداقة التى ربطت بيبرس بمغول القفجاق أن لجأ إلى مصرفى عهد بيبرس عدد كبير من أفراد القبيلة الذهبية (القفجاق)الفارين من هولاكو، فأكرمهم بيبرس كل الإكرام، فاعتنقوا الإسلام، وادخل عددا منهم جنودا فى جيشه، وقد شجع هذا الإكرام الكثير من مغول القفجاق على القدوم إلى مصر والالتحاق بجيشها . وكونوا فرقة خاصة عرف باسم "الوافدية" وكان أغلب أفراد هذه الفرقة من المغول، جاء أغلبهم إلى مصر فى عهد الظاهر بيبرس والعادل كتبغا.

بدأت حركة الوافدية فى أواخر العصر الأيوبى، وظلت مستمرة متتابعة نحو سبعين إلى ثمانين سنة فى العصر المملوكى الأول، وكانت أول جماعة من الوافدية المغولية وصلت إلى مصر فى عهد بيبرس عام ٦٦٠هـ/١٢٦٢م وكانت تتكون من مائتى فرد بما فيهم النساء والأطفال، وكان هؤلاء جزءا من قوة حربية أرسلها بركة خان لمساعدة هولاكو، فلما ساءت العلاقات بين الرجلين وقامت الحرب بينهما، أمر بركة قواته بالعودة إليه، فإن وجدوا صعوبة يذهبون إلى الأراضى المملوكية، وقد اتجهوا فعلا نحو مصر، ولما علم بيبرس بوصولهم خرج لمقابلتهم بنفسه، وأكرمهم، وأمر بعضهم، وألحق البعض الآخر جنودا بالفرقة البحرية.

وشجعت هذه المعاملة الكريمة المغول الآخرين على الانضمام إلى الجيش المملوكي، فخلال عامي ٦٦١هـ/١٢٦٣م و ٦٦٢هـ/١٢٦٤م وصلت مجموعات جديدة تضم آلاف من المغول ومعهم كثير من أمراء العرب من قبيلة خفاجة، وخرج السلطان بيبرس كذلك لمقابلتهم بنفسه، وأنعم عليهم بالامريات، وأنزلهم في العاصمة القاهرة - وتتابع وصول الوافدية إلى مصر حتى بعد عهد السلطان الظاهر بيبرس حتى بلغ الذروة في عهد العادل كتبغا على نحو ما سنرى.

أما عن علاقة بيبرس مع مغول فارس فكانت علاقات عدائية، اذ ادرك بيبرس منذ اللحظة الأولى أن المغول لابد وان يسعوا للاخذ بثأرهم لما حدث لهم على يد المماليك بعد معركة عين جالوت .وقد صدق حدسه إذ لم يكد يعلم المغول بموت قطز، حتى أغاروا على " البيرة " ٦٦٣هـ/١٢٦٥م -وهي قلعة هامة على نهر الفرات-بقيادة بيدرا، وذلك بهدف الاستيلاء عليها، وأظهر بيبرس همة كبيرة نحو خطر المغول، فأرسل الجيوش إلى الشام على دفعات، ثم سافر بنفسه على رأس الفوج الأخير إلى بلاد الشام.

وعندما وصل بيبرس إلى دمشق، جاءته أخبار بفرار المغول أمام الامدادات التي ارسلها الى البيرة مع الملك المنصور صاحب حماه، تاركين أموالهم وعددهم. ومع ذلك فقد تابع بيبرس سيره إلى البيرة، وقام بتحصينها وتزويدها بالسلاح والمؤن حتى يمكنها أن تتحمل حصارا طويلا، فقد علم أن مغول فارس ارادوا اتخاذها مركزا وقاعدة لعبور بلاد الشام.

وسرعان ما مات هولاكو خان مغول فارس في عام ٦٦٣هـ/١٢٦٥م في فارس، وخلفه أبنه " أبغا "أو (اباقا) (٦٦٣-٦٨٠هـ/١٢٦٥-١٢٨٢م) وورث ابغا عن أبيه الحقد والكراهية للدول الإسلامية، وكان يأمل أن يحقق نصرا كبيرا على المماليك، وأن يدخل القاهرة ويقضي على دولة المماليك اذا استطاع إلى ذلك سبيلا كما دخل أبوه بغداد وقضى على الخلافة العباسية بها .كذلك حاول ابغا أن يدعم علاقاته بالقوى المسيحية في الشرق والغرب للانتقام من المسلمين في مصر والشام، فارتبط ابغا (اباقا) بعلاقات ودية مع الامبراطور البيزنطي "ميخائيل

باليولوجوس " (١٢٦١-١٢٨٢م) وتزوج من إحدى بناته وهي "ماريا".وكان مقررا أن يتزوجها هولاكو، غير أنها عندما وصلت إلى فارس كان هولاكو قد مات، فتزوجها أبنه ابغا، وعرفت باسم "ديسبينا خاتون".

على أن الأحوال الداخلية والخارجية التي عانت منها دولة مغول فارس، أجبرت ابغا على مصالحة الظاهر بيبرس، وعدم الاستمرار في مناصبة المسلمين في مصر والشام العداء، لذلك سارع ابغا بارسال سفارة إلى بيبرس تحمل له الهدايا، وتطلب الصلح، وكانت السفارة تحمل رسالة لبيبرس يطلب فيها ابغا مصالحة بيبرس، غير أنها كانت ذات لهجة تهديدية اذ جاء فيها " أنت لو صعدت إلى السماء، أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحا".

ولكن بيبرس رفض مصالحة ابغا(اباقا) والمغول، اذ لم يرض على نفسه أن يصالح المغول الذين مزقوا العالم الاسلامي، وقتلوا خليفة المسلمين، ودمروا بغداد حاضرة الخلافة العباسية، وفعلوا بأهلها ما يتنافى مع قواعد الإنسانية والرحمة، كما حالفوا أعداء الإسلام. لذلك رفض بيبرس طلب ابغا(اباقا) الصلح، وأعلن أنه لن يكف عن المغول حتى يسترد منهم جميع البلاد التي اغتصبوها من المسلمين. .

ورغم رفض بيبرس عقد الصلح مع ابغا(اباقا)، إلا أن ابغا عاد بعد ثلاث سنوات وأرسل رسولا إلى بيبرس في عام ١٢٦٨م يكرر طلب الصلح، وفي هذه المرة وسط أبغا (اباقا) ملك أرمينية الصغرى في طلب الصلح، وجاءت لهجة الخطاب الذي أرسله أبغا (اباقا) مع رسوله هذه المرة مزيج من التهديد والترغيب، بل عمد ابغا (اباقا) إلى تجريح السلطان بأصله غير الحر، وعمل على الحط من قدره بين الملوك، اذ جاء على لسان رسول أبغا أثناء حديثه مع السلطان : " أنت مملوك أبعت في سيواس، فكيف تشاقق الملوك، ملوك الارض". ورفض بيبرس الصلح مع أبغا وقال لرسوله : "أعلم أني وراءه بالمطالبة، ولا ازال انتزع من يده جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الارض ".

ويأس أبغا(اباقا) من عقد الصلح مع بيبرس، ولذلك واصل إغاراته على بلاد الشام، وتحالف مع الصليبيين، واتفق معهم على القيام بهجوم مشترك على

ثم وضع بيبرس لنفسه خطة تنم عن ذكاء فذ، وتتلخص هذه الخطة فى عقد سلسلة من التحالفات مع كل القوى الإسلامية والمسيحية المحيطة به وبالصليبيين، فعقدت اتفاقيات مع ميخائيل باليولوجوس أمبراطور الدولة البيزنطية، ومع مانفرد امبراطور الدولة الرومانية المقدسة، ومع الجمهوريات الإيطالية فضلاً عن بركة خان زعيم مغول القبجاق ومع سلطان سلاجقة الروم؛ وذلك حتى يمنع هذه القوى من أن ترسل أو تسمح بمرور أى إمدادات إلى الصليبيين من ناحية، وليستعين بهذه القوى لمنع أى تحالف بين المغول والصليبيين من ناحية أخرى، ولإيقاف جيوش المغول أن حاولت التقدم لمساعدة الصليبيين من ناحية ثالثة، فضلا عن ذلك فإنه يضمن حياد هذه القوى جميعا، ويأمن شرها.

وفى عام٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م بدأ بيبرس حربه الشاملة ضد الصليبيين، ونجح فى الاستيلاء على (قيسارية، وأرسوف)، التى استسلمت بعد مقاومة شديدة . وفى العام التالى (٦٦٤هـ/١٢٦٦م) قاد بيبرس جيشا كبيرا، واتجه إلى قلعة "صفد"، وحاصرها، فلم يمض الا ثلاثة أسابيع حتى اشتد الضيق بالفرنج المحاصرين، وعجزوا عن المقاومة، فاستسلموا وسقطت القلعة، وأمن بيبرس من بها وسمح لهم أن يخرجوا سالمين، ويرحلوا إلى عكا، بشرط أن لا يأخذوا شيئا من سلاحهم، ولكنهم نقضوا العهد، وحملوا أسلحتهم ومتاعهم عند خروجهم من القلعة ومغادرتهم لها، بل وصحبوا معهم بعض المسلمين أسرى، بعد أن ألبسوهم ملابس الصليبيين، وعلم بيبرس بما فعلوا، فغضب لذلك، وأمر بالقبض على حامية القلعة، وضرب أعناقهم على تل بالقرب من صفد، واستولى بيبرس على مدينة صفد بعد أن خرب قلعتها، ثم أعاد بنائها فى العام التالى، لما لها من أهمية حربية . واتبع بيبرس استيلاءه على صفد بالاستيلاء على كل من هونين وتبنين والرملة.

وأرسل بيبرس فى نفس العام (٦٦٤هـ/١٢٦٦م)جيشا بقيادة الأمير قلاوون إلى ارمينية الصغرى اذ لم ينس بيبرس موقفها وموقف ملكها هيثوم الأول وتحالفه مع المغول ضد المسلمين، وحثهم على غزو بلاد الشام. واستطاع الجيش المملوكى بقيادة قلاوون أن ينزل بالأرمن وحلفائهم هزيمة كبرى قرب "دربساك" فى

أغسطس من نفس العام، وقتل فى المعركة أحد أبناء هيثوم، وأسر الابن الثانى، فى حين كان هيثوم نفسه متغيبا عن بلاده، اذ كان فى زيارة لمغول فارس. وقد دمرت جيوش بيبرس فى هذه الحملة مدن ارمينية الصغرى الرئيسية وبخاصة " أذنة، وطرسوس، والمصيصة "، واشعل المماليك النيران فى عاصمتها "سيس"، وعادوا محملين بكميات كبيرة من الغنائم، وعدد ضخم من الأسرى.

وقد ترتب على هجوم المماليك على أرمينية الصغرى نتائج هامة من بينها:-

- أصبح دور أرمينية سلبيا بعد ذلك فى الأحداث التى جرت على مسرح الشرق الادنى.
- اضطر هيثوم ملك أرمينية إلى التنازل عن العرش لابنه الثالث ويدعى " ليو الثالث ".

وتوج بيبرس انتصاراته على الصليبيين أخيرا بالاستيلاء على انطاكية فى عام٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م، وكان بيبرس قد اتخذ من حماة قاعدة لهجومه على انطاكية، ثم قام بتقسيم جيشه الى ثلاث فرق :-

الفرقة الاولى اتجهت نحو ميناء السويدية لتقطع الصلة بين انطاكية والبحر.

و**الفرقة الثانية** توجهت إلى دربساك لتسد الممرات بين قيليقية والشام وتمنع بذلك وصول الإمدادات أو المساعدات لانطاكية عن طريق ارمينية الصغرى.

أما **الفرقة الثالثة** فتمثل القوة الرئيسية، التى تولى بيبرس قيادتها، وقام معها بالهجوم على انطاكية. ويصف ابن عبد الظاهر ذلك الهجوم بقوله : "وأطافت العساكر على انطاكية من كل جانب، وتسور المسلمون الأسوار من جهة الجبل بالقرب من القلعة، ونزلوا المدينة، ففر أهلها إلى القلعة، ووقع النهب والقتل والأسر فى المدينة" وما لبثت انطاكية أن سقطت فى أيدى المماليك، بعد أن عجزت عن المقاومة، ودخلها المماليك و حصلوا منها على غنائم طائلة.

أما عن النتائج التى ترتبت على سقوط إنطاكية فى أيدى المسلمين٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م فكانت على درجة كبيرة من الأهمية، وذلك لأن انطاكية كانت ثانى

الإمارات الصليبية فى الشرق بعد الرها، ومن ثم كان استيلاء المماليك عليها دليلا على انهيار البناء الذى أقامه الصليبيون فى بلاد الشام. كما أنه لم يبق للصليبيين بعد سقوط انطاكية من مدن كبرى سوى طرابلس وعكا.

ولم تقتصر حركة الجهاد التى قام بها بيبرس ضد القوى المسيحية فى الشرق على أرمينية، والصليبيين فى بلاد الشام، ولكنها أمتدت إلى جزيرة قبرص، ففى عام ١٢٦٩م توج " هيو الثالث لوزنيان" ملك قبرص ملكا على مملكة بيت المقدس فى عكا، وأخذ يعمل على تقوية جبهة الصليبيين فى الشام، ونقم بيبرس على قبرص لجهود ملكها هيو الثالث فى توحيد القوى الصليبية فى بلاد الشام من ناحية، ولاعتداء أهل قبرص وقراصنتها على السفن الاسلامية فى شرق البحر المتوسط من ناحية أخرى، لذلك ارسل بيبرس اسطولا فى عام٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م لغزو جزيرة قبرص، يتكون من سبع عشرة سفينة ولكن فشلت هذه الحملة بسبب ريح عاصفة هبت على السفن الاسلامية قرب شاطىء قبرص، وحطمت عددا كبيرا منها، وعاد الباقى خاسرا . وارسل هيو إلى بيبرس رسالة يتباهى فيها بانتصاره على أسطول مصر، فأجابه بيبرس برسالة أخرى هون فيها من قيمة هذا النصر، وأشاد فيها بانتصاراته الكثيرة والحاسمة على قوى الصليبيين وحصونهم بالشام وفيها يقول : "ما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب، والاستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب... وما النصر بالهواء مليح، إنما النصر بالسيف هو المليح...".

واستأنف بيبرس نضاله ضد الصليبيين فى عام ٦٦٩هـ/١٢٧١م، وبدأ بالهجوم على بعض المدن التابعة لإمارة طرابلس، إذ كانت الهدف التالى بعد انطاكية، وكانت إمارة طرابلس قد أرسلت إلى بيبرس تطلب الصلح وفتح باب المفاوضات، واستجاب بيبرس لطلبها، وأرسل وفدا لمفاوضة صاحبها، ويقال أن بيبرس نفسه رافق هذا الوفد متخفيا فى زى خادم ليتعرف أثناء مقامه فى طرابلس على تحصيناتها وأحوالها تمهيدا لحصارها فيما بعد.

كذلك ارسلت مدينة عكا إلى بيبرس تطلب الصلح والمفاوضة، وقدم رسلها

الى دمشق لمفاوضة السلطان، واتفق الطرفان على عقد الصلح بشرط أن تكون عكا مناصفة بين بيبرس والصليبيين، ولكن لم يقبل صاحب عكا هذا الاتفاق، وما لبث أن وصلت إلى عكا حملة صليبية صغيرة بقيادة الأمير "ادوارد الانجليزى" ولكنها لم تستطع أن تفعل شيئا مذكورا لمساعدة الصليبيين فى الشام، وانتهى الامر بعقد هدنة لمدة عشر سنوات بين الصليبيين وبين بيبرس، وقبل بيبرس عقد الهدنة خشية أن تكون هذه الحملة مقدمة لحملة صليبية كبيرة.

وكان لانتصارات بيبرس المتتالية أثرها القوى فى نفوس الشعب العربى فى مصر والشام، فاعجب ببطولة بيبرس وراح يتغنى بشجاعته وانتصاراته، والف أديب مصرى مجهول "سيرة الظاهر بيبرس" فكانت ملحمة للبطولة، ظلت قرونا يتغنى بها الشعراء والقصاص فى المقاهى ومجالس السمر ليثيروا النخوة والعزة والبطولة فى نفوس الشعب.

بيبرس والبيزنطيون :-

حدث فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر نوع من التقارب بين المماليك والبيزنطيين، وساعد على هذا التقارب الاخطار الخارجية التى واجهها كل منهما، ممثلة فى الصليبيين والمغول. فبالنسبة للدولة البيزنطية فقد تعرضت للحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٤م) ونجح الصليبيون فى الاستيلاء على عاصمتها القسطنطينية، وأسسوا بها امبراطورية لاتينية، استمرت حتى عام ١٢٦١م، حينما نجح ميخائيل الثامن باليولوجوس (١٢٦١-١٢٨١م) فى استعادة القسطنطينية ثانية، وطرد الصليبيين منها. ولكن لم يعن ذلك ان البيزنطيين استراحوا من الخطر الصليبي، بل ظل وجود الصليبيين فى بلاد الشام خطرا يتهددهم، فضلا عن أنهم كانوا مهددين بحملة صليبية هدفها اعادة الإمبراطورية اللاتينية ثانية الى القسطنطينية.

أما بالنسبة للمغول، ونقصد هنا مغول فارس، فبعد أن توسعوا على حساب سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى، بدأوا يهددون أطراف الدولة البيزنطية. كذلك تعرض المماليك - كما سبق أن ذكرنا - لخطر المغول، ونجحوا فى التصدى لهذا

الخطر فى معركة عين جالوت، ثم سعى المغول إلى الأخذ بالثأر من المماليك محاولين الاستيلاء على بلاد الشام، فحال المماليك بينهم وبين تحقيق هذا الهدف، خشية أن يتحالفوا مع عدوهم الأخر ممثل فى الصليبيين . فقد عانى المماليك كذلك من خطر الصليبيين الذين كانوا يسعون دائما لحث الغرب الأوروبى على ارسال حملات باستمرار لمهاجمة مصر.

وعلى هذا النحو يتضح أن هناك أسباب قوية أدت إلى حدوث نوع من التقارب بين المماليك فى مصر والشام وبين البيزنطيين، فقد أمل كل منهما فى أن يجد فى الأخر عونا له فى القضاء على العدو المشترك.

وبادر بيبرس باتخاذ أولى خطوات هذا التقارب، وكان يحدوه إلى ذلك هدفين هما :- الأول : جلب الرقيق وشراءهم من اسواق القرم وجنوب روسيا.

والثانى : استمرار علاقات المودة والصداقة التى كانت تربط المماليك بمغول القفجاق.

وبالنسبة لهدف بيبرس الأول، فمن المعروف أن الرقيق هم دعامة الجيش المملوكى، بل هم القوة الرئيسية التى اعتمد عليها المماليك فى الحرب والسلم، وكما سبق أن ذكرنا أن الجيش المملوكى كان فى حاجة ماسة دائما إلى دم جديد عن طريق شراء هؤلاء الرقيق، حتى يستطيع التصدى للصليبيين والمغول من ناحية، والثورات الداخلية وحوادث القتل والاغتيال من ناحية أخرى. ونظرا لأن المغول كانوا يسيطرون على الطريق البرى الذى يوصل إلى القرم وجنوب روسيا حيث أسواق الرقيق، لذلك لم يعد أمام بيبرس سوى القسطنطينية التى يمكن عن طريقها الوصول إلى تلك الاسواق.

أما الهدف الثانى لبيبرس وهو الحرص على استمرار علاقات المودة والصداقة مع مغول القفجاق، فقد كانوا مسلمين، وتزوج منهم بيبرس، ونظرا لان مغول فارس كانوا يسيطرون على الطريق البرى الموصل إلى جنوب روسيا، فقد أصبح من المتعذر على بيبرس الاتصال بهم الا عن طريق عبور مضيقى البوسفور والدردنيل، وهما يتبعان الأمبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن باليولوجوس (١٢٦١-١٢٨١م). لذلك رأى بيبرس أن يفتح باب المفاوضات مع الامبراطور البيزنطى، ويحصل منه على أذن بعبور المضيقين حتى يتسنى له شراء الرقيق، والاتصال بحلفائه مغول القفجاق.

ورحب الأمبراطور ميخائيل كل الترحيب بما طلبه بيبرس، وأعطاه تصريحا بعبور المضايق والذهاب إلى القرم وجنوب روسيا، وتذكر المصادر البيزنطية وعلى رأسها "جريجوراس "أن سلطان مصر كان يرغب فى مصادقة امبراطور الروم، وأرسل سفراء إليه، يطلب صداقته، وأن يسمح للمصريين بعبور المضايق الامبراطورية مرة فى كل عام، ولبى الأمبراطور طلبه، وأذن له وسمح بذلك. وفى كل عام كان المصريون يعبرون بسفينة أو سفينتين المضايق - وأصبحت هذه عادة -تحمل المؤن وتعود محملة بالرقيق ومتجهة إلى مصر.

أما المصادر العربية فتذكر رد الأمبراطور البيزنطى ميخائيل على سفارة بيبرس، وجاء فيه أن الامبراطور ارسل بدوره سفارة إلى بيبرس، يعرب فيها عن رغبته فى صداقة السلطان ومودته، وأنه على أتم إستعداد لتقديم يد العون والمساعدة لبيبرس اذا طلب تلك المساعدة، كما طلب الأمبراطور على لسان رسوله أن يرسل السلطان الظاهر بطريركا للملكانيين ليرعى شئون الطائفة الملكانية فى القسطنطينية.

ولبى بيبرس طلب الامبراطور ميخائيل، وأرسل سفارة مكونة من سفيرين هما: فارس الدين أقوش المسعودى والبطريرك رشيد الدين الكحال، واتجهت هذه السفارة إلى القسطنطينية، فأحسن ميخائيل استقبالها، وأكرم البطريرك رشيد الدين ومن صحبه من الأساقفة، ثم أصطحب رسول بيبرس وهو فارس الدين أقوش فى جولة بالقسطنطينية، اطلعه خلالها على جامع القسطنطينية، وكيف أنه أعاد تجديده بعد أن خربه الصليبيون، ليصلى فيه المسلمون المقيمون فى القسطنطينية، أو المارون بها من تجار وصناع، ليؤكد بذلك صداقته لبيبرس.

وعادت سفارة بيبرس إلى مصر، وكان ميخائيل قد حملها بالهدايا من مال وفير، وذهب ومصوغ من فضة، وقماش؛ وقدم البطريرك رشيد الدين هذه الهدية للسلطان، فمنحه السلطان أياها، اما فارس الدين أقوش فقد أبلغ السلطان ما يتعلق بأمر جامع القسطنطينية، وأن الأمبراطور أوقف ثوابه للسلطان، فسر السلطان

ذلك، وأرسل للمسجد السجاجيد والستائر والقناديل المذهبة، وماء الورد والعنبر والمباخر والمسك والحصر وغيرها.

واستمرت العلاقات الودية تربط بين بيبرس وميخائيل، كما استمر تبادل السفراء بين بيبرس وبين مغول القفجاق، وكان هؤلاء السفراء يعبرون الأراضي البيزنطية فى أمن وأمان إلى بلاد بركة خان مغول القفجاق، بل كان الأمبراطور البيزنطى ميخائيل يحسن استقبالهم، ويقوم على خدمتهم، واكثر من ذلك كان الامبراطور يكتب للسلطان فى مصر يخبره برحيل السفراء إلى بلاد بركة، حتى يبعث فى نفسه الطمأنينة . وردا على ذلك نجد بيبرس يستقبل رسل " الاشكرى " أى الامبراطور البيزنطى ميخائيل بحفاوة بالغة، ويحسن إليهم ويكرمهم عندما يأتون اليه.

على أن العلاقات ما لبثت أن ساءت بين بيبرس وميخائيل، فقد حدث أن ارسل بيبرس سفارة فى عام ٦٦١هجرية إلى القفجاق، تتألف من رسولين هما : فارس الدين أقوش وعماد الدين عبد الرحيم ومعها هدية عظيمة لبركة خان، وعندما وصل الرسل إلى القسطنطينية علموا بأن ميخائيل غائب عنها، وأنه خرج لقتال البلغار، وعندما علم ميخائيل بمجيئهم، استدعاهم ووعدهم بالمساعدة فى عبور اراضيه والوصول الى بركة خان، ولكنه ما لبث ان نكث وعده وأخرهم فى بلاده لمدة ثلاثة شهور، بعدها طلبوا منه أما ان يسمح لهم بالعبور وأما أن يسمح لهم بالعودة الى مصر . ويرجع سبب إعاقة ميخائيل لسفارة بيبرس الى أن ميخائيل عقد تحالف مع هولاكو، واتفق معه على أن يزوجه أحدى بناته، فوقع اختيار هولاكو على ماريا أبنة الامبراطور لتكون زوجة له، كما أن مغول القفجاق حلفاء بيبرس تابعوا شن اغاراتهم على الاراضى البيزنطية.

وعندما علم بيبرس باعاقة رسله عن الرحيل إلى بلاد بركة خان، استشاط غضبا، واستدعى رجال الدين المسيحى، وسألهم عن عقاب من يحنث فى يمينه، فأجابوه الحرمان، وعندئذ اخرج بيبرس نص اتفاقه مع ميخائيل، وقال : "نكث بإمساك رسلى، ومال الى جهة هولاكو ". وجهز بيبرس سفارة من رجلين من الاساقفة، وارسلها الى ميخائيل لكى تصدر ضده قرار الحرمان، وأعطى بيبرس السفارة خطاب جاء فيه ما معناه، أنه اذا كان السبب فى إعاقة الرسل هو إغارات بركة على الاراضى البيزنطية، فأنه على أتم استعداد لأن يتوسط له عند بركة خان ليكف عن شن تلك الاغارات . ويظهر من ذلك مدى حرص بيبرس على صداقة ميخائيل.

وحاول ميخائيل أن يجد نوعا من التوازن فى علاقته مع مغول فارس من ناحية، والتحالف المملوكى القفجاقى من ناحية أخرى، فهو لا يستطيع أن يغامر بفض التحالف بينه وبين هولاكو وأبنه أبغا، كما أنه لايرغب فى أن يعرض بلاده للتخريب والتدمير على يد جنود بركة خان، لذلك سعى إلى التحالف مع الاتحاد المملوكى القفجاقى، وتسوية المنازعات بينه وبين مغول القفجاق، وما أن وصل الاساقفة من قبل بيبرس الى بلاط ميخائيل حتى أمر باطلاق سراح رسل بيبرس، والسماح لهم بعبور المضايق، والذهاب الى بلاد بركة خان . كما أرسل إلى بركة يطلب منه الصلح، ويبلغه أنه على استعداد أن يرسل له فى كل عام ثلاثمائة ثوب اطلس، ويساعده فى الدفاع عن بلاده اذا احتاج الى ذلك . حاول ميخائيل استرضاء بيبرس وكسب وده بالهدايا، كما أرسل إليه رسول بكتاب يطلب منه فيه أن يتوسط له عند بركة حتى يوقف اغاراته على الاراضى البيزنطية وبالفعل ارسل بيبرس رسوله " ابن الداية " إلى بلاد بركة، طالبا منه أن يوقف إغاراته على الاراضى البيزنطية.

وظلت المكاتبات وتبادل السفراء بين بيبرس وميخائيل، ففى عام ٦٦٧هجرية وقعت معاهدة جديدة بين الطرفين تتضمن استمرار الصلح مع السلطان وعلاقة المودة والصداقة، كما طلب ميخائيل من بيبرس أن يساعده على الدخول فى صلح مع بيت بركة وخاصة مع منكوتمر خليفة بركة ووريثه على العرش، وأن يتصالح بيبرس مع هولاكو ويتحالف مع ابنه وخليفته ابغا . ووافق بيبرس على جميع بنود الاتفاق فيما عدا البند الخاص بالتحالف مع مغول فارس وعلى رأسهم ابغا ابن هولاكو، وقال " أما ابغا فليس له عندى سوى السيف، وهو مطلوب منا بثأر المسلمين ".

والحقيقة أن ميخائيل حرص فى ذلك الحين على استمرار علاقات الصداقة والمودة مع بيبرس، لأنه ظهر له فى الافق خطر يهدده ويهدد دولة المماليك فى آن واحد، ويتمثل فى "شارل أنجو" وهو ملك الصقليتين، الذى تطلع مثل بنى جلدته من النورمان الى تكوين امبراطورية واسعة فى البحر المتوسط على حساب البيزنطيين والمماليك.

حقيقة أن ميخائيل نجح فى أن يوقف خطر شارل انجو، بأن تحالف مع البابوية، وفتح باب المفاوضات معها من أجل اتحاد الكنائس، الا أن خطر شارل انجو كان يهدد ميخائيل دائما، لذلك رأى ميخائيل أن يستمر فى مصالحته لسلطان مصر من ناحية، ويوقع سلام مع منكوتمرخان القفجاق من ناحية أخرى، حتى يتفرغ لمواجهة شارل انجو. وأتت سياسة ميخائيل ثمارها اذ ترتب على الصلح الذى عقده مع منكوتمر أن كف الاخير عن مهاجمة اراضيه.

وتوالى وصول الرسل والسفراء من قبل ميخائيل الى بلاط مصر المملوكية حتى نهاية عصر بيبرس، واستمرت علاقات المودة والمحبة تخيم على الطرفين، وترتب على ذلك نتائج منها :-

- بالنسبة للقسطنطينية، نشطت حركة التجارة بها نتيجة لعبور السفن المصرية فى كل عام الأراضى البيزنطية، وهى محملة بالمتاجر والبضائع.
- رفض بيبرس التحالف مع ملكة البلغار ضد ميخائيل، حرصا منه على استمرار علاقات المودة والصداقة مع الدولة البيزنطية.

بيبرس والإمبراطورية الرومانية المقدسة :

ارتبط الايوبيون بعلاقات صداقة مع أباطرة هذه الإمبراطورية منذ العصر الايوبى وبلغت أوجها فى عهد الكامل محمد والإمبراطور فردريك الثانى، ثم تجددت هذه الصداقة أيام الصالح نجم الدين أيوب كما سبق أن ذكرنا - فقد أرسل فردريك رسولا من قبله متخفيا فى زى تاجر ليحمل إلى الصالح ايوب أخبار حملة لويس التاسع وابحاره قاصدا مصر.

وقد سار منفرد بن فردريك على نفس السياسة فرحب بسفير السلطان الظاهر بيبرس إليه، وهذا السفير هو المؤرخ المعروف جمال الدين بن واصل، صاحب كتاب "مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب"، وتلقى هذه السفارة أضواء كاشفة على ما كان يمتاز به بيبرس من كفاءة سياسة ومقدرة دبلوماسية، وتشرح الأسس الهامة التى أقام عليها بيبرس سياسة الخارجية.

أما عن تاريخ إرسال هذه السفارة فقد حدده ابن واصل فقال أنه سافر فى شهر رمضان سنة ٦٥٩هـ/ أغسطس سنة ١٢٦٠م، غير أنه لم يشر بكلمة واحدة إلى غرض هذه السفارة أو إلى أعضائها الذين صحبوه، أو إلى المدة التى قضاها فى إيطاليا، بل اكتفى بأن عين المدينة التى أقام بها وهى مدينة (برليتا Barletta) إحدى مدن جنوبى إيطاليا، وذكر أنه اجتمع مرارا بالإمبراطور منفرد، ووصفه بأنه كان (متميزا محبا للعلوم العقلية).

وأشار ابن واصل إلى أهمية مدينة (لوجارة Lucora) معسكر المسلمين فى قلب جنوبى إيطاليا، قال : (توجهت رسولا إلى منفرد من السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس فى شهر رمضان سنة تسع وخمسين وستمائة، فأقمت عنده مكرما بمدينة من مدائن انبوليه (Naples) فى البر الطويل المتصل ببر الأندلس يقال لها (برلت Barletta)، واجتمعت به مرارا، فوجدته متميزا محبا للعلوم العقلية يحفظ عشر مقالات من كتاب إقليدس فى الهندسة، وبالقرب من البلد التى كنت بها نازلا مدينة تسمى (لوجارة) (Lucera) أهلها كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية، وتقام الجمعة فيها، ويعلن فيها شعائر الإسلام. وهى على هذه الصفة من عهد أبيه الإمبراطور، وكان قد شرع فى بناء دار علم بها ليشتغل فيها بجميع أنواع العلوم النظرية، وأكثر أصحابه الذين يتولون أموره الخاصة مسلمون، ويعلن فى معسكره بالآذان والصلاة).

بهذه الكلمات القليلة أرخ جمال الدين بن واصل لسفارته إلى منفرد، فأهمل الإشارة إلى أمور كثيرة كان يعنينا أن نعرفها، غير أن ما قاله - رغم اختصاره- هام جدا، وذلك لأن يتضمن حقائق ثابتة عن منفرد، وعن مدينة لوجارة، وعن دار

العلم التى كان يزمع منفرد إنشاؤها.

وهذه الحقائق تتفق تماما وما ذكره المؤرخون الغربيون، فقد ذكرت هذه المراجع أن منفرد كان صورة من أبيه من حيث عنايته بالعلوم واشتغاله بها، وذكرت أيضا أن فردريك الثانى لما تولى حكم الصقليتين عانى كثيرا من جماعات المسلمين الذين كانوا يعتصمون بمناطق صقلية الجبلية، ويهددون بغاراتهم المتتابعة الامن والسلام فى الجزيرة، فسعى فردريك حتى نقل هذه الجماعات - وكان عددها يقرب من ١٦٠,٠٠ مسلم - إلى الصقلية الشمالية - أى جنوبى إيطاليا -، وخصص لإقامتهم مدينة (لوجارة Lucera)، وجعلها مستعمرة عسكرية، وبنى بها الحصون والقلاع، واتخذ من جنود هؤلاء المسلمين مماليك وحرسا خاصا به طالما استعان بهم فى حروبه الداخلية وخاصة ضد البابا، وعهد إلى غير الجنود بفلاحة الأرض وزراعتها، وقنع بأن فرض عليهم نوعين من الضرائب : ضريبة على الأرض terraguim نظير تمتعهم باستغلالها، وضريبة على الرؤوس وكان يسميها باسمها العربى : الجزية Jisya نظير تمتعهم بحريتهم الدينية.

فاتخذت هذه الجالية الإسلامية لها قاضيا خاصا بها، ورئيسا منها هو قائد حاميتها، وفقهاء يفقهون الأفراد فى أمور دينهم، وبنت المساجد، وكانت - كما يقول ابن واصل - (تقام الجمعة فيها، وتعلن فيها شعائر الإسلام).

وتسمية ابن واصل للجامعة التى كان منفرد يزمع إنشاءها (دار العلم) لها دلالتها عند التأريخ العلاقات الثقافية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، وذلك أن إيطاليا كانت من أولى الممالك الأوربية التى أنشئت فيها الجامعات، وأول جامعة أنشئت بها هى جامعة نابلى، أنشأها فردريك الثانى فى سنة ١٢٢٤م (٦٢٢هـ)، والاسم الذى كان يطلق على الجامعة فى إيطاليا هو Sapienza، والترجمة الحرفية لهذا اللفظ هى (دار الحكمة أو دار العلم)، وهو مصطلح عرفه الشرق منذ القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى)، وكانت أعظم وأشهر دار حكمة أو علم عرفها الشرق الإسلامى هى دار الحكمة التى أسسها الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله فى القاهرة فى سنة ٣٩٥هـ، فنص ابن واصل يحمل الدليل القوى

على أن الأوربيين أنشأوا جامعاتهم فى العصور الوسطى على نمط دور العلم أو الحكمة بالمشرق، بل لقد أطلقوا عليها نفس الأسم الذى كان يطلقة المشارقة على هذا النوع من معاهدهم.

ذكر ابن واصل أن الإمبراطور منفرد كان (متميزا محبا للعلوم العقلية) ويبدو أنه كان كأبيه يعرف العربية ويتكلمها، فقد روت المراجع التى ترجمت لابن واصل أنه ألف لمنفرد - أثناء إقامته القصيرة فى صقلية - رسالة فى المنطق سماها (الرسالة الأنبرودية) أو (نخبة الفكر فى المنطق)، ويبدو كذلك أن منفرد - وقد كان بلاطه عامرا بعلماء المسلمين - قد أعجب بجمال الدين بن واصل وبثقافته المنوعة، فكان يدعوه إلى مجالسه الخاصة حيث كانت تدور المناقشات العلمية المختلفة بين الحاضرين، وبديهى أن منفرد وابن واصل كانا يساهمان فى هذه المناقشات بأوفر نصيب.

ولكن بقيت ناحية وهى لم أرسل ابن واصل فى هذه السفارة؟ أو ماهو الأسباب التى دفعت السلطان بيبرس إلى ارسالها إلى منفرد امبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة وملك الصقليتين؟

يبدو أن الغرض من إرسال هذه السفارة فى سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م وهى السنة الأولى من تولى بيبرس العرش هو : إخطار منفرد بتوليه عرش مصر، وليجدد معه صلات الود والصداقة التقليدية بين مصر والصقليتين، فضلا عن رغبته فى أن يقف إلى جواره فى صراعه مع أعدائه.

أما عن الطريق الذى سلكه ابن واصل فى سفره وفى عودته، وأعضاء السفارة الذين صحبوه ونتيجة السفارة فقد ظلت كلها غامضة.

ولكننا نستطيع أن نرجع أن ابن واصل لم يقم فى إيطاليا طويلا بل عاد فى أواخر سنة ٦٥٩هـ أو أوائل سنة ٦٦٠هـ على أكثر تقدير، وأن نتيجة السفارة كانت مرضية ومحققة للغرض منها، وأن سفارة أخرى أرسلت من مصر إلى منفرد فى أوائل سنة ٦٦٠هـ وكانت تحمل معها هدايا كثيرة، منها : زرافة، (وجماعة من أسرى التتار المأخوذين فى نوبة عين جالوت بخيولهم التترية وعدتهم)، لأن ابن

واصل أشار إلى عودة هذه السفارة إلى القاهرة فى شعبان سنة ٦٦٠هـ، قال :

(وفى شعبان من هذه السنة، وهى سنة ستمائة وستين، وصل الامير سيف الدين الكردى، والقاضى أصيل الدين خواجا الذين توجها رسلا إلى الإنبرور ملك الفرنج بهدية من عند السلطان، وفى جملة الهدية زرافة، وصحبتهما كتابه، فذكروا أن الإنبرور اهتم بها اهتماما عظيما، وتجمل لها تجملا عظيما، وأعرضت عليه الهدية، فأعجبته الزرافة إعجابا عظيما، ورأى من التحف ما أذهله وملأ عينيه، وقرأ عليه كتاب السلطان إحدى عشرة مرة وهو يردده ويتفهمه، وأحسن إلى الرسل غاية الإحسان، وجهز رسولا وهدية فيما بعد، وكانت هدية لا تحصى، ولما وصل رسل الظاهر المذكورين كان فى جملتهم نفران من البحرية قد أساء الأدب، فلما شاهدهما السلطان أمر بتأديبهما لأنه بلغه سوء اعتمادهما، فسيرهما إلى قلعة الجزيرة يعملان فيها مقيدين).

وعقب ابن واصل على هذا بقوله : "وفى ذلك تأديب وحسن سياسة وردع للمعتدى، وحفظ لناموس السلطنة، وإقامة لحرمة المملكة". وما لبث بيبرس أن توفى فى دمشق ٦٧٦هـ/١٢٧٧م، "ففقدت البلاد بذلك أسدها، بل أسدها بل الذى بلغ أشدها، وإذا انفتحت ثغرة فى سور الإسلام سدها". على حد تعبير ابن كثير.

سلطنة المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م) :-

قلاوون هو أحد المماليك البحرية الصالحية، اشتراه الأمير علاء الدين آقسنقر بألف دينار، وهو مبلغ كبير يظهر ما كان يتمتع به قلاوون من مواهب وصفات رفعت من قيمته، ولذلك عرف بالألفى، ولما مات الأمير علاء الدين آقسنقر، انتقل قلاوون الى الملك الصالح نجم الدين أيوب، ولذلك أصبح قلاوون يلقب "بالألفى العلائى الصالحى النجمى" وترقى بسرعة إلى أن وصل إلى مرتبة الإمارة.

وساهم قلاوون كزميله بيبرس فى الأحداث التى صاحبت قيام دولة

المماليك، فرحل الى الشام مع المماليك البحرية بعد مقتل اقطاى واشتداد وطأة عز الدين أيبك، ثم عاد الى مصر بصحبة بيبرس ليكون عونا له فى حرب المغول. ثم برزت مكانة قلاوون فى سلطنة الظاهر بيبرس، اذ كان أقوى أمراء الدولة ولذلك اعتمد عليه السلطان الظاهر بيبرس اعتمادا كبيرا فى سائر أعماله سلمية كانت أم حربية.

ويبدو أن قلاوون أحس بشعور الغيرة عندما وجد أحد زملائه وهو بيبرس يلى منصب السلطنة، غير أنه لم يستطع أن يفصح عن هذا الشعور، وذلك لقوة بيبرس ودهائه وبدأ بيبرس يحس بتزايد نفوذ الامير قلاوون، وعظم مكانته، فخشى بيبرس أن ينتزع قلاوون منصب السلطنة من ابنائه بعد وفاته لما يتمتع به من سلطة ونفوذ، لذلك لجأ بيبرس إلى الحيلة، فأخذ اولا البيعة لابنه السعيد بركة - وسمى ببركة تيمنا باسم جده لأمه وهو الأمير حسام الدين بركة خان بن دولة خان الخوارزمى - فى حياته، وجعل الأمراء يقسمون له يمين الطاعة، حتى يضمن ارتقائه العرش بعد وفاته هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى زوج السعيد بركة من ابنة قلاوون وتدعى "غازية خاتون "- وتجدر الاشارة إلى أن خاتون هو لقب الأميرات فى العصر المملوكى - فى عام ٦٧٤هـ/١٢٧٥م وبذلك لايطمع قلاوون بأى حال من الأحوال فى انتزاع العرش من زوج أبنته، ويضمن ولاء هذا الأمير الكبير وبالتالى ولاء أمراء المماليك الصالحية لابنه. ورغم ذلك لم يكن بيبرس مطمئنا، لأنه أعرف الناس بأمراء المماليك وأساليبهم، ولهذا ترك لابنه قبل وفاته وصية أوصاه فيها باستعمال العنف ضد كل من يقف فى طريقه وأن يضرب عنقه فى وقته ولا يستشر فى ذلك أحد. وقد جاء فيها : "انك صبى، وهؤلاء الأمراء الأكابر يرونك بعين الصبى، فمن بلغك عنه انه يشوش عليك ملكك، وتحققت ذلك عنه، فأضرب عنقه فى وقته، ولا تعتقله، ولا تستشر أحدا فى هذا، وأفعل ما أمرتك به والا ضاعت مصلحتك".

وتوفى بيبرس فى عام ٦٧٦هـ/١٢٧٧م، وبايع الأمراء والقضاة ابنه السعيد بركة سلطانا، ودعى له على منابر مصر والشام، وكان يبلغ من العمر تسعة

سياسة قلاوون الداخلية :-

ما كاد قلاوون يعتلى عرش السلطنة حتى أخذ يتقرب إلى الناس بالأفعال الطيبة، فاستغل الأموال التى جمعها فى اقامة المنشآت ومن أهمها المدرسة المنصورية لتدريس الفقه على المذاهب الأربعة ومكتب السبيل لتعليم ايتام المسلمين، والبيمارستان لتقديم الرعاية الصحية والعلمية إذ كان يدرس فيه الطب كذلك، هذا فضلا عن القلاع التى جددها فى الشام حتى تقوى على مواجهة الصليبيين . كما قام بإبطال المظالم، وتخفيف الأعباء عن كاهل الرعية بالغاء الكثير من الضرائب. ومع ذلك فقد واجه المنصور قلاوون نفس المشكلات التى واجهها سلاطين المماليك، اذ لم يسلم من الثورات الداخلية التى تعرض لها سلاطين المماليك فى بداية حكمهم، ومن أهم هذه الثورات :-

- **ثورة سنقر الاشقر** نائب الشام الذى عز عليه أن يتولى الأمير قلاوون منصب السلطنة دونه وهو خشداشه وزميله، فقد داخلهحسد من المنصور لذلك رفض سنقر الاعتراف بقلاوون سلطانا، ودعا أهل الشام إلى الخروج عن طاعة السلطان قلاوون (٦٧٩هـ/١٢٨٠م)، بل ونادى سنقر بنفسه سلطانا، وتلقب بالملك الكامل، وأعلن نفسه حاكما على الشام، وحلف له الأمراء والجند والقضاة والعلماء وأكابر بلاد الشام على البيعة له وطاعته، وخطب له فى جامع دمشق فى اول المحرم ٦٧٩هـ/١٢٨٠م واكثر من ذلك حاول الاتصال بالمغول وزين لهم غزو الشام، غير أنه لم يجد تأييدا من أهل دمشق . وأرسل إليه السلطان قلاوون عدة حملات أخرها كانت بقيادة "حسام الدين طرنطاى "نائب السلطنة، الذى تمكن من حصاره فى قلعة صهيون، فخضع له وطلب منه الأمان، فأمنه حسام الدين، وعاد به إلى مصر فى عام ١٢٨٧م، فعفا عنه قلاوون وأكرمه، وعينه حاكما على انطاكية.
- تآمر بعض **الأمراء الظاهرية** من مماليك السلطان الظاهر بيبرس على السلطان المنصور قلاوون، واتصل هؤلاء بالصليبيين سرا، وعلم قلاوون بالمؤامرة، وعاقب المتآمرين بالاعدام والسجن، وسارع بأتخاذ الحيطة لنفسه فانشأ فرقة من المماليك يعتمد عليهم فى مواجهة الاخطار الداخلية والخارجية على حد سواء، ولذلك أكثر قلاوون من شراء المماليك، وكلهم من عنصر الجركس، ورباهم فى أبراج القلعة، ولذلك عرفوا بأسم "المماليك البرجية ". ويميل البعض إلى عدم استخدام هذه التسمية لان جميع المماليك تربوا فى القلعة وأبراجها، ويفضل هذا الفريق تسميتهم بالمماليك الجراكسة، والجراكسة ينتسبون الى بلاد الكرج (جورجيا الحالية) وتقع بين بحر قزوين والبحر الاسود والذين كثروا فى الأسواق بسبب تعرض بلادهم لغزوات المغول فى أواخر القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى.

وبعد أن تخلص قلاوون من الاخطار الداخلية كان عليه أن يواجه الاخطار الخارجية ممثلة فى المغول والصليبيين.

المنصور قلاوون والمغول :-

ظلت العلاقات الودية كما كان الحال فى عهد الظاهر بيبرس بين المماليك ومغول القفجاق أو القبيلة الذهبية، واستمر تبادل الرسل والسفارات قائما بينهما فى عهد المنصرر قلاوون. وقد بلغ عدد السفارات المتبادلة بين الدولتين فى عهد قلاوون أربع سفارات مما يظهر استمرار علاقات الصداقة والمودة والمحبة بين الجانبين.

وارتبط قلاوون مع مغول فارس بعلاقات عدائية، فقد انتهز مغول فارس فرصة الاضطرابات التى تعرضت لها مصر بعد موت السلطان الظاهر بيبرس، والفتنة التى قام بها سنقر الأشقر فى بداية عهد السلطان المنصور قلاوون، وبدأوا يهددون دولة المماليك، حيث أرسل أبغا (اباقا) قوة احتلت بعض القلاع فى شمال الشام بناء على استعانة سنقر الاشقر به.

ولكى يتفرغ السلطان المنصور قلاوون لمواجهة المغول، قام بتجديد الهدنة التى عقدها بيبرس مع الصليبيين لمدة عشر سنوات، وذلك حتى يضمن عدم تحالفهم مع المغول واستنجادهم بقوة أوروبية أخرى، كما قام قلاوون بعقد عدة

اتفاقيات مع مغول القفجاق وصقلية وجنوة والدولة البيزنطية وغيرها.

فى عام ٦٧٩هـ/١٢٨٠م عندما علم قلاوون بقدوم المغول بجيوشهم إلى حلب وعلى رأسهم ابغا (اباقا)، وأنهم دخلوها وأحرقوا جوامعها ومدارسها، وقتلوا كثيرا من أهلها، خرج قلاوون على رأس حملة الى حلب، وما أن علم المغول بوصول السلطان الى غزة، انسحبوا عائدين الى قواعدهم بالعراق وهم محملين بالأسلاب، مما يدل على أن حملتهم كانت حملة استطلاعية استكشافية فحسب.

وفى العام التالى (٦٨٠هـ/١٢٨١م) أعاد اباقا الهجوم على بلاد الشام، وتحالف معه فى هذه الحملة "ليو الثالث" ملك ارمينية الصغرى، وانقسم جيش المغول الى قسمين، قسم اتجه الى الرحبة على شاطئ الفرات، وعلى رأسه ابغا (اباقا)، وقسم على رأسه أخاه "منكوتمر" واتجه نحو حمص. ودارت معركة عند حمص بين السلطان المنصور قلاوون وبين المغول، وحلت الهزيمة بالمغول، وولوا الفرار الى شرقى الفرات، أما ابغا (اباقا) فقد عاد إلى بغداد بعد أن هلك عدد كبير من رجاله، وسرعان ما توفى ابغا (اباقا)فى بغداد بعد عام من هزيمته ورجاله على يد المنصور قلاوون.

وخلف أبغا (اباقا)أخاه "تكودار"(٦٨١-٦٨٣هـ/١٢٨٢-١٢٨٤م)، الذى أعلن إسلامه، وسمى نفسه "أحمد تكودار"وبذلك أصبح الإسلام يجمع بين دولة المماليك والمغول، وكان هذا سببا فى تحسن العلاقات بينهما فى عهد أحمد تكودار، وبدأ أحمد تكودار فأرسل رسالة إلى السلطان المنصور قلاوون فى جمادى الأولى ٦٨١هـ/أغسطس١٢٨٢م، وأعلن فيها رغبته فى خدمة الاسلام، وحقن دماء المسلمين، واقامة العلاقات الطيبة بينه وبين أخواته وجيرانه المسلمين، وجاء فى هذه الرسالة "لقد وجب التمسك بالعروة الوثقى، وسلوك الطريق المثلى، بفتح أبواب الطاعة والاتحاد وبذل الأخلاص... حتى تسكن الفتنة الثائرة وتغمد السيوف الباترة، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهوان". ورحب قلاوون بدعوة أحمد تكودار، ورد عليه برسالة مؤرخة فى رمضان /ديسمبر من نفس العام، أعلن فيها استعداده للتعاون معه من أجل خدمة الإسلام والمسلمين.

على أن أحمد تكودار لم يبق على عرش المغول طويلا، اذ ما لبث أن قتل على يد ابن أخيه "أرغون" الذى تولى العرش مكانه فى عام ٦٨٣هـ/١٢٨٤م وكانت سياسة أرغون تجاه المسلمين على عكس سياسة أحمد تكودار، فقد اضطهد أرغون المسلمين فى بلاده وابعدهم عن مناصبهم، لذلك ساءت العلاقات بين المماليك والمغول ثانية.

المنصور قلاوون والصليبيون :-

سبق أن ذكرنا أن المنصور قلاوون بدأ علاقته مع الصليبيين بعقد هدنة لمدة عشر سنوات تبدأ من عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م وذلك حتى يتفرغ لمواجهة المغول من ناحية، وليقضى على ثورة سنقر الاشقر فى بلاد الشام من ناحية أخرى . ويبدو أن السلطان المنصور قلاوون بدأ يستغل الخلافات الداخلية بين القوى الصليبية فى بلاد الشام من جهة وهى تتمثل فى المنازعات التى ميزت تاريخ الصليبيين فى بلاد الشام فى النصف الأخير من القرن الثالث عشر، وعدم وصول امدادات اليهم من الغرب من جهة أخرى، ليجهز على البقايا الصليبية فى الشام اجهازا تاما.

وفى عام ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م شن قلاوون هجومه الأول على حصن المرقب"وعلى الاسبتارية فيه، وهو من أقوى الحصون الصليبية فى بلاد الشام، وبعد أن حاصره لمدة ٨٨ يوما، استسلم أهل الحصن، وسمح لحامية الحصن أن ترحل عنه فى أمن وأمان إلى عكا . وقد ترتب على استيلاء المنصور قلاوون على حصن المرقب نتائج هامة من بينها :- اثارة الرعب والفزع فى قلوب أصحاب الحصون والمدن الصليبية الاخرى فى بلاد الشام.

- سارع بوهيمند السابع أمير طرابلس إلى طلب الصلح وعقد هدنة مع المنصور قلاوون، كذلك فعلت مرجريت أميرة صور.
- عقد ملك ارمينية الصغرى الصلح مع السلطان المنصور لقاء دفع جزية سنوية، وإطلاق سراح الأسرى المسلمين فى بلاده.

غير أنه بعد ثلاث سنوات من عقد الهدنة مع بوهيمند السابع أمير طرابلس، نقض أهل طرابلس هذه الهدنة، واعتدوا على التجار المسلمين، وقطعوا الطريق

على المسافرين، على الرغم من أنهم تعهدوا فى اتفاق الهدنة السابق الا يتعرضوا لتاجر أو يقطعوا الطريق على مسافر. وانتهز السلطان المنصور هذه الفرصة، واخذ يستعد للزحف على طرابلس خاصة أن بوهيمند كان قد توفى دون أن يترك وريث، فحدث نزاع داخل طرابلس حول الحكم، واستنجد فريق من المتنازعين بالسلطان المنصور قلاوون، فانتهز المنصور هذه الفرصة، وخرج على رأس جيش ضخم، يقدر باربعين الف فارس فى عام٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م، وعندما وصل الى طرابلس ضرب الحصار عليها، واستمر الحصار لمدة ٣٩ يوما، سقطت بعدها طرابلس فى يد قلاوون بعد قتال عنيف، اذ لم تستطع مقاومة الحصار، الذى فرضه عليها السلطان .وبعد أن تم تدمير مدينة طرابلس القديمة، أمر السلطان المنصور ببناء طرابلس جديدة بعبدا عن الشاطيء خوفا من تهديد الأساطيل الصليبية لهذه المدينة.

وقد ترتب على سقوط طرابلس سقوط معظم المراكز والمدن التابعة لهذه الإمارة بسهولة، ومن بينها بيروت وجبلة، وبذلك لم يبق للصليبيين فى الشام سوى عكا –وكانت عكا من أعظم المدن الصليبية واحصنها، إذ أصبحت المركز الجديد لمملكة بيت المقدس بعد استيلاء صلاح الدين على مدينة بيت المقدس – فضلا عن صيدا وصور . كما ترتب على سقوط طرابلس فرار عدد كبير من الصليبيين الى جزيرة تدعى جزيرة القديس نيقولاس، وتعقبهم المماليك وأبادوهم، وقد زار المؤرخ أبو الفدا تلك الجزيرة، ولكنه لم يستطع البقاء فيها من "نتن القتلى".

ويبدو أن السلطان لم يكن ينوى القيام بهجوم على عكا عقب استيلاءه على طرابلس مباشرة، بدليل أنه اتجه إلى دمشق استجابة لرغبة الصليبيين فى عقد الصلح، وتجديد الهدنة القديمة لمدة عشر سنوات . غير أنه وصلت فى عام ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م حملة ايطالية صليبية إلى عكا، وكان هؤلاء الصليبيون الجدد

يفيضون حماسا مع أنهم كانوا يفتقرون إلى النظام، فقاموا بالاعتداء على المسلمين خارج اسوار عكا، فكان هذا نذير بتجدد الحرب بين المسلمين والصليبيين، اذ قام المنصور بانهاء السلام الذى ربط المماليك بالصليبيين، وأعد جيشا للانتقام من الصليبيين، وأمر الامير شمس الدين سنقر فى الشام بأن يستعد للقتال، خاصة بعد أن رأى ملابس المسلمين مضرجة بالدماء، ولكن توفى السلطان المنصور قلاوون قبل خروجه لقتال الصليبيين.

المنصور قلاوون والبيزنطيون :-

لم تتوقف علاقات المودة والصداقة التىكانت تربط الدولة البيزنطية بمصر بعد انتهاء عهد السلطان الظاهر بيبرس عام٦٧٥هـ/ ١٢٧٧م، فقد حرص كلا الطرفين على استمرار هذه العلاقات والحفاظ على صداقة الجانب الأخر ووداده. فبالنسبة للامبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن فقد كانت لديه دوافع تجعله يحرص على استمرار الصداقة مع السلطان المملوكى الجديد المنصور قلاوون، ومن هذه الدوافع : الانتصارات التى احرزها هذا السلطان على الصليبيين، كما كان يمكن للامبراطور بصداقته للسلطان أن يحاصر تحركات عدوه اللدود شارل انجو فى شرق البحر المتوسط، فقد كان شارل انجو يتطلع إلى إعادة الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية.

أما بالنسبة للمنصور قلاوون فقد حرص على تجديد المعاهدة التى عقدها بيبرس مع ميخائيل، كما حرص على استمرار الصداقة معه لدوافع مماثلة وهى : رغبة قلاوون فى تحريض البيزنطيين على الصليبيين، والحصول على مساعدة الدولة البيزنطية هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت الدولة البيزنطية هى طريق القصاد والرسل والسفراء والتجار القادمين من دولة مغول القفجاق، بالاضافة إلى ضمان استمرار جلب الرقيق من القرم وجنوب روسيا.

وانطلاقا من حرص قلاوون على استمرار علاقات المودة والصداقة مع الدولة البيزنطية قام قلاوون بارسال سفارة إلى الامبراطور البيزنطى ميخائيل،

يخبره بارتقائه عرش السلطنة، وبرغبته فى الابقاء على المودة والصداقة والعلاقات الطيبة التى تربط مصر بالدولة البيزنطية. ورد الامبراطور ميخائيل على سفارة قلاوون بسفارة مماثلة تحمل الهدايا للسلطان، وتؤكد حرص الامبراطور على التمسك بهذه الصداقة والعمل على استمرارها. وتم عقد اتفاقية بين الطرفين فى عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م، نصت هذه الاتفاقية على البنود التالية :-

- تعهد الامبراطور بالحفاظ على علاقات الصداقة والمودة التى تربطه بسلطان مصر.
- تعهد الامبراطور بالا يشن حربا على بلاد السلطان، والا يعاون اعدائه.
- أقسم الامبراطور على أن يسمح لرسل السلطان بعبور الاراضى البيزنطية فى أمن وأمان، وأن تكون لهم الحرية كاملة فى الذهاب والعودة.
- تعهد الأمبراطور بالنسبة للتجار القادمين من بلاد السلطان بأن لا يلحق بهم أى ضرر، وأن يعبروا اراضيه فى حرية تامة، ولكن بشرط أن يدفعوا الرسوم المقررة على بضائعهم، وأن يعامل تجار الأمبراطور بنفس هذه المعاملة، كذلك يتمتع تجار القفجاق بمثل هذه المعاملة، هذا إلى جانب حمايتهم من هجمات القراصنة.
- تعهد الأمبراطور بالعمل على زيادة التبادل التجارى بين مصر والدولة البيزنطية، والعمل على التعاون البحرى ضد شارل انجو.

ويتضح من هذه البنود مدى حرص الامبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن على استمرار علاقات المودة والصداقة مع دولة المماليك.

واستمرت علاقات المودة والصداقة تربط مصر بالدولة البيزنطية حتى بعد وفاة الأمبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن ١٢٨١م، فقد استمر تبادل الرسل والسفارات والهدايا فى عهد ابنه وخليفته "اندرونيق الثانى" (١٢٨٢-١٣٢٨م)، وتوثقت فى عهده الصلات بين مصر وبيزنطة، فقد كانت القسطنطينية -عاصمة الدولة البيزنطية - قد اتخذت كمنفى لأبناء السلاطين أو الاشخاص الذين يخشى منهم على العرش، فقد أرسل الأشرف خليل بن المنصور قلاوون ولدى الظاهر بيبرس وهما خضر وسلامش الى القسطنطينية منفيين، وعندما وصلا إلى القسطنطينية

اكرمهما الامبراطور اندرونيق، وأحسن اليهما، ورتب لهما ما يكفيهما من النفقات. واقام كل من خضر وسلامش فى القسطنطينية، حتى أرسل السلطان حسام الدين لاجين (٦٩٦-٦٩٨هـ/١٢٩٦-١٢٩٨م) فى استدعائهما، فما كان من الامبراطور الا أن جهزهما واعادهما إلى مصر على ظهر أحد مراكب الصليبيين. وهكذا ظلت علاقات المودة والمحبة والصداقة تربط مصر ببيزنطة.

الاشرف خليل وطرد أخر البقايا الصليبية من بلاد الشام ٦٩٠هـ/١٢٩١م:-

كان السلطان المنصور قلاوون قد جعل ولاية العهد من بعده لابنه علاء الدين، بل وكان قد فكر فى أن يجعله سلطانا فى حياته، وأخذ له العهد، وتلقب بالملك الصالح علاء الدين، ولكنه ما لبث أن توفى فى حياة أبيه المنصور فحزن عليه حزنا شديدا، لأنه كان يضع كل ثقته فى ذلك الابن بالذات، وبعد وفاة علاء الدين أخذ قلاوون البيعة لابنه الثانى وهو خليل ولم يكن المنصور يثق فى هذا الإبن الثانى ولا فى سلوكه الشخصى ولا فى تصرفاته، ويبدو أن خليل كان مكروه أيضا من الأمراء لاستهانته بهم، فضلا عن أنه اتهم بأنه دس السم لاخيه علاء الدين.

على أنه يحمد للاشرف خليل أنه حمل راية الجهاد ضد الصليبيين بعد وفاة ابيه المنصور قلاوون، وطرد البقايا الصليبية من أخر معاقلهم وهى عكا. فبعد ان تخلص الأشرف خليل من المؤامرات الداخلية التى حيكت ضده وأهمها مؤامرة نائب السلطنة الأمير حسام الدين طرنطاى، الذى كان يطمع فى السلطنة، سار الاشرف الى بلاد الشام على رأس الجيوش التى كان أبوه قد أعدها من قبل، على الرغم من أن الصليبيين كانوا قد ارسلوا اليه سفارة "يسألونه العفو"، ولكن الاشرف لم يقبل منهم ما اعتذروا به، وطلب من جميع القوات الاسلامية فى مختلف مدن الشام أن تقابله عند عكا.

وفى الخامس من ابريل عام١٢٩١م، وصل الاشرف خليل الى عكا، وضرب الحصار عليها، ورمها بالمجانيق رميا متواصلا، ودام الحصار ٤٤يوما،

حتى كثرت الثقوب بأسوار عكا، ثم أمر الإشراف بأن تضرب كلها دفعة واحدة وعلى الرغم مما بذله الصليبيون من جهود، وعلى الرغم من انهم تناسوا ما بينهم من حزازات قديمة، وكذلك على الرغم من دفاعهم المستميت عن اسوار عكا وقلعتها، على الرغم أيضا من وصول هنرى الثانى ملك قبرس إلى عكا على رأس قوة من الفرسان ومعه المؤن والامدادات الكثيرة الا أن عكا سقطت فى أيدى السلطان الاشرف خليل والمماليك بعد أن ظلت فى أيدى الصليبيين مائة عام . وفر من استطاع الفرار من الصليبيين فى السفن إلى عرض البحر، حيث غرقت بعض هذه السفن بسبب كثرة ما كانت تحمله من الفارين الهاربين، وأمر السلطان بهدم عكا فهدمت ودكت دكا كما يذكر ابن حبيب.

أما عن النتائج التى ترتبت على سقوط عكا فتتمثل فى أن سقوط عكا كان الضربة القاضية والنهائية التى حلت بالصليبيين فى الشام، اذ لم يعد لهم بعدها مقام فى بلاد الشام، كما نجح المسلمون بعد سقوط عكا فى الاستيلاء فى سهولة ويسر على المراكز والمدن القليلة التى كانت بأيدى الصليبيين ومن بينها صور وصيدا وبيروت وانطرطوس وغيرها. وبذلك تم تطهير بلاد الشام من الصليبيين على يد السلطان الاشرف خليل بن المنصور قلاوون، بتعاون جيوش مصر والشام معا، ووقوفهم وقفة رجل واحد من أجل تحقيق هذا الهدف السامى، وقيل فى ذلك اشعارا كثيرة منها ما قاله الشيخ شرف الدين البوصيرى :

وقد أخذ المسلمون عكا — واشبعوا الكافرين صكا

وساق سلطاننا إليهم — خيلا تدك الجبال دكا

ونظرا لأن الأشرف انشغل بطرد البقايا الصليبية من بلاد الشام فقد اكتفى فى علاقته مع مغول فارس بالاستيلاء على قلعة الروم من أيديهم مستغلا الاضطرابات فى دولتهم، ورفعت عليها أعلام السلطان ونطق بها الآذان.. وعلت كلمة الإيمان، وأمر السلطان أن يمحى عنها اسم الرومية وأن تسمى "قلعة المسلمين" وقد ترتب على فتحها أن أصبح الفرات حدا فاصلا بين الدولتين.

ورغم نجاح السلطان الأشرف خليل فى انتزاع عكا من أيدى الصليبيين، وطرد البقايا الصليبية من بلاد الشام، والاستيلاء على قلعة الروم من أيدى المغول (٦٩١هـ/١٢٩٢م) الا أن هذا لم يشفع له لدى كبار الأمراء الذين ضاقوا به ذرعا وبدأوا يفكرون فى التخلص منه لاسباب من بينها :-

- إنه منذ أن تولى منصب السلطنة فى عام ١٢٩٠م، أخذ يغدر برجال الدولة وكبار الأمراء، الذين كان لهم الكلمة الأولى والنفوذ والسلطان فى عهد ابيه المنصور قلاوون . ولم يلتزم بما أوصاه به أبوه قلاوون من أن "يحفظ مماليكه ويحافظ عليهم، ويبالغ فى الإحسان إليهم، ويستمر بهم على اقطاعاتهم ووظائفهم فى مصر والشام".
- أثار الأشرف خليل استياء الأمراء عندما قام بالقاء القبض على نائب السلطنة الامير حسام الدين طرنطاى، وقتله غدرا، وعين بدلا منه الأمير بدر الدين بيدرا نائبا للسلطنة، مما أثار مخاوف الامراء، كما عزل الأمير علم الدين سنجر الشجاعى من الوزارة وعين بدلاً منه ابن السلعوس.
- أن الاشرف خليل بعد نجاحه فى الاستيلاء على عكا، تمادى فى كبريائه وتعاظمه على الامراء حتى ضاقوا به ذرعا، وشرعوا يدبرون خطة للتخلص منه.

وتزعم المؤامرة التى دبرت للتخلص من الأشرف خليل نائب السلطنة بدر الدين بيدرا، الذى أخذ يتطلع بدوره الى عرش السلطنة، وازداد العداء بينه وبين الاشرف خليل، وساءت العلاقة بينهما، خاصة بعد أن أخذ الوزير شمس الدين بن السلعوس يوغر صدر السلطان عليه، وأوهم السلطان أن أملاك بيدرا ونفوذه قد اتسع بشكل يهدد السلطان نفسه، واحس بيدرا أن السلطان ينوى الغدر به، عندئذ بدأ بيدرا يحتاط لنفسه، ولم يكتف بذلك بل أخذ يدبر مؤامرة للايقاع بالسلطان والتخلص منه قبل أن يوقع به هو. وانتهز بيدرا فرصة خروج السلطان الأشرف خليل للصيد عند تروجة (بالبحيرة) فى عام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م، وانقض عليه وضربه بالسيف، ثم تبعه بقية الامراء المتآمرين ومن بينهم حسام الدين لاجين، وشمس الدين قراسنقر، وسيف الدين بهادر، واجهزوا عليه .ويقال أن جشمان

السلطان الأشرف خليل ظل ملقى فى العراء يومين كاملين، حتى حمل بعد ذلك الى القاهرة، ودفن فى المدرسة التى أنشأها لنفسه بالقرب من ضريح السيدة نفيسة.

وبعد مصرع السلطان الأشرف خليل، اجتمع الامراء المتآمرون فى مسرح الجريمة وقبل أن تجف دم قتيلهم، ليتشاوروا فى مصير السلطنة، وكان أن استقر رأيهم على أن يلى بطل المؤامرة عرش السلطنة، وكان أن حالفوا للأمير بدر الدين بيدرا، واقسموا له يمين الطاعة على أن يصبح سلطانا على مصر، ولقبوه بالملك الاوحد، ولم يبق سوى أن يغادر بيدرا مسرح جريمته تروجة، ويتجه نحو القاهرة، ليدخل القلعة مركز الحكم.

ولكن المماليك الاشرفية -مماليك السلطان الاشرف خليل- لم يرضوا بهذا، وثاروا للأخذ بثأر أستاذهم، وتزعمهم الأمير "زين الدين كتبغا" وقاموا بمطاردة بيدرا وأعوانه، وانزلوا بهم الهزيمة فى البحيرة، بعد معركة دارت بينهم، وانتهت بمقتل بيدرا، وفرار معظم أعوانه. وكان ممن نجح فى الفرار "حسام الدين لاجين"، الذى اختفى فى مآذنة جامع أحمد بن طولون، ونذر أن انقذه الله فسوف يجدد الجامع، وبالفعل عندما أصبح سلطانا، قام بتجديد الجامع، وعمل أربعة محاريب منها محراب السيدة نفيسة.

وخلا المسرح من الاشرف خليل ومن بيدرا، وظهر بطل جديد وهو الأمير زين الدين كتبغا، الذى سار بصحبة رجاله إلى القاهرة ليعلن نفسه سلطانا فى القلعة، ولكن الامير علم الدين سنجر- الذى كان السلطان الأشرف خليل قد أنابه عنه فى القلعة قبل خروجه للصيد -حال بين كتبغا وبين دخول القاهرة، وانتهت المفاوضات بين الطرفين بأختيار ومبايعة "محمد بن قلاوون" أخى الأشرف خليل سلطانا على البلاد، وأن يصبح كتبغا نائبا للسلطنة وعلم الدين سنجر وزيرا.

السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣-٧٤١هـ/١٢٩٣-١٣٤٠م):-

سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الأولى (٦٩٣-٦٩٤هـ/١٢٩٣-١٢٩٤م) :-

كان الناصر محمد بن قلاوون عند مبايعته بالسلطنة للمرة الأولى طفلا صغيرا، لم يتجاوز التاسعة من عمره، ولهذا كان اختياره وهو فى هذه السن الصغيرة نابع من سياسة المماليك التقليدية حسما للموقف بينهم، وحتى تظهر شخصية قوية تستطيع أن تنتزع الحكم من هذا الطفل الصغير وعلى هذا فأن اختيار الناصر محمد بن قلاوون لم ينبع من احترام الأمراء لشخصيته أو رغبة منهم فى احترام أحقيته فى الحكم بوصفه ابن السلطان المنصور قلاوون، وأخو السلطان الأشرف خليل.

وقضى الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الاولى هذه عاما واحدا، امتد من٦٩٣-٦٩٤هـ/ ١٢٩٣-١٢٩٤م، وكانت سلطنته خلاله اسمية، أما السلطة الحقيقية الفعلية فقد تركزت فى أيدى نائب السلطنة زين الدين كتبغا والوزير علم الدين سنجر الشجاعى. فقد استغل الأمير زين الدين كتبغا صغر سن السلطان،وجعل نفسه صاحب الأمر والنهى فى البلاد، فهو الذى يقوم بتعيين أرباب الوظائف وعزلهم،اذ يذكر ابن الفرات أن الامير كتبغا "كان صاحب الأمر والنهى والولاية والعزل". وعظم نفوذ كتبغا، وصار هو المتحدث فى أمور البلاد، بل واكثر من ذلك تطلع إلى عرش السلطنة. أما الأمير علم الدين سنجر فقد استبد بالأمور، وازداد نفوذه بدرجة كبيرة تهدد كتبغا نفسه لذلك عزم كتبغا على الخلاص منه، فحاصره فى القلعة،وقطع عنه الماء يوما كاملا، وحاول الناصر محمد أن يفض النزاع بين الطرفين، فاقترح على علم الدين أن يغادر مصر وأن يوليه نيابة حلب، فرفض علم الدين سنجر عرض السلطان، واغلظ له فى القول، فأستاء مماليك السلطان منه، وهجموا عليه وقتلوه، وبذلك تخلص كتبغا منه.

وراح كتبغا يتخذ خطوات عملية للوصول إلى عرش السلطنة منها :

- تظاهر بولائه للناصر محمد وأسرة قلاوون، وللتعبير عن ولائه قال لأم الملك

الناصر محمد بعد قتل سنجر : "والله لو بقى من أولاد أستاذنا (أى المنصور قلاوون) بنت عمياء ما أخرجنا الملك عنها".

- ثم انقطع فى دار النيابة، وأظهر أنه معتل الجسد، ضعيف البدن، وذلك من أجل أن يستميل الأمراء إلى صفه
- استغل كتبغا الفتنة التى قام بها بعض مماليك السلطان، واتخذ منها وسيلة لخلعه، بحجة أن صغر سن السلطان جعلت المماليك يطمعون فى حق الرعية.
- ثم جمع كتبغا الأمراء والقضاة فى دار النيابة، وقال لهم ما معناه أنه لابد من خلع السلطان الناصر محمد لصغر سنه. وطمع المماليك فى حق الرعية. عندئذ اتفق الأمراء على عزل السلطان الناصر محمد بن قلاوون من السلطنة (المحرم سنة ٦٩٤هـ/ نوفمبر سنة ١٢٩٤م) وسلطنة كتبغا، الذى تلقب "بالملك العادل زين الدين كتبغا"، وتم تعيين الأمير حسام الدين لاجين نائبا لسلطنته. وعلى هذا النحو تنتهى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الأولى.

سلطنة العادل زين الدين كتبغا (٦٩٤-٦٩٦هـ/١٢٩٤-١٢٩٦م):-

ما أن اعتلى زين الدين كتبغا عرش السلطنة حتى أخذ يتقرب إلى أمراء المماليك بالقول والفعل. وقام بعزل الناصر محمد وأمه فى بعض قاعات القلعة، وحجبه عن الناس، "فكان معتقلا فى زى مطلق"، كما تذكر المصادر. ومع ذلك شاءت الظروف أن تتجمع عدة عوامل لتجعل الناس يكرهون كتبغا، ويتمنون أن يزول حكمه، سواء فى مصر أم فى الشام، ومن أهم هذه العوامل فى مصر :-

أولا:-أنه صحب اعتلاء العادل كتبغا عرش السلطنة، انخفاض النيل، وقلت السلع فى الأسواق، وخاصة القمح والشعير وأصناف المأكولات الأخرى، وارتفعت الأسعار، وانتهز الجشعون من التجار والمحتكرون فرصة وجود هذا الغلاء، وأخفوا معظم السلع الغذائية من الأسواق مما ادى إلى ارتفاع شديد فى الأسعار، فبلغ ثمن الإردب من القمح ١٢٠ درهما بعد أن كان ٢٥درهما، ثم ارتفع إلى أن وصل ١٥٠درهما، كذلك ارتفعت أسعار الشعير والفول والعدس والفاكهة ارتفاعا ملحوظا.

وترتب على ذلك انتشار المجاعة فالوباء انتشارا كبيرا، وصار الناس يتساقطون صراعى فى الطرقات من شدة الجوع وقلة الأقوات.

وبلغ من حدة هذه الأزمة كما يروى بعض المؤرخين أنه كان يموت فى القاهرة فى كل يوم بضعة آلاف، ويبقى الميت مطروحا فى الأزقة والشوارع ملقى فى الممرات اليوم واليومين دون أن يجد من يدفنه وذلك نتيجة لكثرة عدد الموتى من ناحية، وانشغال الأفراد بمرضاهم من ناحية أخرى، وعجز الناس عن مواراة موتاهم القبور لكثرة عددهم، وقلة وضعف من يحفر لهم القبور من ناحية ثالثة، لذا كانت الوسيلة الوحيدة انهم كانوا يحفرون حفرة كبيرة ليضعوا فيها موتاهم سواء أن كانوا رجالا أم نساء أم أطفالا، وعندما تمتلىء الحفرة بالموتى توارى بالتراب، وفى بعض الاحايين كانوا يرمون الموتى فى النيل أو فى الآبار، لذلك تشأم الناس من العادل كتبغا، وقالوا : "هذا نحس".

حقيقة حاول كتبغا معالجة الأزمة قدر استطاعته، فاستورد القمح من الشام، وفرق الفقراء على المماليك لمساعدتهم، ولكن هذه المحاولات لم تخفف من كراهية الشعب له، فقد قرنوا بين هذا البلاء وبين تولى كتبغا عرش السلطنة.

ثانيا :-اذا كانت المجاعة التى صحبت اعتلاء كتبغا العرش قد جعلت الناس يتشاءمون من حكمه ويرددون عبارة "هذا نحس" فهناك عاملا آخر جعل الناس يزدادون كراهية لكتبغا وهو : أن كتبغا كان من أصل مغولى، ووقع فى أسر السلطان المنصور قلاوون فى واقعة حمص ٦٥٩هـ/١٢٦٠م،وجعله المنصور قلاوون فى جملة مماليكه حتى شب وتحرر ووصل إلى مرتبة الامارة، وأصبح أمير مائة، ومن ثم شق طريقه إلى السلطنة كما سبق أن ذكرنا، ولكن وصول كتبغا إلى عرش السلطنة لم ينسيه أهله وعشيرته وأصله،فلم يكد يعلم بأن طائفة من المغول الوثنيين يقدر عددهم بعشرة آلاف بيت بحريمهم واولادهم ومواشيهم، فروا نحو مصر خوفا على أنفسهم من "محمود غازان" ايلخان مغول فارس الذى اعتنق الإسلام، وقد أطلق على تلك الطائفة من المغول أسم "العويراتية أو الاويراتية "نسبة إلى لفظ أويرات، وهى اسم جنس يطلق على عدة قبائل مغولية سكنت الجزء

الأعلى من حوض نهر ينسى بأواسط آسيا، وسموا كذلك "الوافدية أو الوافدين" وما كاد هؤلاء المغول يصلون إلى القاهرة، حتى أمر كتبغا الأمراء والجند بالخروج لاستقبالهم، ورحب بهم كتبغا واقطعهم الاقطاعات الوفيرة، واجرى عليهم الأرزاق، والخلع والهبات والامريات دون أن يهتم بالأسس والمتبعة فى تربية المماليك كدخولهم الإسلام ومعرفتهم بشعائر المسلمين.

وكان من نتيجة ترحيب كتبغا بهؤلاء المغول واستضافته لهم فى وقت كانت فيه البلاد تعانى من المجاعة واشتد الغلاء وندرت الأقوات ومات الناس بسبب الجوع، كل ذلك كان سببا فى إستياء الناس وغضبهم على كتبغا، هذا إلى جانب أن هؤلاء المغول كانوا وثنيين، ولم يعتنقوا الإسلام بعد، وكانوا يخالفون أوامر الدين الإسلامى ولا يصومون رمضان، فظهر كتبغا فى صورة حامى الوثنيين، فضلا عن أن المسلمين فى مصر والشام لم ينسوا ما فعله المغول بالعالم الاسلامى.

ثالثاً : وهناك سبب ثالث أدى إلى زوال حكم كتبغا وهو اهتمام كتبغا بمماليكه وحدهم، مما أثار بقية الجند عليه، فلم يتبع كتبغا الطريقة الصحيحة فى ترقية مماليكه وتأمرهم وهى طريقة التدرج، مما أدى إلى تطاول مماليكه على الأمراء الكبار والقدامى. فتكبروا عليهم واستحوذوا على الاقطاعات، وكثرت مظالمهم مما أدى إلى مزيد من كراهية العامة والخاصة لكتبغا والرغبة فى الخلاص منه.

وعم السخط على حكم كتبغا فى بلاد الشام أيضا وذلك لأسباب منها :-

- أن كتبغا عزل نائب السلطنة بالشام، وهو الأمير عز الدين ايبك الحموى، وولى بدلا منه أحد مماليكه، مما أدى إلى غضب أمراء الشام على كتبغا.
- أن كتبغا عندما زار بلاد الشام لأول مرة بعد سلطنته لم ينعم على امراء الشام بالخلع والهدايا والاقطاعات كما جرت عادة السلاطين من قبل .ولذلك عم السخط على كتبغا فى بلاد الشام كذلك.

ومما لاشك فيه أن أصابع نائب السلطنة حسام الدين لاجين لعبت دورا كبيرا فى اظهار روح الاستياء ضد كتبغا، وذلك ليمهد الطريق لنفسه للوصول إلى عرش السلطنة، مستغلا فى ذلك عوامل الكراهية التى أخذت تتجمع ضد كتبغا.

سلطنة المنصور حسام الدين لاجين (٦٩٦-٦٩٨هـ/١٢٩٦-١٢٩٨م):-

كان حسام الدين لاجين مملوكاً من مماليك المنصور قلاوون، ثم أعتقه، ورقاه إلى أن أصبح أميراً، وزوجه من أحدى بناته، وعينه نائباً على دمشق، فلما ولى الاشرف خليل عزله من هذه النيابة، فأثار ذلك الحقد فى نفسه، ودفعه إلى الاشتراك فى تدبير مؤامرة لقتله. واتخذ لاجين من زواجه من ابنة قلاوون ذريعة لاحقيته فى تولى العرش واستغل مظاهر الكراهية التى أحاطت بالعادل زين الدين كتبغا سواء فى مصر أم فى الشام، ودبر مؤامرة مع الأمراء للتخلص منه وتولى السلطنة مكانه،وذلك بإعداد العدة لقتله عند عودته من الشام إلى مصر . وشرع لاجين فى تنفيذ المؤامرة فى عام ٦٩٥هـ/١٢٩٦م، إذ كان كتبغا فى زيارة إلى بلاد الشام وفى صحبته لاجين، وفى طريق العودة إلى مصر انقض لاجين على السلطان يريد قتله، غير أن مؤامرة حسام الدين لاجين انتهت بالفشل، اذ تمكن العادل كتبغا من الفرار، وعاد إلى دمشق، ولجأ إلى قلعتها واحتمى بها.

وتمكن الأمير حسام الدين من الاستيلاء على دهليز السلطان أى خيمته وعلى الخزائن والحرس والعساكر وساقهم أمامه إلى مدينة غزة، حيث بايعه الأمراء بالسلطنة، ثم دخل حسام الدين مصر وبايعه سائر الأمراء بالسلطنة،وكان الأمراء قد وافقوا على تولية المنصور لاجين العرش بشرط الا ينفرد برأيه دونهم، والا يسلط مماليكه عليهم أو يتركهم يعبثون بمصالح الغير، ووافق لاجين على هذه الشروط، وعندئذ أقسم الأمراء له يمين الطاعة والولاء فى عام ٦٩٦هـ/١٢٩٧م، ولقب بالمنصور حسام الدين لاجين، وخطب له على منابر المساجد فى مصر.

ولم يكتف المنصور حسام الدين بذلك بل كتب نسخة تقليد لكتبغا بنيابة صرخد - من أعمال دمشق - بعد أن أخذ عليه العهد بأن لا يكاتب أحدا أو يشاور أحدا، وقبل كتبغا ذلك، وتنازل عن الحكم، وظل كتبغا مقيما فى صرخد حتى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية (٦٩٨-٧٠٨هـ/١٢٩٨-١٣٠٨م) الذى منحه حماه، وظل حاكما عليها إلى أن توفى فى عام ٧٠٢هـ/١٣٠٢م.

على أن تخلص السلطان المنصور من كتبغا لا يعنى أن مشاكله قد انتهت فى مستهل حكمه، بل كان عليه أن يواجه مشكلة أخرى وهى الناصر محمد بن قلاوون، الذى ظل مقيما فى القاهرة، ينظر إليه الناس على أنه صاحب الحق الشرعى فى السلطنة، لذلك شرع المنصور لاجين فى ابعاد الناصر محمد عن مصر، فأرسله إلى الكرك بعد أن أمنه على حياته، وتعهد بأنه سيعيده إلى العرش عندما يبلغ سن الرشد. فقد قال له وهو يودعه قبل رحيله إلى الكرك : "أنا مملوك والدك، احفظ لك الملك، وأنت الآن تروح إلى الكرك إلى أن تترعرع وترتجل... وتجرب الأمور وتعود إلى الملك". ونظر المنصور لاجين كذلك بعين القلق إلى مقام الخلافة العباسية إلى جواره فى القلعة، لذلك قام بنقل الخليفة العباسى الحاكم بأمر الله إلى قصر مناظر الكبش بُجوار جامع أحمد بن طولون . وأجرى عليه الأرزاق الواسعة.

وبعد ان استراح المنصور لاجين من العادل كتبغا والناصر محمد بن قلاوون ونقل الخليفة العباسى إلى مناظر الكبش، بذل جهده لإرضاء الشعب، وحرص على أن يسود العدل بين الناس. وفى عهده قام بعمل "الروك الحسامى"، فى ٦٩٧هـ/١٢٩٧م، وذلك بسبب رغبة السلطان المنصور ونائبه منكوتمر فى إعادة ترتيب وتوزيع الاقطاعات، فقد لاحظ المنصور أن الأمراء يأخذون كثيراً من إقطاعات الأجناد ولا يدفعون عنها الحقوق والمقررات الديوانية مما يجعلها مغنما لأعوانهم ومستخدميهم. لذلك قام بعملية الروك وعمد إلى تبديل الاقطاعات الغنية إلى اقطاعات دونها فى العبرة (وهو متوسط الدخل السنوى لاقطاع). كما اختفى نائبه منكوتمر نفسه والملتفين حوله بأفضل الاقطاعات من حيث العبرة والمتحصل والخصوبة مما أثار الأمراء عليه. وراعى المنصور لاجين المصلحة عند إعادة توزيع الاقطاعات، وتقرب إلى عامة الشعب، فكان يجالسهم ويشاركهم فى طعامهم، وأصدر كثيرا من الأوامر للمحافظة على أموال اليتامى،وكان - كما سبق ان ذكرنا - قد نذر أن يقوم بإصلاح جامع أحمد بن طولون أثناء اختفائه فيه بعد مقتل الأشرف خليل، فوفى بنذره وصرف مبالغ طائلة على تجديده. ومن حسن طالعه ان

ارتفع الفيضان فى عهده، فكثرت المحاصيل، وانخفضت الأسعار، وتوقفت المجاعة وانعدم الوباء، فزاد حب الناس له، وقد عبروا عن حبهم له بالترحيب به والتهليل له كلما خرج بموكبه يشق شوارع القاهرة.

وعلى الرغم من أن الوقت صفا للمنصور لاجين واكتسب محبة الشعب الا أنه وقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه من سبقوه، فقد حنث بالوعد الذى أخذه على نفسه أمام الأمراء عندما اختاروه لتولى منصب السلطنة، فبدأ بتقريب نفر من مماليكه إليه ورقاهم إلى مرتبة الإمارة . وكان من أقرب المقربين اليه مملوكه "منكوتمر" فعينه نائبا للسلطنة، وعزل منها الأمير "شمس الدين قراسنقر المنصورى"، وفوض لمنكوتمر الأمور كلها،وأطلق له العنان يتصرف وفق هواه، فاستبد بالحكم. واستاء الشعب والجند والأمراء من تصرف السلطان لاجين هذا، وذلك لأن منكوتمر كان رجلا فظا، استولى على السلطان وحجبه عن العامة والخاصة، وازداد نفوذه وتسلطه لدرجة انه إذا رسم السلطان المنصور لاجين مرسوما أو كتب لأحد توقيعا ليس بإشارة منه، كان منكوتمر يأخذ هذا المرسوم من يد المعطى له ويمزقه وعلامة السلطان عليه ولا يبالى.

كذلك زين منكوتمر للسلطان أن يجعله وليا لعهده، وأن يبايعه بالسلطنة من بعده خاصة وأن السلطان المنصور لاجين لم يكن له ولد يخلفه على العرش، وطلب منكوتمر من السلطان أيضا أن يقرن اسمه باسمه فى الخطبة، وأن ينقش اسمه إلى جوار اسم السلطان على السكة . غير أن منكوتمر لم يصل إلى ما تمنى، اذ لم يمهله الأمراء، وانقضوا عليه وقتلوه بعد أن ثقلت وطأته عليهم لاتباعه سياسة العنف معهم، وتشكك فيهم وحاول إقصائهم عن مناصب الدولة وإحلال غيرهم من مماليك لاجين محلهم، بل حاول أكثر من ذلك إقصائهم عن البلاد، فأشار على السلطان بأن يبعد أمراء مصر إلى الشام، وأن ينقل أمراء الشام إلى مصر، واقتنع السلطان بمشورته، وأخذ يعد العدة لتنفيذ هذا المشروع، فأحس الأمراء بالخطر، وقرروا التخلص منه ومن سلطانه معا.

وفى يوم الخميس العاشر من ربيع الآخر من عام ٦٩٨هـ/يناير ١٢٩٩م

وبينما يعيد الناصر تنظيم جيشه من جديد وصل وفد من قبل غازان يعرض الصلح، ويحمل رسالة فى هذا المعنى، واستجاب الناصر محمد لهذه الدعوة، ولكن يبدو أن طلب غازان الصلح كان خدعة يقصد بها كسب الوقت والتعرف على استعدادات العدو، اذ لم لم يلبث أن وصلت أخبار من حلب تخبر بأن غازان يستعد للسير إلى الشام، وأن أهالى دمشق قد تملكهم الذعر، ولجأوا إلى المسجد الجامع يدعون الله أن ينقذهم من هذا الكرب العظيم.

وأصدر الناصر أوامره بإعداد الجيش، وخرج الجنود هذه المرة تدفعهم روح الحماس والرغبة فى الانتقام ومسح عار الهزيمة السابقة، وهذه المرة التقى الجيشان عند "مرج الصفر"-جنوبى دمشق-فى عام (٧٠٢هـ/١٣٠٣م). وابلى كل من سلار وبيبرس ومعهما الجيش المصرى فى هذه المعركة بلاء حسنا، وتحقق النصر للمماليك، واتجه الناصر بعد المعركة إلى دمشق، فخرج أهلها جميعا يستقبلونه استقبال المنتصر، ويضجون بالدعاء له والشكر لله سبحانه وتعالى، وزينت المدينة كلها، وظلت أفراح النصر قائمة حتى وافى عيد الفطر، فصلى الناصر صلاة العيد فى دمشق ثم أخذ طريقه عائد إلى مصر.

ولم يكد الناصر يستقر فى عاصمة ملكه، حتى تواترت الأخبار أن الأعراب قد استشرى خطرهم،وعاثوا فساد افى أنحاء الصعيد ومدنه، وأعلنوا عصيانهم، وقطعوا الطرق ونهبوا الناس. وكان على الدولة أن تضع حدا لهذا الفساد والعبث، وتقرر أن تخرج أربع فرق من الجيش إلى الصعيد، وتحركت هذه الفرق الأربع فى وقت واحد وعلى رأسها سلار وبيبرس، وقد صدرت الأوامر لها بقتل من تراه من العربان مهما كانت مكانته، ونجحت الخطة، وفوجئ العربان بجيوش المماليك تنقض عليهم وتحيط بهم من كل مكان، وقتل العربان فى كل مكان واستولت الحكومة على أملاكهم ودوابهم وأسلحتهم، وبذلك انكسرت شوكتهم، وتخلصت الدولة من خطرهم.

وبعد هذه الانتصارات رغب الناصر محمد فى مباشرة شئون الحكم بنفسه، غير أن الاميرين بيبرس وسلار حالا بينه وبين ذلك، فضاق بهما السلطان ذرعا

واستدعى الامير "بكتمر الجوكندار" - والجوكندار هو حامل جوكان السلطان أثناء لعبه الكرة والجوكان عصا طولها أربعة اذرع فى رأسها خشبة مخروطة تستخدم فى لعب كرة البولو - لمساعدته فى التخلص من بيبرس وسلار، ولكن كان لهما عيون فى القلعة، فعلما بالمؤامرة،وحاصرا القلعة وحاولا القبض على الناصر محمد. وهنا ناصر الشعب الناصر محمد، فلم يكد العامة يعرفون بمحاصرته حتى تجمعوا وأخذوا يهتفون :"يا ناصر يا منصور ...الله يخون من يخون ابن قلاوون ".

واضطر بيبرس وسلار ازاء مناصرة الشعب للناصر محمد، ان يجددا الولاء له، بعد أن تجاوزا الحد فى الانفراد بالأموال والأمر والنهى . ولم يشعر السلطان بالراحة ازاء وضعه هذا، اذ كان يشعر بكراهية بيبرس وسلار له، لذلك خشى على نفسه من عاقبة الغدر به، فقرر أن يترك منصب السلطنة، وجمع الأمراء وقال لهم :"أن كان غرضكم فى الملك فما أنا متطلع إليه فخذوه، وابعثونى أى موضع اردتم"، ثم تظاهر بأنه يرغب فى اداء فريضة الحج، وخرج من مصر قاصدا الحجاز عن طريق الكرك، ولكنه ما كاد يصل إلى الكرك فى عام ٧٠٨هـ/١٣٠٨م حتى أعلن أنه عدل عن الحج، وأخبر الأمراء والمماليك أنه يرغب فى أن يعيش فى الكرك حرا، وأنه ترك السلطنة وقيودها، وقال لهم : "أنها أى الكرك من بعض قلاعى وملكى، وقد عولت على الاقامة بها ".

وأرسل الناصر بعد ذلك إلى الأمراء فى مصر يخبرهم بما استقر عليه، فارتبك الأمراء عندما وصلتهم رسالة الناصر محمد، لأنهم لم يكونوا مستعدين لهذا الموقف، وعلى الفور أرسلوا اليه يطلبون منه العودة إلى مصر والا حرموه من السلطنة ومن الإقامة فى الكرك، ولكنه أصر على رأيه، عندئذ عرض الأمراء السلطنة على سلار، فاعرض عنها خوفا من أن يتعرض لنفس المصير الذى تعرض له من قبله كل من كتبغا وحسام الدين لاجين، خاصة وأن أحوال البلاد لم تكن مستقرة واعتذر سلار عن تولى منصب السلطنة واشار على الأمراء بزميله بيبرس الجاشنكير بقوله : "والله يا أمراء ما أصلح للملك ولا يصلح له الا أخى هذا " واشار إلى بيبرس الجاشنكير، فوافق الأمراء على هذا الترشيح، وبايع الأمراء بيبرس بالسلطنة.

سلطنة المظفر بيبرس الجاشنكير "بيبرس الثانى" (شوال ٧٠٨هـ/ مارس ١٣٠٨م) :-

قام بيبرس الجاشنكير فور توليته عرش السلطنة بكتابة تقليد بمنح الناصر محمد الكرك، وظن بذلك أن الأمور قد هدأت واستقرت له، وعندئذ قام بتنظيم أمور البلاد فعين سلار نائبا للسلطنة .غير أن حكم بيبرس الجاشنكير لم يدم سوى عام واحد، لم تستقر فيه الأمور له. ويرجع ذلك لأسباب من بينها :-

أولا :-شعبية الناصر محمد بن قلاوون، فقد تمتع الناصر محمد بشعبية كبيرة سواء فى مصر أم فى الشام، بحيث لم يستطع الناس أن ينسوه بسهولة كما توهم المظفر بيبرس الجاشنكير. وترجع شعبية الناصر محمد بصفة خاصة وبيت قلاوون بصفة عامة إلى أن الناس سئموا فى عصر المماليك كثرة الاضطرابات والفتن والمنازعات بين طوائف المماليك وبين أمرائهم، فلا يكاد ينتشر الخبر بمرض سلطان أو قتله أو وفاته حتى تغلق الأسواق والحوانيت، ويخزن الناس الطعام، ويستعدون لفترة عصيبة يفتقرون فيها إلى الأمن والاستقرار، وتسوء الأحوال الاقتصادية، لذلك أمل الناس فى أن يحيوا حياة عادية بلا فتن ولا أزمات، وقد نعموا بهذه الحياة فى عهد المنصور قلاوون ثم فى عهد ابنه الناصر محمد.

ومن ثم فأن بيت قلاوون يعد رمزا للاستقرار والأمن والنهضة فى الداخل، فضلا عن أنه كان رمزا للعظمة والقوة فى الخارج، فقد استطاعت دولة المماليك خلاله أن تثبت قدرتها على مواجهة الأخطار الخارجية – خاصة خطر المغول والصليبيين –التى هددت مصر والشام .ويرجع ذلك إلى ما بذله قلاوون وأبنائه من جهود لارساء هيبة بيت قلاوون فى النفوس.، ومن أجل ذلك تمتع بيت قلاوون بصفة عامة والناصر محمد بصفة خاصة بشعبية كبيرة..

ثانيا :-انخفاض النيل وارتفاع الأسعار، وخاصة سعر القمح وسائر الغلال، وزاد من حدة هذه الأزمة أن الأمراء منعوا بيع الغلال من شونهم، وخشى الناس من أن يقع الغلاء، ويشتد كما حدث زمن العادل كتبغا، لذلك خرج الناس لصلاة الاستسقاء، غير أنه ازداد نقصان ماء النيل وازداد تشاؤم الناس بسلطنة بيبرس الجاشنكير، وكرهه الشعب وكره عهده، وقد عبر الشعب عن سخطه وغضبه على بيبرس وحكمه بالتظاهر فى شوارع القاهرة يرددون قولهم :"سلطاننا ركين ..ونائبنا دوقين .. يجينا الماء منين، أجيبوا لنا الاعرج (يقصدون الناصر محمد إذ كان به عرج خفيف)... يجى الماء يدحرج ".

ثالثا :-أن كثيراً من أمراء الشام رفضوا الأعتراف بالسلطان المظفر بيبرس، خاصة نواب حلب وحماه وطرابلس، وأكثر من ذلك أعلن هؤلاء تأييدهم لبيت قلاوون. وأصروا على تمسكهم وولائهم لابن أستاذهم الملك الناصر محمد بن قلاوون وقالوا : "إنا على إيمان ابن استاذنا لا نخونه، ولا نحلف لغيره ولا نواطئ عليه، ولا تفسد ملكه، فكيف نحلف لغيره.." كما يذكر ابن تغرى بردى وكاتبوا الناصر محمد وعرضوا عليه المساعدة فى استعادة عرشه، ولكن الناصر شكرهم وطلب منهم التريث لأن البلاد أصبحت فى يد بيبرس، لذلك لابد من التدبير والمداراة والصبر على الأمور : وطلب منهم أن يحلفوا لبيبرس حتى يطمئن إليهم وحتى تهدأ الأمور. والحقيقة أن الناصر محمد عندما لجأ إلى الكرك لم يكن يقصد التنازل عن العرش، وإنما أراد أن يمهد للاتصال بأمراء الشام ونوابه لجمعهم حوله والانتصار بهم، ثم مهاجمة مصر لأبعاد بيبرس وسلار واستخلاص العرش ثانية لنفسه، وقد نجحت خطة الناصر محمد، واستجاب أمراء الشام لدعوته، وأعلنوا ولائهم له، والتفوا حوله، وكان أن علم المظفر بيبرس بما دار من اتصالات بين الناصر محمد وأمراء الشام وخاصة أمراء حلب وحماة وطرابلس، لذلك أرسل بيبرس إلى الناصر محمد يهدده، بل وأرسل يطلب منه كل ما لديه من خيل ومماليك.

عندئذ غضب الناصر محمد أشد الغضب، وأرسل إلى حلفائه أمراء الشام يخبرهم بعزمه على الخروج إلى دمشق استعداداً لاسترداد عرشه المفقود، وترك كثيرا من الأمراء جانب بيبرس، وانضموا إلى الناصر محمد ومنهم من هرب إليه وذهب إلى الكرك.

رابعا :- ضعف جانب بيبرس الجاشنكير بعد أن ترك الأمراء جانبه وانضموا إلى صفوف الناصر محمد، وحاول بيبرس الجاشنكير أن يقوى مركزه وذلك عن طريق الحصول على بيعة جديدة من الخليفة العباسى بالقاهرة وهو "أبو الربيع سليمان"، ولكن محاولة بيبرس هذه لم تجد فى شيء لأن الخليفة العباسى فى القاهرة كان لا حول له ولا طول ولا قوة، وليس أدل على ذلك من أن أحد الأمراء عندما قرأ العهد الذى منحه الخليفة سليمان لبيبرس الجاشنكير، وكان أوله " أنه من سليمان وأنه بسم الله الرحمن الرحيم .."فرد هذا الأمير قائلا على الفور "ولسليمان الريح ..".وهكذا تجمعت عدة عوامل جعلت حكم المظفر بيبرس غير مستقر.

وأخيرا قرر الناصر محمد العودة إلى مصر هو وأنصاره وأعوانه ورجاله، وعندئذ تأزم موقف بيبرس الجاشنكير اذ انصرف عنه معظم الأمراء، وأصبح وحيدا لاشعب يحبه ولا جيش يقف إلى جواره. وجمع بيبرس الأمراء لمشاورتهم فى الأمر، فأشار عليه بعضهم بالتنازل عن العرش، وأن يرسل للناصر محمد يطلب عفوه وسماحه، ويقال أن بيبرس عمل برأى الأمراء، وأرسل إلى الناصر محمد كتابا يسأله العفو، وأن يعينه نائبا على أحدى المدن، وقال فى ختام كتابه "فإن حبستنى عددت ذلك خلوة، وأن نفيتنى عددت ذلك سياحة، وإن قتلتنى كان ذلك لى شهادة". ويقال أيضا أنه لم يفعل اذ كان من الصعب عليه. على أية حال أعلن بيبرس خلع نفسه من السلطنة، وغادر القلعة ليلا قاصدا اطفيح بصعيد مصر، وكان العامة يطاردونه، وكادوا يقتلوه لولا ما كان ينثره عليهم من الفضة، وبعد فراره اسقط الأمراء اسمه من الخطبة، وخطب باسم الناصر محمد بن قلاوون.

سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة (٧٠٩-٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤٠م):-

وصل الناصر محمد إلى القاهرة فى جمادى الأخرة ٧٠٩هـ/ ديسمبر ١٣٠٩م، وكان يرافقه أتباعه ورجاله والمؤرخ "إسماعيل أبو الفدا" الذى وصف لنا كيف كان السلطان يلتقى كل يوم أثناء مسيرته بجموع المماليك والأمراء، وقد خرجوا لاستقباله وتقديم فروض الطاعة والولاء له. وبعد أن جلس الناصر محمد على عرش السلطنة حضر الخليفة أبو الربيع والأمراء والقضاة وسائر أهل الدولة لتهنئته.

كان السلطان الناصر محمد فى سلطنته الثالثة هذه قد جاوز سن الطفولة إذ بلغ الخامسة والعشرين من عمره، وأصبح يستطيع مباشرة شئون الحكم، بعد أن حنكته التجارب واصقلته الخبرات، فلم يترك للأمراء شيئا من النفوذ، بل جمع السلطة كلها فى يده، ورسم خطة للانتقام الهادىء البطىء من كل الأمراء الذين اساءوا له فى الماضى وأذوه وعلى رأس هؤلاء بيبرس وسلار، فبدأ ببيبرس، فأمر بالقبض عليه عند غزة وهو يحاول الفرار، وحمل إلى مجلسه وهو مقيد بالاغلال، وأخذ الناصر يعدد له ذنوبه، فاقر بيبرس بها، وسأله العفو، ولكن أمر السلطان الناصر بخنقه، فخنق بين يديه حتى مات فى ١٥ من ذى القعدة سنة ٧٠٩هـ/١٣١٠م.

أما عن سلار فقد طلب من السلطان أن يعفيه من وظيفة نائب السلطنة وان يعينه حاكما على الشوبك، فاستجاب الناصر لطلبه مؤقتا، وسافر سلار إلى الشوبك، فلما أطمأن واعتقد أن السلطان قد عفا عنه، أرسل الناصر فأستدعاه لمقابلته، وعند وصوله إلى القاهرة قبض عليه وأودع السجن فى قلعة الجبل، وأمر الناصر أن يترك فى السجن دون طعاما أو شراب، وبعد سبعة أيام اشتدت به آلام الجوع والعطش، وصار يصرخ فى طلب الطعام والماء، وعند ذلك فتح باب السجن وقدمت اليه ثلاثة أطباق أولها ملىء بالذهب، وثانيها بالفضة، وثالثها باللؤلؤ والجوهر، فاشتد ألمه وتوفى بعد قليل بعد أن أكل أحد أصابعه كما تذكر بعض الروايات.

كذلك كان الناصر محمد بالمرصاد لكل من يحاول التآمر عليه بعد استعادته العرش فقد كانت عينه هذه المرة يقظة ترقب من بعيد، فعندما حاول الأمير "بكتمر الجوكندار"، نائب السلطنة تدبير مؤامرة لخلع الناصر، وإقامة ابن أخيه الامير مظفر الدين موسى ابن الملك الصالح بن قلاوون فى السلطنة، أمسك بابن أخيه المظفر وزج به فى السجن، وتجاهل بكتمر نائب السلطنة مع علمه أنه رأس المؤامرة، وتظاهر بالعطف عليه، ولكن كان يتربص له حتى تمكن من القبض عليه

بحيلة دبرها له وذلك فى ٧١١هـ/١٣١١م والقى به فى السجن بالإسكندرية ثم نقله إلى سجن الكرك هو ومن معه من الأمراء. وهكذا تنبه الناصر محمد فى تلك المرة إلى أطماع الأمراء،فكان كلما سمع بتآمر أمير وشك فى تصرفاته تخلص منه فى الحال واقصاه عن الوظائف العامة .وكانت سياسته تجاه كبار رجال الدولة تتلخص فى أنه يقرب الواحد منهم فإذا ما أحس بتزايد نفوذه عما يجب تخلص منه فى الحال، كما فعل مع بكتمر الجوكندار نائب السلطنة.

اصلاحات الناصر محمد بن قلاوون فى الداخل :-

طالت سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة حتى بلغت ثلاثين عاما وينيف، نعمت مصر خلالها بالهدوء والاستقرار، وبلغت الذروة فى التقدم والرخاء والعمران والسلطان والنفوذ.

وبدأ الناصر محمد بإلغاء كثير من المكوس أى الضرائب غير الشرعية التى استحدثها الولاة والسلاطين لسد الحاجات الطارئة للدولة، ومن بين المكوس التى ألغاها الناصر مكس ساحل الغلال، ومقرر الاقصاب، ومقرر المعاصر، ومقرر رسوم الأفراح وغيرها، وكان إلغاء هذه المكوس جزءا من سياسة الناصر محمد التى رسمها لإضعاف الأمراء فقد كان الأمراء أول المنتفعين بها.

ومن الأعمال الهامة التى قام بها الناصر محمد خلال سلطنته الثالثة "الروك الناصرى" والروك كلمة من أصل قبطى، تطلق على عملية قياس الأرض ومسحها، وتقدير ما عليها من خراج وضرائب، وهى تقابل ما نسميه فى الوقت الحالى عملية فك الزمام. وذلك ليتمكن من توزيع الاقطاعات بطريقة عادلة على الأمراء وبعد إتمام هذا الروك أعاد الناصر تقدير العبرات "الايرادات" لكثير من الاقطاعات كما أعاد توزيع هذه الاقطاعات بحيث يحد من قوة الأمراء وسلطانهم. وقد استغرق إجراء هذا الروك خمسة وسبعين يوماً.

وكان الناصر محمد شغوفا بالعمران والبناء والتعمير لذلك شهد عصره إقامة العديد من المنشآت العمرانية من ميادين وقصور ومساجد وخانقاوات (بيوت الصوفية) وغيرها . ومن أهم هذه المنشآت "الميدان الناصرى" وموقعه الآن حى جاردن سيتى بالقاهرة، وكان قد خصص لسباق الخيل،ويرجع ذلك لشغف الناصر محمد بالخيل واقتنائها وتربيتها. ومن منشئات الناصر أيضا "القصر الابلق" بقلعة الجبل، وكان يشرف على الميدان الكبير، واشترك فى بناء هذه القصر وزخرفته صناع مهرة من دمشق، ومن القاهرة وسمى بالابلق لأن واجهته كانت مكونة من اشرطة عريضة متوازية ذات لون أسود أو أصفر على التوالى نتيجة لاستخدام نوعين من الصخور لهما هذان اللونان.. وأعاد الناصر بناء الايوان، وكان قد بناه والده السلطان المنصور قلاوون، وجدده أخوه الاشرف خليل، فأعاد هو بناءه، وانشأ به قبة عظيمة، ونصب فى صدره سرير الملك، وكان مصنوعا من العاج والابنوس، وكان هذا الايوان حيث يقوم مسجد محمد على الحالي فى القلعة.

ومن المساجد التى انشأها الناصر محمد "مسجد القلعة"، وقد انشأه إلى جانب القصر والايوان، ولايزال موجودا حتى اليوم، وله مئذنتان تعتبران من أجمل المآذن فى مصر، وتمتازان بالروعة والجمال، وبهذا الجامع أقدم مزولة، وسمى ايضا بالجامع الاخضر نظرا لبلاطات القيشانى الأخضر التى تغطى قبة المسجد. كذلك قام الناصر بعمل تجديدات فى الجامع الازهر، وجامع عمرو بن العاص. ومن الخانقاوات التى انشأها الناصر محمد الخانقاه الصوفية التي بناها بالقرب من سرياقوس، وقد عمر ما حولها حتى أصبحت اليوم قرية قائمة بذاتها تعرف باسم "الخانكاه".هذا فضلا عن قيامه ببناء مدرسة إلى جوار مدرسة أبيه المنصور قلاوون، وقام كذلك بإصلاح البيمارستان المنصورى الذى انشأه أبوه.

ومن المشروعات العمرانية التى قام بها الناصر محمد خارج مدينة القاهرة، حفر "الخليج الناصرى"أو خليج الاسكندرية فى عام ٧٢٥هـ/١٣٢٤م، وكانت الرمال قد طمرته، وتعطلت به الملاحة، وعهد الناصر بهذا العمل إلى نائبه "ارغون الناصرى"، فقام أرغون ومعه المهندسون وأرباب الخبرة بمسح الموضع الذى يبدأ منه الحفر، وكتب ارغون إلى ولاة الأعمال بإحضار الرجال للحفر . وكان من نتائج تنفيذ هذا المشروع، نشاط حركة التجارة فى الإسكندرية، وازدياد العمران بها، ونمو الاراضى المنزرعة على ضفتى الخليج بين النيل والإسكندرية.

سياسة مصر الخارجية فى عصر الناصر محمد بن قلاوون :-

كان للاستقرار والرخاء الذى نعمت به مصر فى عهد الناصر محمد، إلى جانب سياسته الحازمة أثر كبير فى رفع مكانة مصر فى العالم الخارجى، فسعت معظم الدول المسيحية والإسلامية إلى خطب وده، وعمل هو من جانبه على تحسين علاقاته بهذه الدول وساعده على ذلك زوال الخطرين الكبيرين اللذين هددا مصر وهما خطر المغول وخطر الصليبيين.

فبالنسبة لدولة مغول القفجاق، استمر الناصر محمد محافظا على علاقات الصداقة التقليدية والمحبة والمودة،التى ربطت دولة المماليك بدولة مغول القفجاق منذ عصر السلطان الظاهر بيبرس. أما بالنسبة لدولة بنى رسول فى اليمن،فقد خطب ملوكها ود الناصر محمد، وكانوا يخطبون له على منابرهم، ويرسلون له الهدايا. وكذلك لجأ إلى مصر صاحب تونس أبو زكريا اللحيانى-أحد ملوك الحفصيين، فساعده الناصر على العودة إلى عرشه، فخطب للناصر على منابر تونس.

وقامت علاقات طيبة بين الناصر ودولة بنى قرمان إحدى الدول التركمانية الصغيرة التى قامت فى جنوب آسيا الصغرى على انقاض دولة سلاجقة الروم، ففى عام ٧١٨هـ/١٣١٨م وصلت إلى مصر سفارة من هذه الدولة تحمل نقودا ضربت فيها وعليها اسم السلطان الناصر محمد، ورسالة تشير إلى أنهم يخطبون للسلطان على منابرهم.

وقد أكد إحياء الخلافة العباسية فى مصر زعامتها على كل الدول الإسلامية الاخرى، لهذا نجد أن السلطان محمد بن طغلق أحد ملوك الهند، يرسل إلى الخليفة العباسى فى مصر رسلا يطلبون منه تقليدا بتولية السلطان محمد الملك، وقد أرسل نفس السلطان بعثتين إلى الناصر يطلب منه المساعدة ضد المغول الذين كانوا يهددون ملكه.

وقامت علاقات صداقة ومودة بين مصر والدول الإسلامية فى غرب أفريقيا

وهى دول الكانم والتكرور وبورنو، فعندما مر ملك التكرور وهو منسا موسى بمصر فى طريقه لاداء فريضة الحج قوبل بكل اكرام وترحاب.

أما عن علاقة مصر بالدول المسيحية فقد وصلت للناصر محمد بن قلاوون سفارات من عند البابا ومن عند ملك فرنسا وإمبراطور القسطنطينية اندرونيق الثالث(١٣٢٨-١٣٤١م)، بل ووصلت إلى بلاد الناصر محمد سفارة صربية بنغارية تخطب وده. مما يؤكد استمرارعلاقات المودة والصداقة بين مصر ودول العالم المسيحى.

عصر أولاد الناصر محمد وأحفاده ونهاية دولة المماليك البحرية :-

يطلق المؤرخون على الفترة الممتدة من وفاة الملك الناصر محمد سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤١م وحتى نهاية دولة المماليك البحرية وقيام دولة المماليك الجراكسة سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م اسم "عصر أولاد الناصر محمد وأحفاده".

ولكن هذه التجربة الفريدة لتطبيق نظام وراثة السلطنة فى العصر المملوكى باءت أخيراً بالفشل حين تفاقمت الفوضى ومهدت السبيل لازدياد قوة المماليك البرجية او الجراكسة ونفوذهم حتى "عرفوا بين الأمراء وقوى أمرهم، وصار منهم أمراء وأصحاب أخباز، وتميزوا بكبر عمائمهم" كما يذكر المقريزى.

وانتهى الأمر بنجاح واحد من هؤلاء الأمراء الجراكسة - وهو برقوق- فى خلع آخر سلطان من حفدة الناصر، وفى تولى العرش، فكان هذا إيذاناً بنهاية حكم أسرة بنى قلاوون ودولة المماليك البحرية، وببدء دولة جديدة هى دولة المماليك البرجية أو الجراكسة. وفيما يلى تفصيل الحديث عن هذه الحقبة من حكم أولاد الناصر وحفدته.

أبناء الناصر محمد :

أما عن الأولاد فقد كان الناصر محمد يمهد فى السنوات الأخيرة من حياته لتوريث العرش لأحد أبنائه، فعهد فى سنة ٧٣١هـ/ ١٣٣١م بالملك من بعده لابنه أنوك، وكان فى التاسعة من عمره، ووافق الأمراء على هذا الاختيار، وركب أنوك

بشعار السلطنة، واحتفلت الدولة بهذه المناسبة احتفالاً كبيراً، ووزعت الخلع على الأمراء وكبار الموظفين، ولكن أنوك لم يقدر له أن يلى العرش، فقد توفى فى سنة ٧٤٠هـ/١٣٤٠م قبل وفاة أبيه بقليل، فجمع الناصر كبار الأمراء وأخذ عليهم المواثيق بتولية ابنه سيف الدين أبى بكر السلطنة من بعده.

وفى نفس السنة ٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م توفى الناصر محمد، وصدق الامراء وعودهم، وولى سيف الدين أبو بكر العرش، وكان فى العشرين من عمره، ولكنه كان قليل الخبرة، فلم تلبث أن قامت أسباب الخلاف بينه وبين الأمراء، وخاصة كبيرهم قوصون أتابك العسكر، وأخذ قوصون يثير كبار الأمراء على السلطان ويخيفهم منه قائلاً لهم : "هذا السلطان يريد أن يقتلكم ولا يخلى أحداً منكم". واستمع الامراء لقوله، والتفوا حوله، فألقى القبض على السلطان وأبعده إلى قوص، ثم قتل بعد قليل، ولم يكن قد مضى عليه فى السلطة غير ثلاثة شهور.

واستدعى قوصون ابناً آخر من أبناء الناصر محمد وهو كجك، وولاه العرش فى سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤١م، ولقب بالملك الأشرف، وكان عمره وقتذاك خمس سنوات، فلم يكن من الطبيعى أنه يستطيع مباشرة الحكم بنفسه، وأمضى فى السلطنة خمسة أشهر وعشرة أيام، لم يكن له فيها "أمر ولا نهى ، وتدبير أمور الدولة كلها إلى قوصون" كما يقول المقريزى .

وخلع كجك، واختار الامراء أخاه أحمد ليلى السلطنة فى سنة٧٤٢هـ/ ١٣٤٢م، ولقب بالملك الناصر، وكان يقيم وقتذاك فى الكرك، فاستدعى إلى مصر، ولكنه لم يلبث بها إلا قليلاً، ثم عاد إلى الكرك، وآثر المقام بها تاركاً أمور الدولة فى مصر والشام بأيدى الأمراء، فاضطربت الأحوال، وعمت الفوضى، وأرسل الأمراء إلى السلطان يستدعونه للمقام فى عاصمة ملكه ولكنه رفض.

واضطر الأمراء أمام هذا الوضع الغريب إلى خلع الناصر أحمد واختاروا مكانه أخاه إسماعيل الذى لقب نفسه بالملك الصالح، وظل يحكم ثلاث سنوات (١٣٤٢م- ١٣٤٥م)، ولم يكن خيراً من أخيه، بل لعله كان أسوأ منه سيرة فقد قال المقريزى بأنه : "أعرض عن تدبير الملك بإقباله على النساء والمطربين" وذكر

أيضاً أنه شارك فى قتل أخيه الناصر أحمد عندما ساءت سيرته فى الكرك، ولم يعمر الصالح إسماعيل طويلاً. فقد مرض وتوفى سنة ٧٤٥هـ/ ١٣٤٥م.

وولى السلطنة فى نفس السنة ١٣٤٥م ابن خامس من أبناء الناصر محمد هو الكامل شعبان، فسلك سلوك أخيه الصالح إسماعيل وأقبل على حياة اللهو والمجون، وأهمل شئون الدولة والحكم. وحاول قتل أخويه حاجى وحسين، فأثار غضب الأمراء، فقبضوا عليه وقتلوه، وتولى السلطة مكانه أخوه حاجى ولقب بالملك المظفر (٧٤٦هـ/١٣٤٦م).

وكان الملك المظفر زين الدين حاجى صبيا فى الحادية عشرة من عمره عندما تولى العرش، فانطلق يلعب ويلهو، وشغل نفسه بلعب الحمام مع (الأوباش). فثار عليه الأمراء وخلعوه قبل أن تمضى على حكمه سنة واحدة.

أحفاد الناصر محمد (١٣٦١-١٣٨٢م)

عزل الأمير يلبغا السلطان حسن بن الناصر محمد وقتله، وقد أختار للسلطنة من بعده صلاح الدين محمد ابن المظفر حاجى بن الناصر محمد وذلك فى سنة ١٣٦١م، وكان فى الرابعة عشرة من عمره، ولم يعمر فى الحكم غير سنتين (١٣٦١-١٣٦٣م).

ولم يختلف عهد أحفاد الناصر عن عهد أبنائه كثيرا، بل لعله كان أسوأ منه، فقد تولى الاحفاد الأربعة العرش وهم أطفال صغار، وقد أشرنا إلى سن صلاح الدين محمد، وقد تولى خلفه الأشرف شعبان فى العاشرة من عمره، واستمرت مدة حكمه ثلاثة عشر عاما (١٣٦٣م-١٣٧٦م). ثم أتى من بعده السلطان المنصور علاء الدين على وتولى العرش فى السادسة من عمره (١٣٧٦م-١٣٨١م). وكان آخرهم السلطان زين الدين أمير حاج وكانت سنه أحدى عشر سنة ولم يحكم غير سنة واحدة (١٣٨١م-١٣٨٢م).

وكان من الطبيعى أن تزداد شوكة أمراء المماليك وأطماعهم، وأن يتمادوا فى الاستبداد بأمور الحكم دون السلاطين، وأن يصبح هؤلاء السلاطين ألعوبة فى

أيديهم يولونهم أو يعزلونهم وفق مشيئتهم وأهوائهم، وأن يشتد بالتالى الصراع بين الأمراء بعضهم والبعض الآخر، وان ينقسموا شيعا وأحزابا، والشعب من ورائهم يرى ويسمع ولا يجد من يرعى مصالحه أو يعمل لرفاهيته، ولا يملك إلا أن يعلن عن حزنه لموت سلطان او لعزله أو لقتله، أو أن يقيم الأفراح والزينات احتفالا بتوليه سلطان جديد.

وقد استفاد من هذا الصراع المماليك البرجية الذين سبق أن جلبهم المنصور قلاوون وأسكنهم ابراج القلعة، وانتهى بهم الأمر إلى عزل حاجى آخر سلالة قلاوون، والقضاء على دولة المماليك البحرية، وإنشاء دولة جديدة هى دولة المماليك البرجية أو الجراكسة..

اتسم عصر أولاد الناصر محمد وأحفاده بعدة سمات من بينها:-

أولا : صغر سن السلاطين الذين اعتلوا عرش السلطنة اذ كانت أعمارهم تتراوح بين سنة وأربع عشرة سنة، وكان عددهم اثنا عشر سلطانا، حكموا ما يقرب من اثنين وأربعين سنة، منهم ثمانية من الأولاد، حكموا نحو عشرين سنة، وأربعة من الأحفاد، حكموا الاثنى والعشرين سنة الباقية.

ثانيا : تزايد نفوذ الأمراء واشتداد سطوتهم، فكان وراء كل سلطان أمير يقف خلفه حتى لمعت أسماء الأمراء، وطغت على أسماء السلاطين، ومن أشهر هؤلاء الأمراء : الأمير قوصون، والأمير شيخو ،وطاز، وصرغتمش، ويلبغا الخاصكى وبرقوق وغيرهم .وتحكم هؤلاء الأمراء فى مصير البلاد وفى مصالحها، كما أصبح السلاطين ألعوبة فى أيديهم، يعينون من شاءوا ويعزلون من شاءوا .ومع ذلك لم يجرؤ أحد منهم على التقدم لتولى العرش، ووضع حد لحكم أسرة بنى قلاوون . ويمكن تفسير هذه الظاهرة بأن أمراء المماليك قنعوا بما فى أيديهم من من سلطان فعلى، وتركوا للسلاطين الصغار من بيت قلاوون المنصب والاسم، أو أنهم عجزوا بالفعل عن اقناع الرأى العام المعاصر بالتخلى عن بيت قلاوون بعد أن بذل ما بذل من الجهود، وأدى ما أدى من خدمات لمصر وللسلطنة المملوكية، وخاصة فى

عهد قلاوون وابنه الناصر محمد.

ثالثا : اشتد الصراع فى هذا العصر بين كبار الأمراء، وانقسمت طوائف المماليك فيما بينهم مما ترتب عليه أن غرقت البلاد فى بحر من الفوضى والاضطراب، وساءت أحوالها الاقتصادية، وزاد الطين بلة أن تعرضت البلاد لخطرين خطيرين وقعا فى تلك الحقبة وهما انتشار الوباء الأسود، وغزو القبارصة لمدينة الإسكندرية.

رابعا : اشتد كذلك الأنحراف الاخلاقى فى هذا العصر، وانغمس السلاطين فى اللهو والترف، وراحوا يقضون أوقاتهم فى شرب الخمر حتى قيل أن أحدهم وهو"صلاح الدين محمد "كان لا يفيق منها ساعة ".

أهم أحداث عصر أولاد الناصر محمد وأحفاده :-

الوباء الاسود " الفناء الكبير" (٧٤٨هـ/١٣٤٧م) : تجدر الإشارة إلى أن هذا الوباء، شهدته مصر فى عصر الناصر حسن، وهو الابن السابع والأخير من أبناء الناصر محمد بن قلاوون الذين تولوا عرش السلطنة، وتولى الناصر حسن العرش مرتين، الأولى عام ٧٤٨/١٣٤٧م، وكان عمره ثلاث عشرة سنة، واستغرقت ثلاث سنوات، ونظرا لصغر سنه فقد كان العوبة فى أيدى الأمراء، الذين حددوا له مصروفا يوميا لايتعداه، ولم يكن له خلالها من أمور السلطنة شيء. وعندما وقع خلاف بين الأمراء قبضوا عليه وحبسوه، وعينوا أخاه "صلاح الدين" (١٣٥٠-١٣٥٤م) بدلا منه، ولم تكن حاله فى السلطنة خيرا من حال أخوته، لغلبة الامراء شيخون وطاز وصرغتمش على الامر الذين ما لبثوا أن قبضوا عليه، وأعادوا الناصر حسن ثانية إلى العرش.

واستغرقت سلطنة الناصر حسن الثانية ست سنوات، بدأت من عام ٧٥٥-٧٦١هـ/١٣٥٤-١٣٦٠م، وسيطر عليه خلالها كل من الأمير شيخو والأمير صرغتمش، واهتم الناصر حسن خلالها بالعمارة والبناء، فأنشأ مسجده الذى لازال باقيا حتى اليوم، وهو المسجد المعروف باسمه، وكذلك انشأ المبانى فى القاهرة

فى المدن بتطهير مدنهم مما بها من قاذورات، ومنع المرضى والمصابين من دخولها، إلى جانب الاعتدال فى تناول الطعام، وتجنب الإفراط فيه لاعتقادهم بأن ذلك يجنب الإصابة بالمرض. كذلك قام بعض الأفراد بحبس أنفسهم فى منازلهم، ليكونوا فى شبه عزلة تامة عمن حولهم وهناك فريق ثالث لم يسرف فى الطعام، ولم يحبس نفسه بل عاش على قدر الكفاية وخرجوا ومعهم الزهور والروائح العطرية فى أيديهم، ومنهم من خرج إلى الكنائس للصلاة والتضرع إلى الله طالبين العون.

كذلك قامت بعض مدن غرب اوروبا بفرض الحجر الصحى، وفرضت نظاما للوقاية، وخصصت بعض السفن لنقل جثث الموتى إلى بعض الجزر النائية لدفنها فى أعماق بعيدة عن سطح الأرض، كذلك أشعل أهلها النيران فى المواقد لتطهير الهواء، واستخدموا الخل وماء الورد باستمرار مع وضع كثير من النباتات العطرية فى منازلهم لحمايتهم من هذا الوباء.

اما فى الشرق فقد خرج الناس إلى المساجد للتضرع إلى الله والدعاء، وسؤاله سبحانه وتعالى أن يرفع عنهم الوباء، ومنهم من فر من الأماكن الموبؤة إلى أماكن أخرى أملا فى النجاة، فكانوا يفرون من المدن إلى القرى وبالعكس.

وقد ترك هذا الوباء آثاره فى جميع نواحى الحياة، سواء أن كانت اقتصادية أم اجتماعية أم عسكرية أم دينية سواء فى الشرق أم فى الغرب.

الآثار الاقتصادية :-

ترتب على الموت الأسود آثار اقتصادية سواء فى الشرق ام فى الغرب. ففى الشرق تناقص عدد الفلاحين مما ساعد على استمرار فترة الاضطراب الاقتصادى لسنوات عديدة بعد الوباء.

- هجرة الفلاحين من الريف إلى كثير من المدن هربا من سوء الأحوال فى القرى، وقد وفرت لهم المدن حياة أفضل ورعاية صحية أحسن وقد ترتب على هجرة الفلاحين أن الأرض لم تجد من يزرعها، مما أدى إلى ارتفاع اسعار

السلع، وتعطل الأسواق.

- كذلك أدى الوباء إلى نقص الأيدي العاملة، وارتفاع أسعارها، وإغلاق كثير من دور الصناعات، واتجه الكثير من أصحاب الصناعات والحرف إلى العمل حفارى قبور أو حمالين أو مغسلى موتى أو مقرئى القرآن، لما نالوه من أموال كثيرة من وراء تلك الاعمال.
- قل عدد السكان، ورخصت الايجارات لعدم وجود من يسكن الدور والبيوت.
- توقفت أحوال دولة المماليك، واضطرت هذه الدولة لإلغاء الاسمطة التى كانت تقام فى شهر رمضان، وفى العيدين، كما لجأت إلى تخفيض المرتبات.

وفى الغرب فتك الوباء كذلك بغالبية الفلاحين، لذلك جفت الكثير من الحدائق والبساتين والحقول لأنها لم تجد من يرعاها.

- وأعلنت الكثير من البيوت المالية فى أوربا إفلاسها نتيجة للخسائر الفادحة التى نزلت بها.
- عم الغرب الاوربى شلل اقتصادى، وحاولت بعض الحكومات تعويض النقص فى خزائنها، ففرضت الكثير من الضرائب.
- تأثرت روما وصقلية والمدن الإيطالية التجارية اقتصاديا لعدم وفود الإعداد الكبيرة من الحجاج المسيحيين إليها مما اضطر البابا إلى أن يعلن عام ١٣٥٠م عاما مقدسا، الذى جرت العادة بأن يحدث مرة كل أول قرن، ويمنح فيه البابا الغفران.
- نقصت الأيدى العاملة، واضطرت كثير من النقابات أى نقابات أصحاب الحرف خاصة فى إنجلترا أن تختصر مدة تدريب العضو ليصبح حرفيا، مما أدى إلى وجود حرفيين لا يتقنون حرفتهم، وبمرور الوقت انخفضت مهارتهم.
- حدث تطور فى نظام الاقطاع، ونتج ذلك عن قلة أعداد الاقنان، ونقص الأيدي العاملة فى الزراعة، مما أجبر الكثير من السادة النبلاء على رفع أجور الكثير من هؤلاء الاقنان وتحويلهم إلى فلاحين أحرار بالتدريج.

التغيرات الاجتماعية :-

ترك الوباء الأسود فى الشرق آثارا أو تغييرات اجتماعية فى المجتمع فى عصر سلاطين المماليك، فقد صدرت التعليمات عقب ذلك الوباء بالا تلبس النساء الثياب الثمينة والمستوردة من البندقية أو من العراق أو من غيرهما، كذلك حرم ارتداء الاخفاف غالية الثمن، وقد تخلت غالبية نساء مصر عما كن يلبسنه من ملابس مستوردة من بلاد الفرنج كالجوخ وغيره. وبطلت الأفراح والأعراس بين الناس، ولم يسمع خلال فترة الوباء صوت غناء.

أما فى الغرب : فقد تغيرت عادة دفن الموتى، ولجأ الناس إلى حفر حفر كبيرة، يلقون فيها جثث الموتى، ويغطونها بالتراب دون إحضار أحد القساوسة أو إقامة التراتيل الخاصة. وهجر الناس مرضاهم فكان المرء يفر من زوجته، والزوجة تفر من زوجها، والأب يفر من ابنه، والأبناء يفرون من الأباء والأمهات. وتفشت الكثير من الأمراض الاجتماعية، وساءت العلاقات الأسرية.

- وزادت كراهية اليهود لدى أبناء الغرب الاوربى وذلك بسبب الشائعات التى سرت من أنهم قد سمموا مياه العيون والآبار، لذلك تم اضطهادهم فى كثير من مدن الغرب الاوربى، وتم الاستيلاء على أموالهم وثرواتهم رغم إعلان البابا "كلمنت السادس" براءة اليهود من هذه التهمة.

- تناقض سلوكيات الأشخاص، فبينما أطلق بعضهم العنان لشهواته وملذاته، واستمتع بما لذ وطاب،كرس البعض الآخر أنفسهم للخلاص من ذنوبهم وآثامهم ونتيجة لهذا التناقض ظهرت من جديد جماعة "السياطين " ممن يضربون أنفسهم بالسياط تقربا إلى الله. ولم تكن هذه الظاهرة جديدة على المجتمع الأوربي فى العصور الوسطى، بل يرجع ظهورها إلى القرن العاشر الميلادى مع اقتراب العصر الالفى، وهو الذى يعتقدون أن فيه سيملك السيد المسيح الأرض مؤذنا بعصر جديد، وكان هؤلاء يقومون بجلد أنفسهم بالسياط، كما يضربون أنفسهم عند الاكتاف والاذرع بقطع من الحديد وبشدة وحماسة

حتى ينزف منها الدم.

الآثار الحربية :-

فى الشرق : كان الوباء من العوامل الرئيسية التى ساعدت على إضعاف الجيش المملوكى، وذلك لنقصان أعداد الرقيق فى بلاد القوقاز وجنوب روسيا لتكرار حدوث الطواعين بها كما أدى الوباء إلى موت المماليك الصغار فى الطباق، الذين كانوا يدرسون اللغة العربية والعلوم الدينية والفنون العسكرية. وتصرف الأمراء فى اقطاعاتهم عن طريق البيع والتنازل والمقايضة، مما ادى إلى دخول كثير من الكتاب وأرباب الوظائف الدينية وأرباب الصنائع والحرف ضمن أجناد الجيش وقد اضعف ذلك الجيش.

أما فى الغرب : فقد تعذر استئناف الحرب بين انجلترا وفرنسا نظرا لنقص الأموال والأرواح وهى حرب المائة عام (١٣٣٧-١٣٥٤م)تلك الحرب التى نشبت منذ عام ١٠٦٦م عندما امتلك أمراء نورمنديا انجلترا، وأصبحت ممتلكاتهم موزعة فى كل من فرنسا وإنجلترا. وترتب على هذا الوباء ايضا القضاء على الرغبة فى إرسال حملة صليبية من الغرب الاوربى ضد الأتراك العثمانيين فى عام ١٣٥١م.

ومن الأشعار التى قيلت فى آثار هذا الوباء ما نسوقه من هذه الأبيات :-

هـذا يوصى بأولاده	وهذا يودع أخوانـه
وهذا يوصى بإشغاله	وهذا يجهز أكفانـه
وهذا يصالح أعدائه	وهذا يلاطف جيرانه

****

ثانيا: حملة بطرس لوزجنان (لوزينــــان) علــى الاسكندرية ٧٦٧هـــ/ ١٣٦٥م :-

وهى تمثل الحدث الثانى الهام فى عهد أولاد الناصر محمد وأحفاده. وتعتبر هذه الحملة من الحلقات الأخيرة فى سلسلة الحروب الصليبية، تلك الحروب التى لم تنته بطرد البقايا الصليبية من بلاد الشام على يد الأشرف خليل فى عــام ١٢٩٢م، بل كانت لها ذيول فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين . فقــد نــادت البابوية بضرورة العمل على أضعاف دولة المماليك لأنها السبب فى ضيــاع بــلاد الشام من أيديهم وذلك عن طريقين :-

الأول : فرض حصار اقتصادى شديد على شواطىء مصر والشــام، لمنع التجار الاوربيين من الوصول بتجاراتهم إلى موانىء مصر والشام والمتــاجرة مــع المماليك، ويترتب على ذلك أن تصاب تجارة المماليك بالكساد والبوار. وتفقد بذلــك مصدر ثروتها ممثلا فى احتكارها للتجارة فى الشرق والغرب. ولتنفيذ هذا المخطــط أصدرت البابوية العديد من القرارات والمراسيد التى تحرم على التجار الاوربييــن الذهاب بسفنهم إلى شواطىء دولة المماليك والمتاجرة مع المسلمين، غير أن كثــيرا من التجار الاوربيين والتجار البنادقة بصفة خاصة، ضربوا عرض الحائط بمراسيم البابوية، ورفضوا تنفيذها والعمل بها، خوفا على مصالحهم التجاريــة مــع مصــر والشام، وحفاظا على العلاقات الاقتصادية التى تربط بينهم . عندئذ لجأت البابويــة إلى وسيلة أخرى.

الثانى: إنشاء قوة بوليسية بحرية فى الحوض الشــرقى للبحــر المتوســط، مهمتها تصيد التجار الأوربيين الذين استمروا يتاجرون مع دولــة المــماليك غــير مبالين بالبابوية ومراسيمها، ووقع الاختيار على جزيرة قبرس لتكون مقــرا لــهذه القوة، ولتكون كذلك مركزا وقاعدة لمراقبة الشواطىء الإسلامية فى مصر والشــام، ولضرب المسلمين وشن الاغارات على موانيهم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن جزيرة قبرس دخلت مجال الحروب الصليبيـــة

منذ القرن الثانى عشر، وبالتحديد منذ أن استولى عليها ريتشارد قلب الاسد، عندمــا قدم بحملته إلى بلاد الشام، ومنذ ذلك الحين حكمها آل لوزجنان من الصليبيين، وقــد قام حكام الجزيرة بدورهم خير قيام إذ قدموا المشروعات الصليبية التى تهدف إلــى خنق دولة المماليك، كما اتخذوا جزيرتهم مركزا لتهديد تجارة المماليك عن طريــق إيواء القراصنة الذين قاموا بمهاجمة الموانئ المصرية والشامية . وقام حكام جزيــرة قبرس أيضا بفرض رقابة على السفن الاوربية لمنعها من الوصول إلــى موانــىء مصر والشام، وشرعوا فى مهاجمة المسلمين بأنفسهم فى مصــــر والشــام وآسـيا الصغرى، وفتحوا بذلك صفحة جديدة فى تاريخ الحروب الصليبيـــــة، خاصــة وأن البقايا الصليبية التى طردت من بلاد الشام، قد اتخذت من جزيــرة قــبرس مقامــا ومستقرا لها.

ومن أهم الضربات التى وجهها آل لوزجنان فى قبرس إلى دولة المماليك فــى النصف الثانى من القرن الرابع عشر تلك الحملة التى خرج بطرس الاول لوزجنــان على رأسها لمهاجمة مدينة الإسكندرية ٧٦٧هـــ/ ١٣٦٥م. وكان بطرس هــذا قــد اشتهر بقوة شخصيته وحماسته الدينية، واراد أن يجعل من نفسه بطــلا للمسـيحية بتوجيه طعنة نجلاء للمسلمين، ومن أجل ذلك قام باستعدادات ضخمة قبل أن يشـرع فى توجيه ضربته للمسلمين،ومهاجمة مدينة الإسكندرية، ومن هذه الاستعدادات :-

- قام بطرس لوزجنان برحلة طويلة فى غرب اوربا، اســتغرقت ثــلاث سـنوات (١٣٦٢-١٣٦٥م) من أجل الحصول على المساعدات المادية والبشرية والحربية من بلدان غرب أوربا ومن البابوية.

- قام بطرس بعد ذلك بجمع قواته فى جزيرة رودس تمهيدا لاختيار أصلح نقطــة فى دولة المماليك يمكن أن يوجه من خلالها ضربته، وفى النهاية استقر الــرأى على اختيار الإسكندرية هدفا للهجوم القبرصى. وقد وقع الاختيار علــى مدينـة الاسكندرية بصفة خاصة لأسباب منها :-

- الاستفادة من موقع المدينة الحربى والتجارى على حد سواء.
- استغلال حالة الفوضى والاضطراب الذى عم البلاد، فقد كان على رأس البــلاد

وعلى عرش مصر سلطان صغير وهو الاشرف شعبان،وكان دون الحادية عشر، وكان المتحكم فى أمور البلاد اتابكه "يلبغا الخاصكى".

-افتقار مدينة الإسكندرية إلى وسائل الدفاع والتحصين.

وقد وصلت أخبار استعدادات هذه الحملة إلى مصر عن طريق التجار قبل أن تصل الحملة ذاتها بوقت طويل، ولكن "لم يكن من الدولة اهتمام" على حد تعبير المصادر، وليس أدل على ذلك من أن اتابك العساكر يلبغا الخاصكى -المتحكم فى أمور البلاد وشئونها- عندما سمع بما ينوى عليه ملك قبرس من شن إغارة على مدينة الاسكندرية قال : " أن القبرسى أقل وأذل من أن يأتى إلى الإسكندرية ".

وسرعان ما وصلت السفن القبرسية إلى الإسكندرية بقيادة بطرس لوزجنان، وهاجمت مدينة الإسكندرية صباح يوم الجمعة العاشر من أكتوبر عام ١٣٦٥م، منتهزة فرصة إنشغال المسلمين فى صلاة الجمعة، وغياب نائب الإسكندرية الأمير"خليل صلاح الدين" فى الاراضى الحجازية لأداء فريضة الحج، هذا إلى جانب فرار العربان الذين جىء بهم من البحيرة للدفاع عن المدينة.

ونجح القبارصة فى الاستيلاء على مدينة الاسكندرية، وطافوا بشوارعها، يخربون المساجد والزوايا، وينهبون الدور والحوانيت، ويعتدون على النساء والفتيات، ويقتلون الأطفال والشيوخ، واستمر السلب والنهب طيلة ثلاثة أيام، وبعد أن أمضى بطرس فى المدينة ستة أيام، عزم خلالها على أن يتخذ المدينة قاعدة له، ونقطة ارتكاز،الا أن اتباعه حذروه من ذلك، ولذا اضطر إلى الجلاء عن المدينة بعد هذه الأيام الستة، خاصة بعد أن علم بقرب وصول جيش المماليك من القاهرة لانقاذ المدينة،وقد حمل معه من الأسرى الألاف هذا إلى جانب المنهوبات والبضائع التى تم أخذها من المدينة، والتى ناء البحر بحملها.

وبعد أن جلى الصليبيون عن المدينة، وصل إليها يلبغا الخاصكى، فشهد ما حل بالمدينة من الخراب والدمار، ورأى جثث القتلى هنا وهناك، لذلك أمر اولا بدفن الجثث، وترميم وإصلاح ما تخرب من المدينة، كما صب جام غضبه على المسيحيين انتقاما لما أحدثه القبارسة بالاسكندرية من تخريب وتدمير،وفرض عليهم

مبالغ ضخمة ليستخدمها فى إطلاق سراح الاسرى.

وأصدر يلبغا كذلك أمرا بتعقب الفرنجة الموجودين بمصر والشام، وإلقاء القبض عليهم، ثم وجه عنايته بعد ذلك إلى إنشاء أسطول حربى لغزو جزيرة قبرس، ومن أجل ذلك أرسل فى طلب العمال والبحارة، وكتب إلى نواب الشام بأن يرسلوا عمالا لقطع الأخشاب من بلادهم، وإرسالها إلى مصر استعدادا لبناء الأسطول، ومع ذلك فقد عجزت مصر خلال هذا الدور عن الانتقام لما حل بالإسكندرية، غير أن الظروف مكنتها بعد ذلك من الانتقام فى عصر دولة المماليك الجراكسة.

دولة المماليك الجراكسة (البرجية)

نشأة فرقة المماليك الجراكسة :

يعد السلطان المنصور قلاوون صاحب فكرة تكوين هذه الفرقة من المماليك، فقد سبق ان ذكرنا انه أراد يكون فرقة من المماليك، يعتمد عليها ضد منافسيه من كبار الأمراء وترتبط به دون غيره، وتكون فى نفس الوقت سنداً لأبنائه من بعده فى الاحتفاظ بالعرش .كذلك رأى المنصور قلاوون أن تختلف فرقته الجديدة فى أصولها عن سائر طوائف المماليك الأخرى اى لا تكون من الأتراك او التركمان، لذا اختار عنصر الجركس، الذين ينتمون إلى بلاد الكرج (جورجيا) التى تقع بين شمالى بحر قزوين وشرقى البحر الاسود .

وقد وقع اختيار قلاوون على عنصر الجركس بالذات لتوافرهم فى أسواق الرقيق فى أواخر القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى بسبب تعرض بلادهم لغزوات المغول، هذا إلى جانب رخص ثمنهم، حتى أن متوسط ثمن المملوك الجركسى بلغ ١١٥ دينار، فى حين أن متوسط ثمن المملوك التركى ١٥٠ أو ١٥٣ دينار. هذا إلى جانب ما اشتهروا به من شجاعة وقوة جعلت قلاوون يتوسم فيهم الأداة الصالحة لتحقيق أغراضه، هذا فضلا عما امتازوا به من جمال الصورة، وقوة البدن. ومهما كانت الدوافع التى دفعت المنصور قلاوون إلى اختيار عنصر الجركس بصفة خاصة، فأنه منذ عام ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م بدأ المنصور قلاوون يكثر من شراء المماليك الجركس حتى بلغ عددهم فى حياته ثلاثة آلاف مملوك، وذلك ليكونوا على حد تعبيره "الحصون المانعة لى ولاولادى وللمسلمين" ؛ وعنى بتربيتهم، وأسكنهم بجواره فى أبراج القلعة، ولذلك سموا بالمماليك "البرجية" .

واعتنى قلاوون بمماليكه عناية فائقة، وحرص على أن يفصل بينهم وبين طوائف المماليك الأخرى من الأتراك، وأشرف بنفسه على تعليمهم أصول الدين، وعلى تدريبهم على استخدام الرماح، ورمى النشاب، كما حباهم بعطفه، ولم يضن عليهم بالمال الوفير والطعام الشهى ولا الملبس الانيق الجديد، كما اختصهم بالترقية إلى بعض الوظائف الكبرى فى البلاط السلطانى، واجزل لهم العطاء، ورفع من رواتبهم وجوامكهم (الجوامك اى الرواتب) حتى ابن تغرى بردى يقول : "لو لم يكن من محاسنه إلا تربية مماليكه، وكف شرهم عن الناس لكفاه ذلك عند الله تعالى".

وإذ كان السلطان المنصور قلاوون قد اعلن أنه كون فرقة من المماليك البرجية لتكون حصنا منيعا له ولاولاده، فأنه كان من الطبيعى أن يهتم اولاد السلطان المنصور قلاوون من بعده بهذه الطائفة التى كونها أبوهم لتكون حصنا لهم. وبالفعل ما أن خلف الاشرف خليل أباه المنصور قلاوون، حتى سار على نهجه فى الاهتمام بالمماليك الجراكسة، فقد اشترى ابان حكمه ما يقرب من الفين منهم، ولهذا كثر عدد المماليك الجراكسة كما اصبحوا على درجة من الكفاءة وحسن التدريب .

أما عن دور المماليك الجراكسة على مسرح الحوادث فمن المعروف ان قلاوون فرض عليهم فى البداية حياة العزلة، وحال بينهم وبين الاتصال بغيرهم من المماليك الترك حتى لا يتأثروا بأوضاعهم وما تطرق إليهم من الفساد، كما لم يسمح لهم بمغادرة أبراج القلعة والنزول إلى القاهرة، وقد نجح فى ذلك فى بداية الأمر لان إعدادهم كانت محدودة، أما عن خلفاء قلاوون فلم يستطيعوا أن يفرضوا تلك القيود على الجراكسة وخاصة بعد أن تزايدت أعدادهم، ولذلك نجد الأشرف خليل يسمح لهم ولأول مرة بمغادرة أبراجهم وطباقهم بالقلعة والنزول إلى القاهرة، ولكن بشرط ان يكون ذلك أثناء النهار على ان يعودوا إلى القلعة ليلاً ليبيتوا فيها . وقد ترتب على نزول المماليك الجراكسة من أبراج القلعة نتيجتين هامتين :-

الأولى :- بدأوا فى الإنغماس فى الحياة العامة ومشاكلها، بعد أن خرجوا من عزلتهم، واختلطوا بغيرهم من طوائف المماليك، فضلا عن عامة الناس .

الثانية :- أنهم أثاروا روح الحقد والبغضاء فى نفوس طوائف المماليك الأتراك بسبب ما تمتعوا به من نعمة وحظوة لدى المنصور قلاوون ثم ابنه الأشرف خليل من بعده، وتفرقتهم فى المعاملة بين هؤلاء وأولئك . وقد ترتب على ذلك حدوث نوع من التعصب بين المماليك الجراكسة من ناحية والمماليك الأتراك

من ناحية أخرى .

وترتب على هاتين النتيجتين دخـول المـماليك البرجيـة دائـرة الصـراع والمنازعات التى لا تهدأ لها ثائرة فى هذا العصر. وأول ماقام به المماليك البرجيـة فى هذا الشأن، كان خروجهم على رأس كتبغا عندما علموا بمقتـل ابـن أسـتاذهم الأشرف خليل، ولم تهدأ ثائرهم الا بعد أن قتلوا رأس المؤامرة وهو الأمير بيـدرا، وتم إعلان الناصر محمد بن قلاوون سلطانا٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م.

وكما سبق ان ذكرنا، لم يستطع الناصر محمد خلال سلطنته الأولـى(٦٩٣-٦٩٤هـ/ ١٢٩٣-١٢٩٤م) أن يصمد فى وجه كبار الأمراء، إذا كان صبيـا لـم يتجاوز التاسعة من عمره، وحدث نزاع بين "زين الدين كتبغا" نائب السلطنة وبيـن "علم الدين سنجر الشجاعى "الوزير، وكان هدف هذا النزاع الحقيقى هو رغبة كـل منهما الاستئثار بالسلطة، وعزل الناصر محمد . وفى هذا الصراع استعان كتبغـا بالمماليك الاتراك، واستعان سنجر الشجاعى بالمماليك الجراكسة أو البرجية .وكـان أن حاصر كتبغا القلعة، وقطع عنها الماء، ونزل البرجية من القلعة، وانزلوا الهزيمة بكتبغا وأعوانه من التراك الذين فروا أمامهم على أن البرجية ما لبث أن اتضحـت لهم نوايا سنجر الشجاعى، وأنه لا يعمل من أجل ابن أستاذهم، وإنما يعمـل مـن أجل نفسه، لذلك مالوا إلى جانب كتبغا، وانقضوا على سنجر وقتلوه، ورجحت كفة كتبغا .

وعندما ارتقى كتبغا العرش عام ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م أحس بخطـر البرجيـة الذين انقضوا على الوزير سنجر وقتلوه، بعد أن ادركوا أنه لا يعمـل مـن أجـل مصلحة ابن أستاذهم الناصر محمد، ولذلك اتخذ كتبغا بعـض الإجـراءات ضـد الجراكسة ومنها : العمل على تشتيت شملهم وتفريق صفوفهم، وإنزالهم من أبـراج القلعة وتوزيعهم فى نواحى متباعدة من القاهرة، أما من تركهم فى القلعة فقد جعلهـم تحت رقابة مشددة .

وقد أثارت هذه الإجراءات البرجية ضد كتبغا والمماليك من الأتراك، وبـدأ الصراع يشتد بين البرجية وبين المماليك من الاتراك خاصة فى عهد كل من كتبغـا وخليفته حسام الدين لاجين (٦٩٦-٦٩٨هـ/١٢٩٦-١٢٩٨م)، لأنهما اعتمدا علـى المماليك الأتراك فى مواجهة تزايد نفوذ البرجية، لذا استمر البرجيـة فـى مقاومـة الترك فى شخص كل من كتبغا ولاجين. وانتهى هذا الصراع بمقتل لاجين، واعـادة البرجية ابن استاذهم الناصر محمد إلى السلطة للمرة الثانية (٦٩٨هـ/١٢٩٨م).

والحقيقة ان هناك عدة عوامل ساعدت على ازدياد نفوذ البرجية خلال سـلطنة الناصر محمد الثانية من بينها :-

أولاً : الدور النشط الذى قاموا به فى السياسة الداخلية، فقد ظهروا أمام الناس فـى صورة حماة عرش بيت قلاوون، وخاصة الناصر محمد الذى أحبـه النـاس وتعلقوا به .

ثانيا : ما أظهره البرجية من شجاعة وكفاءة فى قتال المغول، ودفع خطرهم عـن بلاد الشام ، وخاصة زعيمهم بيبرس الجاشنكير .

ثالثاً : أنهم أصبحوا أمراء كبار، وتولوا مناصب هامة فى البلاد، فكان منـهم مـن تولى الوزارة مثل عز الدين ايبك المنصورى، ومنهم مـن كـان علـى رأس الجيش وتولى قيادته مثل بيبرس الجاشنكير، اتابك العساكر فى سلطنة النـاصر محمد الثانية. وذلك بعد أن كانوا من المماليك الاجلاب صغارا لا حول لهم ولا قوة .

وعندما أحس البرجية أنهم هم حماة عرش بيت قلاوون، أخـذوا يعملـون لحسابهم الخاص، ويفكرون فى مصالحهم قبل مصالح السلطان الناصر محمد بـن قلاوون، بعد أن كانوا فى الدور الأول من حياتهم يحسون أن واجبـهم الاول هـو حماية مصالح بيت قلاوون، وما لبثت نظرتهم المثالية هذه أن تبدلت، خاصة بعد أن غدت السلطنة ضعيفة فى يد سلطان صغير هو الناصر محمد بن قلاوون، وطـمع فيها الكثير من الأمراء الأتراك، فلماذا لا يشارك البرجية الاتراك فـى مطامعـهم هذه؟ خاصة أن كثير منهم أصبحوا أمراء، واشاد الجميع ببسالتهم وشجاعتهم .

لذلك ضيق بيبرس الجاشنكير وكان زعيم البرجية وسلار زعيم الترك الخناق على الناصر محمد فى سلطنته الثانية، إذ كان لا يزال صبياً صغيراً، واقتسما الحكم والسلطة وأصبح السلطان الناصر محمد "كالمحجور عليه معهما لا يتصرف فى أمور الملك إلا باختيارهما"، حتى اضطر إلى التنازل عن عرش السلطنة والاقامة فى الكرك، وانتهى الامر بترشيح بيبرس الجاشنكير - زعيم البرجية- لعرش السلطنة٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م .وبذلك أصبح بيبرس أول من وصل إلى العرش من المماليك البرجية وبذلك قويت شوكة البرجية بديار مصر.غير أنه لم يمض عام على سلطنة المظفر بيبرس الجاشنكير حتى نجح الناصر محمد فى استرداد عرشه للمرة الثالثة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م . وفى هذه المرة كان الناصر قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره، واستطاع الوقوف على قدميه فى وجه كبار الأمراء الترك والجراكسة، فالقى القبض على بيبرس الجاشنكير عند فراره وأمر بقتله . كما اتبع سياسة صارمة تجاه الجراكسة، وذلك بتقليم أظافرهم، وعدم الإكثار منهم بالشراء، واسترد ما كانت البرجية قد اشترته من أراضى الجيزة وغيرها، كما قام بإغراق من خشى خطره من البرجية فى النيل .

وإذا كان الناصر محمد قد استطاع خلال سلطنته الثالثة (٧٠٩-٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤٠م) أن يقبض بيد من حديد على شئون الحكم، كما استطاع تقليم أظافر الجراكسة والتصدى لهم، فأن خلفاء الناصر محمد من أولاد وأحفاد لم تكن لهم تلك القوة، بل كانوا سلاطين صغار ضعاف لا حول لهم ولا طول، وبالتالى أصبحوا العوبة فى أيدى الأمراء، ومن أشهرهم الأمير قوصون، وشيخون وصرغتمش ويبلغا العمرى وغيرهم، وتحكم هؤلاء الامراء فى مصائر البلاد وفى مصالحها، وما لبث أن اشتد الصراع بينهم حول العرش. وهنا أتيحت الفرصة للبرجية من جديد، فبدأوا يظهرون على مسرح الحوادث، وفى هذه المرة ازدادوا قوة اذ تكتلوا وتعصبوا لجنسهم الجركسى، منتهزين فرصة ضعف دولة المماليك البحرية وما تعرضت له من القحط والوباء حتى تمنى الناس زوالها.

وفى عصر أحفاد الناصر محمد برز اسم أحد الأمراء البرجية، وهو الامير

"برقوق"الذى استطاع أن يصل بفضل طموحه وقوته إلى منصب اتابك العساكر عام ٧٧٩هـ/١٣٧٨م، وبذلك أصبح على جانب كبير من القوة فى عهد السلطان "علاء الدين على" (١٣٧٦-١٣٨١م الذى لم يتجاوز عمره السادسة . وظل السلطان علاء الدين على يلى عرش السلطنة حتى بلغ الثانية عشر من عمره ثم توفى، وكان فى استطاعة برقوق أن يلى عندئذ عرش السلطنة بعد وفاة السلطان مباشرة، ولكن برقوق كان يدرك أن الأمور لم يتم نضجها بعد، اذ كان بين الأمراء من هم معارضون له، ولذلك تظاهر برقوق بالزهد فى منصب السلطنة، واحضر الخليفة والقضاة وكبار الأمراء إلى القلعة، وأعلن أمامهم أن المصلحة تتطلب ابقاء دست السلطنة فى بيت قلاوون، ولذلك تم تعيين "الصالح أمير حاج "شقيق المنصور علاء الدين على، فى منصب السلطنة، وكان فى الحادية عشر من عمره .

ونظرا لأن السلطان الجديد الصالح أمير حاج، كان صغيرا لذلك جاء كتاب ولايته السلطنة مقرونا بشرط اشتراك الامير برقوق معه فى تدبير أمور الدولة والوصاية عليه، لذلك استغل برقوق منصبه الجديد، وبدأ يتخذ خطوات عملية ليمهد الطريق للوصول إلى عرش السلطنة، من ذلك أنه شغل الوظائف الكبرى باتباعه ومماليكه، وأخذ يتقرب من عامة الناس عن طريق الغاء بعض المكوس والضرائب. والعمل على تحسين العملة مما أدى إلى انتعاش الحالة الاقتصادية .وعلى الصعيد الخارجى تمكن برقوق من صد هجوم التركمان على حلب فى عام٧٨٣هـ/ ١٣٨١م، وبذلك ظهر فى صورة القادر على الدفاع عن الدولة وحمايتها وتوفير الأمن لأهلها.

وفى تلك الأثناء كان المماليك الترك يراقبون ازدياد نفوذ برقوق بعين القلق، وذلك لأنهم كانوا على يقين من أنه لن يبقى لهم ظل من النفوذ والسلطان إذ نجح برقوق فى انتزاع السلطنة، ولذلك دبر الترك مؤامرة لاغتيال برقوق، ولكن تمكن برقوق بيقظته من أن يكشف خيوط هذه المؤامرة قبل أن تتم، وقام بالقبض على زعمائها ونفيهم وسجنهم . وبذلك أصبح برقوق صاحب الكلمة العليا فى الحكم، و"لم يبق له معاند "على حد تعبير ابن اياس .

ولم يبق أمام برقوق سوى السلطان الجالس على العرش وهو الصالح أمير حاج، فعقد اجتماعا بالقلعة حضره الأمراء والأعيان والقضاة والخليفة، واجمع الحاضرون على ضرورة خلع السلطان الصغير بعد ان حكم سنة ونصف وإعلان برقوق سلطاناً، ولقب بلقب الظاهر برقوق، وذلك في عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م. وباعتلاء برقوق عرش السلطنة ينتهي ملك بيت قلاوون كما تنتهي دولة المماليك البحرية ليبدأ عصر دولة المماليك الجراكسة أو البرجية الذى استمر حتى الفتح العثمانى لمصر فى عام٩٢٣هـ/ ١٥١٧م .

سلطنة الظاهر برقوق (٧٨٤-٨٠١هـ/ ١٣٨٢ – ١٣٩٩م)

يعد الظاهر برقوق أول سلاطين دولة المماليك الجراكسة، وكان من المتوقع ان يبدأ عهده باضطهاد المماليك الأتراك بعد أن دبروا مؤامرة لاغتياله، ولكنه على العكس من ذلك حاول استرضائهم، وليس أدل على ذلك من أنه عين نائب سلطنته منهم، وهو الأمير (سودون الفخرى) . ولكن سياسة برقوق تجاه المماليك الاتراك لم تستمر طويلاً ، فبعد أن استتبت له الأمور بدأ يخص الجراكسة بالمناصب الكبرى والاقطاعات على حساب المماليك الاتراك، مما نتج عنه نشوب العديد من الثورات فى عهده . ولم تكن هذه هى المشكلة الوحيدة التى كان على برقوق أن يواجهها بل هناك مشكلات وعقبات أخرى، ومن بينها :-

أولا : طمع الخليفة العباسى المتوكل فى عرش السلطنة، وقد آزره فى ذلك المماليك الأتراك، ودبروا مؤامرة لاغتيال برقوق وإحلال الخليفة العباسى مكانه على العرش؛ غير ان برقوق تمكن من اكتشاف هذه المؤامرة، وقام بعزل الخليفة المتوكل واحلال آخر محله وهو الخليفة الواثق بالله .

ثانياً : ثورة منطاش ويلبغا، فقد أتبع برقوق سياسة تتصف بالعنف والشدة تجاه المماليك الاتراك مما دفعهم إلى التحالف سوياً والقيام بثورة كبرى، تزعمها (منطاش) زعيم المماليك الاشرافية ونائب ملطية (يلبغا الناصرى) زعيم اليلبغاوية ونائب حلب . وقد نجح الثوار فى الاستيلاء على حماه، ودخل فى

طاعتهم معظم نواب الشام فيما عدا دمشق والكرك. وعندئذ استشار برقوق ذوى الرأى من أمرائه، فأشاروا عليه بضرورة إرسال حملة لحرب الثائرين، وأرسل برقوق حملة للشام بالفعل للقضاء على هذه الثورة، ولكنها ما كادت تصل إلى دمشق حتى عاثت بها فساداً، فأثار ذلك اهلها ضد السلطان وجيشه . وتمكن يلبغا نائب حلب من التصدى لجيش السلطان، وحقق عليه انتصاراً كبيراً وذلك نتيجة للخيانة، فقد ترك عدد كبير من رجال جيشه جانب السلطان، وانضموا إلى قوات يلبغا ومنطاش، وعندئذ نجح يلبغا فى دخول دمشق واحتلال قلعتها (١٣٨٩م) .

ونتيجة لذلك راح برقوق يتخبط فى تصرفاته محاولاً إرضاء الناس بإلغاء المكوس، وإعادة الخليفة المتوكل إلى منصبه، كما عهد إلى الخليفة والقضاة الأربعة وشيخ الاسلام بالمسير فى شوارع القاهرة فى موكب، وأمامهم مناد يعلن إلغاء بعض المكوس، ويطلب من الناس الطاعة والتقوى، ويخبرهم بخطر يلبغا وثورته رغم محاولة السلطان التفاوض معه فى الصلح . كما طلب السلطان من أهالى القاهرة أن يغلقوا الدور والأبواب على الحارات وأن يساهموا فى قتال يلبغا حماية لأنفسهم .

ولم تفلح هذه الإجراءات التى اتخذها برقوق، فى دعم مركزه، خاصة وان القاهرة تعرضت فى تلك الأونة لمرض الطاعون، مما جعل البلاد تغرق فى حالة من الفوضى وعدم الاستقرار . وفى ذلك الحين كان يلبغا يقترب من القاهرة، بعد أن دانت له سائر بلاد الشام، وانضم إليه كثير من أمراء ومماليك برقوق، وعندما شعر برقوق بحرج موقفه انفجر باكيا وسط جنوده، واختفى فى منزل خياط، ودخل جنود يلبغا القاهرة وسيطروا على القلعة .

وفى القلعة استقبل الخليفة المتوكل يلبغا وجاءته وفود الأعيان والقضاة لتهنئته بالنصر، وكان من المفروض أن يعتلى يلبغا العرش لكنه لم يحاول ذلك خوفاً من معارضة زميله ومساعده فى الثورة (منطاش) حاكم ملطية، لذلك رشح للسلطنة آخر مماليك البحرية وهو (الملك الصالح أمير حاج بن الاشرف شعبان)

بحجة أن برقوق عزله من غير وجه حق، وعاد الملك الصالح إلى العــرش مـرة ثانية، وكان أن لقب هذه المرة بالمنصور، وفى المرة الاولى كان يلقب بالناصر .

وتولى يلبغا اتابكية العساكر، وقام بعملية تطهير، فأخرج مماليك برقوق مــن القاهرة وأمر بأن ينادى فى مصر والقاهرة بإلقاء القبض على الملك الظاهر برقوق، وتسليمه للأمير الكبير يلبغا الناصرى، وبالفعل تم القبض عليه متخفيا فــى منـزل خياط يدعى ابا زيد الخازن الذى اختبأ عنده، وسلم ليلبغا، الذى أكرمه خوفــاً مـن بطش الجراكسة، ولم يمسه بسوء واكتفى بأن نفاه إلى الكرك وسجنه هناك ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م.

وعندئذ بدأ يلبغا يستبد بأمور البلاد، وحجر على السلطان المنصور، وخـص نفسه بالاقطاعات دون منطاش، لذلك بدأ الصراع بين يلبغا ومنطاش، وقام الاخير ورجاله بالاستيلاء على بعض الخيول من القلعة، وحاول منطاش أن يــأخذ يلبغـا على غرة حيث أخذ يرمى على القلعة ويضربها من سطح مدرسة ومسجد السـلطان حسن، ولذا حاول يلبغا أن يتصالح معه ووسط فى ذلك الخليفة المتوكــل، ولكـن رفض منطاش الصلح، وهرب يلبغا من القاهرة، ولكن عند سرياقوس تـم القبـض عليه وحمل إلى سجن الاسكندرية .

وهكذا أصبح منطاش صاحب السلطة الفعلية، وأخذ يتقرب من السلطان أمير حاج، ويظهر له الخضوع حتى عينه فى منصب اتابك العساكر . هذا فــى الوقـت الذى خرج فيه برقوق من سجنه بالكرك، وبايعه اهله بالســلطنة ١٣٨٩م، وراح يكون جيشاً من الجراكسة الذين التفوا حوله فى الشام ومصر، وزحف بهذا الجيـش نحو دمشق . وعندما علم منطاش بذلك، عقد مجلساً حضره القضاة وشيخ الإسـلام والخليفة المتوكل، واستصدر فتوى من هذا المجلس بضــرورة الاسـتعداد لقتـال برقوق؛ وأخذ يجمع أموالاً بشتى الطرق لاعداد جيش والخروج إلى الشام لقتالــه . وعند دمشق دارت بين برقوق ومنطاش معركة، ولم ينفع منطاش وجـود الخليفـة والسلطان حاجى معه، اذ وقع كل من السلطان والخليفة فى قبضة برقـوق، وكـان لذلك أسوء الأثر فى نفوس رجال منطاش وجيشه فهزم .

وأمام تلك الهزيمة تنازل حاجى عن العرش لبرقوق، فى حين احتمى منطاش بدمشق، أما برقوق فقد ترك بلاد الشام وعاد إلى مصر، واستقبل فى القاهرة استقبالا حسنا، وبايعه الخليفة بالسلطنة، وجددت له البيعة فى القلعة (٧٩٢هـ/١٣٩٠م)، ثـم اذن برقوق لحاجى بالإقامة فى القاهرة حتى مات مسموماً على يد جواريه .

واستغرقت سلطنة برقوق الثانية تسـع سـنوات (٧٩٢-٨٠١هـــ/١٣٩٠-١٣٩٩م) واجه خلالها مشكلات فى الداخل والخارج أيضاً :-

ففى الداخل :-عمل برقوق على تثبيت حكمه عن طريق القضاء على معظـم مماليك الترك، والتخلص من خصومه وعلى رأسهم منطاش ويلبغا، فقام برقـــوق بإلقاء القبض على يلبغا وقتله فى عام (٧٩٣هـ/١٣٩١م)، اما منطاش فقد قتل فــى حلب بعده بعامين (٧٩٥هـ/١٣٩٣م) وحملت رأسه إلى القاهرة حيث علقت علــى باب زويلة . وكان على برقوق أن يواجه أيضاً بقايا المماليك من الأتراك، فعمــل على التخلص منهم الواحد تلو الآخر، كما عزلهم من وظائفهم وصــادر أموالـهم وإقطاعاتهم ووزعها على مماليكه من الجراكسة . وتمكن برقوق كذلك فى سـلطنته الثانية من إحباط مؤامرة العربان الذين ثاروا عليه. وقبض على زعمائهم فى مصـر والشام وحبسهم .

أما فى الخارج :- فكان على برقوق أن يواجه خطر تيمورلنك، وتيمورلنــك مـن أشراف المغول ومن قبيلة تدين بالإسلام، ولد فى قرية خواجا ايلغار من أعمال كش أحدى مدن بلاد ما وراء النهر، فى عام ٧٣٦هـ/إبريل ١٣٣٦م، ونال تيمورلنـــك قسطا من التعليم والتدريب العسكرى، ثم أخذ يتدرج فى الوظائف العسكرية، وأصبح نائبا لمدينة كش، ثم أميرا على سمرقند، وتمكن من التخلص من منافسيه، واستولى على سمرقند، ومن ثم تولى حكم البلاد التابعة للمغول فى اقليم ما وراء النهر وذلك فى عام ٧٧١هـ/١٣٦٩م.

وتألق نجم تيمورلنك فى سمرقند، وأتخذها قاعدة لأعماله التوسعية، فاستولى على بلاد ما وراء النهر، وبلاد خراسان وطبرستان واصفهان وكرمان، ودانت لـه

ايران، ولم يلبث أن خرب الرها، واستولى بعد ذلك على مدينة الموصل. ثم اتجه نحو بغداد لذلك كتب حكام بغداد وعلى رأسهم أحمد بن أويس إلى برقوق، يستنجدون به لصد خطر تيمورلنك، فى الوقت الذى تمكن فيه تيمورلنك من الاستيلاء على بغداد فى عام ٧٩٥هـ/١٣٩٣م ، وخربها وقتل كثيراً من اهلها .

الحقيقة أن برقوق اهتم اهتماما كبيرا بتتبع أخبار تيمورلنك، وعمل على تكوين جبهة شبه موحدة من حكام الأقاليم الشرقية ضد تيمورلنك، وضمت هذه الجبهة كل من صاحب سيواس، وخان مغول القفجاق، والسلطان العثمانى بايزيد الأول، وبعض القبائل التركمانية .كذلك أعد برقوق حملة عسكرية لمنازلة تيمورلنك، تلبية لنداء حاكم بغداد أحمد بن اويس، وذلك فى عام ٧٩٦هـ/١٣٩٤م، غير أن الظروف لم تساعد على التقاء جيش برقوق مع جيش تيمورلنك بسبب عودة تيمورلنك إلى بلاده إذ وصلته أخبار عن هجوم طقتمش خان مغول القفجاق على حدود دولته، فأجل الانتقام من دولة المماليك، إلا أن برقوق تمكن من اعادة أحمد بن أويس إلى بغداد، وقام بتثبيت أقدام المماليك فى تلك المناطق .

وعلى الرغم من عودة تيمورلنك مرة أخرى، ومحاولته الاحتكاك بدولة المماليك إذ أرسل رسالة إلى برقوق مع سفارة، وكانت رسالته كالعادة رسالة تهديد وترغيب، غير ان برقوق لم يهتم بها، وقتل رسل تيمورلنك واخذ يعد العدة للتصدى له . ولكن القتال تأجل بينهما وذلك لإنشغال تيمورلنك بتوطيد نفوذه فى دولته الواسعة، كما انه فتح جبهة جديدة لجيوشه اذ قام بمهاجمة الهند، هذا إلى جانب وفاة برقوق فى عام ٨٠١هـ/١٣٩٩م، مما أجل الصدام بينه وبين تيمورلنك .

سلطنة فرج بن برقوق (٨٠١ – ٨١٥هـ/١٣٩٩ – ١٤١٢م)

خلف برقوق على عرش السلطنة فرج بن برقوق أكبر أبنائه الثلاثة عبد العزيز وإبراهيم، وكان فرج فى العاشرة من عمره، ولذلك تولى (ايتمش البجاسى) اتابكية العساكر.

على أن أهم ما يميز فترة حكم فرج بن برقوق هى خطر تيمورلنك أو

تيمور الأعرج وعودته من الهند، ثم تهديده لبلاد الشام . فقد تمكن من الوصول إلى بلاد الشام، ووجه إنذار إلى المماليك بضرورة تسليمه حلب، ورغم تصدى المماليك له وقيامهم بالقبض على رسله وسجنهم وضرب عنقهم، الا أنه تمكن من السيطرة على حلب فى عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م واعمل فيها السلب والنهب والقتل، وأشعل فيها النيران. ومن حلب تابع تيمورلنك زحفه، فأتجه إلى دمشق، وفى تلك الأثناء بدأت الأصوات تتعالى وتنادى بضرورة الخروج لمواجهة خطر تيمورلنك، فخرج أخيرا فرج بن برقوق وبصحبته جيشه والخليفة والقضاة، لقتال تيمور ولكن حلت الهزيمة بالمماليك للمرة الثانية قرب دمشق، وتمكن تيمور من دخول دمشق، وقام بتدميرها وإشعال النيران فيها بعد أن نهبها، واضطر فرج للعودة إلى القاهرة ليستعد للقيام بمحاولة أخرى ضد تيمورلنك.

وفشل فرج فى حقيقة الأمر فى التصدى لتيمورلنك، ولكن من حسن الحظ أن قدم إلى القاهرة فى ذلك الوقت العلامة والمؤرخ ابن خلدون، وبفضله تمكن فرج من حل خلافاته مع تيمورلنك، اذ توسط هذا العلامة فى امر الصلح بينهما، وقد قبل تيمور وساطة ابن خلدون لإنه كان شديد الحرص على لقائه، بل وانه استضافه فى سمرقند لمدة أسبوعين لإعجابه به . وعندما ذهب ابن خلدون إلى سمرقند وجد كتبه ودروسه ومقدمته قد وصلت إليها . وبفضل ابن خلدون تم عقد الصلح بين فرج ابن برقوق وبين تيمورلنك فى عام ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م، ونص الصلح على أن يطلق فرج بن برقوق سراح اطلمش الذى كان أسيرا عنده وهو أحد رجالات تيمورلنك، وأن يدعى لتيمورلنك على منابر الحرمين الشريفين، وان تضرب السكة باسمه يتضح من هذه الشروط مدى المهانة التى وصل إليها السلطان فرج بن برقوق .

وبعد توقيع الصلح رحل تيمورلنك مع قواته عن الشام، ثم لم يلبث تيمور نفسه أن توفى فى عام ٨٠٧هـ/١٤٠٥م فى سمرقند، ولم يستطع أن يحقق هدفه الرامى إلى القضاء على دولة المماليك فى مصر والشام ؛ فعلى أثر وفاته تمزقت دولته من جراء النزاع حول العرش والإرث، مما ساعد دولة المماليك على أن تقف موقفا صلبا تجاه التيموريين.

كذلك اتسم عهد فرج بالمنافسات والمنازعات بين المماليك، مستغلين فى ذلك صغر سن فرج من ناحية، وعدم ايمانهم بمبدأ الوراثة من ناحية أخرى، وكانت النتيجة أن هرب فرج من القلعة واختفى فى احد البيوت، وعندئذ بايع الامراء اخوه (عبد العزيز) بالسلطنة ٨٠٧هـ/١٤٠٥م)، ولكن عندما هدأت الامور عاد فرج من جديد إلى السلطنة بعد أن اختفى لمدة شهرين.

واتصفت فترة حكمه الثانية (٨٠٧-٨١٥هـ /١٤٠٥ - ١٤١٢م) بالفوضى والاضطراب، كما اتصف فرج خلالها بالقسوة والعنف وسوء الخلق، فقد تخلص من أخويه بقتلهما، كما أدمن الخمر وراح ينكل بمماليك أبيه، حتى أن المؤرخين وصفوه (بكثرة الجهل مع قلة الدين) خاصة وأنه جعل شرب الخمر من شعائر المملكة، وذلك منذ عام ١٣٨٩/٧٩١م، فكان الأمراء يجتمعون فى الميدان الذى تحت القلعة يشربون ويسكرون بحضور السلطان، مما دفع الخليفة العباسى إلى استصدار أمر بإهدار دمه.

كذلك كثرت الفتن والثورات ضده فى بلاد الشام، فثار ضده نائب الشام الأمير نوروز، ونائب طرابلس الأمير شيخ، وزحفا بجيوشهما إلى مصر فى عام ٨١١هـ/١٤٠٨م، وخرج فرج للتصدى لهما، فهزم عند دمشق، وتم القبض عليه وظل بدمشق إلى ان اغتيل فى عام ٨١٥هـ / ١٤١٢م.

المؤيد شيخ المحمودي (٨١٥-٨٢٤هـ/١٤١٢ — ١٤٢١م) :

بعد اغتيال الناصر فرج ظهرت مشكلة أى الأميرين يتولى العرش نوروز أم شيخ ونتيجة لذلك وقع الاختيار على الخليفة العباسى المستعين ليعتلى عرش السلطنة، وكان هذا مجرد إجراء شكلى فقط، واستمرت سلطنة الخليفة المستعين خمسة أشهر نجح بعدها شيخ فى عزله، وارتقى عرش السلطنة ولقب نفسه بالمؤيد شيخ.

وواجه المؤيد شيخ بعض المشاكل فى الداخل إذ رفض الأمير نوروز الاعتراف بالسلطان الجديد، وأعلن الثورة فى بلاد الشام، فخرج إليه المؤيد وتمكن من قتله فى الشام وبذلك تخلص من منافسه العنيد.

اما فى الخارج : فكان عليه أن يواجه التركمان، وهم قبائل تركية بدأت تظهر فى اعقاب خروج تيمورلنك من بلاد الشام، وهم من اعالى الفرات ووسط آسيا، وقد أسسوا إمارات لهم على الأطراف الشمالية لدولة المماليك، ورفضوا فى البداية الخضوع لدولة المماليك . وقد خرج المؤيد مرتين إلى بلاد الشام على رأس حملتين لإخضاع هذه الإمارات (٨٢٠-٨٢٢هـ/١٤١٧ - ١٤١٩م)، وتمكن من ان ينتزع منهم يمين الطاعة والولاء، كما تعهدوا له بأن ينقشوا اسمه على نقودهم، ولكنه ما ان عاد إلى مصر حتى نقضوا عهدهم له . ولذلك أرسل إليهم ابنه إبراهيم فاستولى على بعض مدنهم ومنها (قيصرية وقونية)، وسك عملة فى بلادهم باسم أبيه المؤيد شيخ، ولم يعد إلى مصر إلا بعد أن عين حاكماً من قبله على قيصرية. وعندما عاد إبراهيم إلى القاهرة استقبل استقبالاً طيباً، ولكنه لم يلبث ان توفى ويقال ان ابيه دس له سماً على ما ناله من تقدير وشهرة ومجد.

اما عن أهم منشآت المؤيد :

فإنه شيد المسجد المعروف باسمه وهو (مسجد المؤيد شيخ) على مقربة من باب زويلة، وتتلخص قصة بناء هذا المسجد فى أنه كان مكان هذا المسجد سجن مظلم مخيف للغاية لدرجة انه كان يسمى (بئر الوطاويط)، وحدث أن سجن فيه المؤيد، فنذر ان تولى العرش -وكان هذا أمراً مستبعداً فى ذلك الوقت بالنسبة له- أن يهدم هذا السجن ويبنى مكانه مسجداً، وحدث هذا بالفعل.

وما لبث المؤيد شيخ ان توفى فى عام ٨٢٤هـ/١٤٢١م، وخلفه ابنه أحمد بوصاية الأمير ططر، الذى ما لبث ان انتزع السلطنة لنفسه، ولكنه لم يستمر طويلاً وخلفه ابنه (محمد) الذى حكم تحت وصاية برسباى عدة أشهر، وسرعان ما انتزع منه برسباى العرش، وتلقب بالأشرف برسباى ٨٢٥هـ / ١٤٢٢م.

سلطنة الأشرف برسباى (٨٢٥-٨٤١هـ/١٤٢٢ – ١٤٣٨م) :

تولى برسباى عرش السلطنة فى عام ٨٢٥هـ/١٤٢٢م، وكانت مدة حكمه ١٦ سنة، اتسمت بالاستقرار وقلة الاضطرابات، ولذلك يعد برسباى من أعظم السلاطين فى دولة المماليك الجراكسة، فهو أشبه بيبيبرس فى دولة المماليك البحرية، لما له من أهمية خاصة فى تاريخ دولة المماليك الجراكسة، فضلا عن سياسته الداخلية والخارجية المميزة.

سياسة برسباى الداخلية :- وتتمثل فى سياسة الاحتكار التى اشتهر بها عصره وتعنى أنه جعل بعض الصناعات التى تشتهر بها مصر حكراً على الدولة ومن أهم هذه الصناعات : صناعة السكر والنسيج والزيوت، ولم تعد الحكومة تسمح بتصديرها إلى الخارج، وكانت هذه السياسة بمثابة ضربة قسمت ظهر الاقتصاد المصرى فعلى سبيل المثال : كانت مصر تقوم بتصدير السكر إلى أوروبا التى كانت فى حاجة ماسة إليه، ولكن عندما جعل برسباى هذه الصناعة حكراً على الدولة ومنع تصديرها ترتب على ذلك أن قام أصحاب مصانع السكر بإغلاق مصانعهم، وبالتالى قل إنتاج السكر، وأرتفع سعره وتوقف تصديره إلى أوربا، مما دفع الدول الأوروبية إلى البحث عن مصدر آخر تحصل منه على حاجتها من السكر، ووجدت ضالتها المنشودة فى صقلية، التى حكمها المسلمون فترة من الزمان، وعن طريقهم دخلت صناعة السكر إلى صقلية ويرجع إقبال أوربا على سكر صقلية إلى انه كان ارخص سعرا من سكر مصر والشام. ولذلك ترتب على سياسة برسباى الحاق نوع من الضرر بالاقتصاد المصرى وضربه ضربة عنيفة.

أما عن تجارة التوابل التى احتكرتها مصر فى العصور الوسطى، فقد جعلها برسباى حكرا أيضا على الدولة، ولذلك زادت الرسوم الضريبية عليها، وبالتالى زادت تكاليف نقلها إلى اوربا مما دفع الأوروبيين إلى البحث عن طريق أخر لجلب التوابل بدلا من المرور بمصر، وكان هذا الطريق هو رأس الرجاء الصالح، الذى اكتشفه "فاسكو داجاما" فى عام٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م.

وعلى هذا النحو ترتب على سياسة الاحتكار التى اتبعها برسباى، الحاق الضرر بالاقتصاد المصرى، كما بدأت العملة المعروفة (بالدينار المملوكى) تفقد قيمتها فى الأسواق. حقيقة أن الأشرف برسباى حاول إصلاح العملة بإصدار عملة جديدة عرفت باسم (الدينار الاشرفى) نسبة اليه، ولكن لم يكن لها نفس الثقل التجارى والاقتصادى، الذى كان للعملة البندقية فى ذلك الوقت والتى كانت فى ذلك الحين اشبه بالدولار فى العصر الحديث، لذلك لم يكن فى إستطاعة الدينار الاشرفى الوقوف فى وجهها، وبذلك شكلت سياسة الاحتكار الاقتصادى التى اتبعها برسباى خطرا على تاريخ دولة المماليك.

ورغم سياسة الاحتكار التى أتبعها برسباى وما ترتب عليها من إلحاق الضرر بالاقتصاد المصرى إلا أن عصره امتاز بالاستقرار مع قلة الاضطرابات.

سياسة برسباى الخارجية :

وتتلخص فى نجاحه فى استعادة جزيرة قبرص التى اتخذها القبارصة مركزاً وقاعدة لضرب موانئ مصر والشام الإسلامية فى شرق البحر المتوسط، وفى تهديد تجارة المسلمين كذلك، ولعل أوضح مثال على ذلك هو حملة بطرس لوزجنان على الإسكندرية فى عام٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م. وعلى الرغم عقد الصلح بين القبارصة ودولة المماليك بعد هذه الحملة بخمس سنوات (٧٧٢هـ/١٣٧٠م) إلا أن إعتداءات القبارصة على الموانئ الإسلامية فى مصر والشام لم تنقطع، كذلك اتخذ القراصنة جزيرة قبرص قاعدة لنشاطهم فى مهاجمة الثغور الإسلامية فى تلك الفترة، مما جعل من الصعب على المسلمين اقتفاء أثرهم والقبض عليهم.

ونظراً لخطورة هذه الجزيرة فقد قام سلاطين المماليك بعدة محاولات أو حملات لغزوها قبل عصر برسباى، ومن هذه المحاولات محاولة السلطان الظاهر بيبرس غزو جزيرة قبرص فى عام٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م، ولكن باءت محاولته بالفشل، وكذلك حاول يلبغا الخاصكى أن ينتقم مما حل بالإسكندرية على يد بطرس لوزجنان فى عام٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م، فقام فى عهد السلطان الأشرف شعبان ببعض الإغارات

على جزيرة قبرص، ولكنها لم تتخذ شكل الغزو الشامل للجزيرة. وظل الحال على ذلك حتى اعتلى برسباى عرش السلطنة فى عام٨٢٥هـ/ ١٤٢٢م فسعى لفتح هذه الجزيرة ودفعه إلى ذلك أسباب من بينها ما يلى :-

- عدم انقطاع اغارات القبارسة عن الشواطىء المصرية، اذ اعتدى بعض القراصنة على مركب لاحد تجار دمياط عام٨٢٦هـ/ ١٤٢٣م، واسروه وساقوه إلى قبرص.
- وجد برسباى فى غزو جزيرة قبرص وسيلة ليصرف منافسيه من الأمراء عن أن يسببوا له المشاكل والفتن الداخلية.
- علم السلطان أن الفرنج أخذوا مركبين من مراكب المسلمين قرب ثغر دمياط فيهما بضائع كثيرة، وعدد من الناس يزيدون على المائة رجل وذلك فى عام٨٢٦هـ/ ١٤٢٣م.
- كما علم برسباى أن "جانوس" ملك قبرص استولى على سفينة محملة بالهدايا، كان قد أرسلها برسباى إلى السلطان العثمانى مراد. ولهذه الأسباب مجتمعة أمر برسباى بالاستيلاء على أموال التجار الفرنج المقيمين بالثغور المملوكية، ومنعهم من السفر إلى بلادهم كما قرر غزو قبرص، وأخذ يعد العدة لذلك، وقد قام برسباى بثلاث حملات لتحقيق هذا الغرض. .

الحملة الأولى (٨٢٧هـ/ ١٤٢٤م) :

وكانت هذه الحملة فى حقيقة الأمر حملة استطلاعية استكشافية، الغرض منها تحديد مسئولية قبرص من هؤلاء القراصنة، ولذلك كانت حملة صغيرة، وسرعان ما عادت إلى مصرفى اواخر عام ١٤٢٤م بعد أن دمرت ما قبلها من سفن قبرصية، وبعد أن حصل المسلمون على الكثير من الغنائم، وترجع أهمية هذه الحملة إلى انها أعطت السلطان فكرة واضحة عن ضعف الجزيرة، وأنها مسئولة هى وملكها (جانوس) عن أعمال القراصنة.

الحملة الثانية (٨٢٨هـ/ ١٤٢٥م) :

بعد عودة الحملة الأولى أخذ برسباى يستعد لإرسال الحملة الثانية لغزو جزيرة قبرص، واهتم برسباى بإعداد هذه الحملة اهتماما كبيرا، ومن مظاهر اهتمامه بإعدادها، أنه حرص على زيارة دار صناعة السفن ببولاق يومياً لتفقد سير العمل فى بناء الأسطول، وبعد الانتهاء من إعداد السفن اللازمة، غادرت الحملة شواطئ مصر فى رجب ٨٢٨هـ/ يوليو ١٤٢٥م فى طريقها إلى قبرص، واتجهت أولا إلى بلاد الشام ومنها إلى قبرص وحققت هذه الحملة بعض الانتصارات إذ تمكن رجالها من النزول إلى بر الجزيرة، وأخذوا يحرقون القرى ويخربونها ويقتلون ويأسرون، حتى نأت سفنهم عن حمل الأسرى لكثرتهم. وعادت الحملة بعد هذا الانتصار إلى القاهرة حيث استقبل الغزاة استقبالا حافلا، وطافوا بشوارعها ومعهم الاسرى.

الحملة الثالثة (٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م) :

ونظراً لأن حملة برسباى السابقة لم تحقق أمله فى السيطرة على جزيرة قبرص، وعادت فقط بالغنائم وإعداد كبيرة من الأسرى، لذلك قرر برسباى، أن يرسل حملته الثالثة إلى قبرص، وهناك عدة عوامل جعلته يصر هذه المرة على ضرورة إخضاع الجزيرة منها:-

- تحريض الجنوية لبرسباى على جانوس ملك قبرص لعدائهم للأخير.
- استنجاد الأتراك المسلمون المقيمون على شاطئ آسيا الصغرى بدولة المماليك لحمايتهم من عدوان قبرص وملوكها.
- استنجاد جانوس ملك قبرص بالغرب الأوروبى ليقف إلى جواره فى صراعه مع دولة المماليك. لذلك قرر برسباى أن يرسل حملته هذه على الفور للسيطرة على الجزيرة، وقد جعل على رأس الجيش الأمير (تغرى بردى المحمودى)، وجعل الأمير (اينال) على رأس الأسطول. ونجحت هذه الحملة فى التوغل داخل جزيرة قبرص، ولم يقتصر نشاطها على ساحل تلك الجزيرة، ودارت

معركة فاصلة على أرض الجزيرة بين قوات جانوس ملكها وبين قوات المماليك، أسفرت عن هزيمة القبارصة، ووقوع جانوس اسيراً، ودخول المماليك العاصمة القبرصية (نيقوسيا) ؛ ورفع الرايات السلطانية عليها.

وعاد الجيش والأسطول السلطاني إلى مصر، وبصحبتهم الأسرى، وفي مقدمتهم جانوس ويقال أن جانوس عندما رأى برسباى راح يستعطفه حتى وافق على اطلاق سراحه مقابل ٢٠٠ ألف دينار، يدفع نصفها عاجلاً والنصف الآخر عند عودته إلى بلاده ؛ ولكن اشترط عليه برسباى أن تظل قبرص تابعة لدولة المماليك، وان يحكمها جانوس نائباً عنهم ؛ وقبل جانوس هذه الشروط، فاطلق سراحه وعاد إلى بلاده. وهكذا حقق برسباى نصراً عظيماً لدولة المماليك الجراكسة باخضاعه جزيرة قبرص مما أضفى على عصره اهمية كبرى.

أما عن أهم منشاته :- فهى المدرسة الاشرفية فى شارع المعز، وخانقاه فى القرافة الشرقية.

السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ/ ١٤٣٨ -١٤٥٣م) :

مات برسباى فى عام ٨٤١هـ/١٤٣٨م وخلفه ابنه يوسف الملقب (بالعزيز) وكان فى الرابعة عشر من عمره، لذا لم يستطع الاحتفاظ بالعرش مدة طويلة، فما لبث جقمق الواصى عليه أن نجح فى انتزاعه منه، ولقب جقمق بالظاهر، وكان معتدلاً فى حكمه وعرف بالتدين والورع حتى أنه حرم شرب الخمر والمعاصى.

المشاكل التى واجهته فى الداخل :

امتاز عهد جقمق الذى استغرق خمسة عشر عاما بالهدوء باستثناء ثورتين، ثورة قام بها اتابك العساكر قرقماش الشعبانى وأخرى قام بها (اينال) نائب دمشق، ونجح جقمق فى القضاء على هاتين الثورتين.

أما فى الخارج :-فقد قام جقمق بغزو جزيرة رودس، وكانت هذه الجزيرة قاعدة للفرسان الاستبارية منذ عام ٧٠٨هـ/١٣٠٨م، وهم الذين قاموا فى بلاد الشام بدور كبير فى خدمة القضية الصليبية، وعندما انتهى الوجود الصليبي من بلاد الشام، انتقلوا إلى تلك الجزيرة من بلاد الشام بعد انتهاء الوجود الصليبى بها، ومن هناك واصلوا نشاطهم ضد المسلمين . وقد أحس الاسبتارية بالخطر الذى يتهددهم بعد نجاح المماليك فى استعادة جزيرة قبرص على يد الاشرف برسباى، لذلك أسرعوا بتقديم الهدايا لبرسباى، وتعهدوا بأن يدفعوا جزية سنوية لسلطنة المماليك ولكن برسباى لم ينس موقفهم من المسلمين، ولو طال به العمر لقام بغزو جزيرتهم. ولذلك كان من الطبيعى أن يكمل جقمق مسيرة سلفه برسباى ويقوم بغزو جزيرة رودس وقد شجعه على ذلك :-

<u>أولاً</u> : تحريض السلطان العثمانى (مراد الثانى) جقمق على غزو رودس، وكان يهدف من وراء ذلك الا ينضم الأسبتارية إلى الحلف المسيحى، الذى كان على وشك أن يتألف بين القوى المسيحية لشن حملة صليبية على العثمانيين فى البلقان.

<u>ثانياً</u> : عدم انقطاع إغارات القراصنة على الشواطئ المصرية، فقد أغارت أربع سفن على رشيد، ولما كانت قبرص قد أخضعت للمماليك، فإن الشبهات اتجهت نحو رودس التى أمست القاعدة الوحيدة للصليبيين فى شرق المتوسط.

<u>ثالثاً</u> : اراد جقمق بغزوه لرودس أن يحقق لنفسه مجداً كالذى حققه برسباى، وأن يخفى حقيقة هامة وهى أنه اغتصب العرش، إلى جانب رغبته فى أن يصرف المماليك عن المنازعات الداخلية، ويوجه جل جهودهم وطاقتهم نحو الغزو والجهاد.

<u>ارسل جقمق كذلك ثلاث حملات إلى رودس :-</u>

الحملة الأولى : فى عام ٨٤٤هـ/١٤٤٠م وكانت حملة صغيرة، وتصدى لها أسطول الاسبتارية وأنزل بالسفن الإسلامية بعض الخسائر.

الحملة الثانية : أرسل جقمق حملته الثانية إلى جزيرة رودس فى عام ٨٤٧هـ/١٤٤٣م، وكان على رأسها (اينال) وقد حققت نجاحاً اكثر من

الحملة الأولى، فقد دمرت بعض الحصون الساحلية فى الجزيـرة، وعـادت بسبب عواصف الشتاء.

الحملة الثالثة : وهى أكبر الحملات التى أرسلها جقمق لغزو رودس عدداً وعـدة، وقامت هذه الحملة بحصار مدينة رودس العاصمة لمدة اربعين يوماً، غـير أنها عجزت عن الاستمرار فى الحصار وقتال الاسبتارية ويرجع ذلـك إلـى شدة مقاومة الاسبتارية الذين صمدوا للدفاع عن مدينتهم، وما حصلوا عليه من مساعدات من العالم المسيحى الغربى، مما دفع قائد الحملة إلى العودة إلى مصر حرصاً على سلامة قواته. واخيراً تم الصلح بين الاسبتارية فى رودس والسلطان جقمق فى مصر، وتعهد الاسبتارية بعدم الاعتداء على السفن ولا المتاجر الإسلامية.

وما لبث جقمق ان توفى ٨٥٧هـ/١٤٥٣م وخلفه ابنه المنصور (عثمان) على عرش السلطنة، ولم يستمر سوى ٤٣ يوماً عزله بعدها الأمير اينال، وحل محله وتلقب بالأشرف اينال، وأهم ما يميز عصره ثورات المماليك الجلبان، الذين ثاروا سبع مرات فى مدة حكمه التى تتراوح أو تقدر بثمانى سنوات.

ومن أهم منشآته :-

مدرسة الأشرف اينال فى القرافة الشرقية وجامع فى المغربلين، وحمام فى فى شارع المعز (الفحامين).

السلطان الاشرف قايتباى (٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٨-١٤٩٦م)

يعتبر من أبرز سلاطين دولة المماليك الجراكسة لأنه حكم فترة طويلة تقدر بتسعة وعشرين عاماً، وهى أطول مدة حكمها سلطان بعد الناصر محمد بن قلاوون. وقد أثبت قايتباى خلال فترة حكمه الطويلة أنه من أجدر سلاطين المماليك فى ميدان الحرب، وأوسعهم خبرة بشئون العالم الخارجى، وأكثرهم شجاعة وحكمة حقيقة انه تعسف فى جمع الأموال، وفى فرض الضرائب، إلا أنه أنفقها على المنشآت العديدة العامة وعلى حروبه.

ومن أهم منشآته :-

- قلعة قايتباى بالإسكندرية، وأنشأها لحراسة المدينة من ناحية البحر والدفاع عن مصر، والتصدى لغارات القراصنة، الذين كثروا فى البحر وقطعوا الطريق على سفن التجارة. ولا تزال هذه القلعة قائمة حتى اليوم، وهى واحدة من أهم قلاع ثلاث أنشأها قايتباى هى ورشيد والكبش.
- مسجد قايتباى بالقاهرة، هذا إلى جانب سبيل وكتاب فى شارع الصليبية، وسبيل أخر داخل جامع أحمد بن طولون.
- أنشأ قايتباى عددا من الوكالات، تعد من أجمل المبانى العربية فى ذلك العصر.
- كما أنه قام بترميم وإصلاح المنشآت التى أقامها أسلافه، ويشهد على ذلك الكتابات العديدة المدونة على جدران المساجد والمدارس والقلعة وغيرها.

وتعرضت البلاد فى عهده لوباء الطاعون نتيجة للقحط، مما أدى إلى قلة الأقوات وارتفاع الأسعار، وقتل الوباء أعداد كبيرة من الناس، وكان من بين ضحايا الطاعون زوجة السلطان وابنته، كما انتشر أيضاً طاعون المواشى.

وكان على قايتباى خلال فترة حكمه أن يواجه خطرين قادمين من الخارج، الأول من قبل التركمان، والثانى من جانب العثمانيين.

فقد هددت الإمارات التركمانية الأطراف الشمالية لدولة المماليك فى شمال الشام والعراق، وأهم هذه الإمارات : دلغادر، ورمضان، وقرمان، والشاه البيضاء والشاه السوداء. وحاول قايتباى ان يحد من نفوذ هذه الامارات حتى لا تصبح أداة تساعد على تغلغل العثمانيين فى أطراف دولة المماليك من ناحية الشمال، خاصة بعد ان تزايد نفوذ العثمانيين، وتدخلوا فى شئون تلك الإمارات، لذلك أرسل إليهم قايتباى عدة حملات تمكنت من إخضاعهم لدولة المماليك.

أما عن العثمانيين فكانوا يعشون فى بداية الأمر فى إقليم خراسان، ثم تحركوا غرباً تحت ضغط المغول، واستقروا فى آسيا الصغرى، وأخذوا يتوسعون فيها على حساب دولة سلاجقة الروم المنهارة، وعلى حساب القبائل التركية الكثيرة التى

وجدت فى آسيا الصغرى، كما توسعوا على حساب الدولة البيزنطية حتى أنهم استولوا على عاصمتها القسطنطينية ١٤٥٣م.

وسرعان ما بدأ الصراع بين القوتين الأعظم العثمانيين والمماليك فى مصر والشام، وحاول كلا الطرفين أن يستأثر بزعامة العالم الاسلامى؛ كما حاول السلطان العثمانى (بايزيد) أن ينفرد بحماية الحرمين الشريفين، فطلب من قايتباى السماح له بالقيام باصلاحات فى مكة، ولكن رفض قايتباى طلبه، لذلك راح بايزيد يتحرش بدولة المماليك وأتخذ من الإمارات التركمانية الخارجة على المماليك وسيلته فى ذلك؛ ومع ذلك لم يحدث إحتكاك فعلى بين المماليك والعثمانيين سوى فى عهد الغورى.

وسرعان ما ساءت صحة قايتباى بعد أن جاوز الثمانين من عمره، فتنازل لابنه محمد عن العرش وكان فى الرابعة من عمره، وتوفى قايتباى بعد ذلك مباشرة فى عام٩٠١هـ/ ١٤٩٦م. وكان من الطبيعى أن يحدث تنافس بين الأمراء على الوصاية عليه باعتبارها الطريق الى عرش السلطنة، على اية حال تولى عرش السلطنة عدد من السلاطين كان من أشهرهم :

السلطان قانصوه الغورى (٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠١ - ١٥١٦م) :-

اعتلى الغورى عرش السلطنة وهو فى الستين من عمره، ومع ذلك فقد اثبت انه رجل قوى صلب، ويظهر ذلك من خلال ما قام به من إعادة الأمن والنظام والاستقرار بعد الفوضى والاضطراب، وذلك بأن عهد بمناصب الدولة إلى من يثق فيهم من كبار الأمراء، كما حاول الغورى أن يحل الأزمة المالية التى عانت منها البلاد بعد أن أفلست خزانتها، ولحل هذه الأزمة اتبع بعض الإجراءات التعسفية ومنها:-

- انه جمع ضرائب عشرة اشهر مرة واحدة.
- كما فرض ضرائب جديدة على الحوانيت (الدكاكين) والاراضى والعقارات والطواحين والسفن، ودواب النقل، وخدم القصور، بل على الأوقاف الأهلية أو الخيرية نفسها.

- ضاعف من الرسوم الجمركية.
- تلاعب بالعملة مما اضر بالتجارة ضرراً بالغاً.

حقيقة أنه ترتب على ذلك أن جمع الغورى أموالاً كثيرة، وسد بها عجز خزينة الدولة، ولكن ازدادت حالة الشعب سوءاً، وأخذ يئن من قسوة الضرائب الباهظة. وقد استخدم الغورى الأموال التى جمعها فى الإكثار من شراء المماليك، وتشيد جامع ومدرسة فى الحى الذى سمى بعد ذلك باسمه وهو حى الغورية؛ كما وجه اهتمامه نحو طرق الحج فحفر بها الآبار وأقام بها الكثير من الاستراحات ؛ فضلاً عما قام به من حفر بعض الترع، وتحصين الاسكندرية ورشيد واصلاح القلعة.

ولم يحدث فى عصر الغورى اية ثورات داخلية اللهم الا ثورات المماليك الجلبان والعربان، وهى من الثورات المألوفة فى كل عصر. ومع ذلك فقد كان عليه ان يواجه مشكلتين على الصعيد الخارجي، أحداهما : من جانب البرتغاليين، والأخرى من جانب العثمانيين.

أولا : المماليك والبرتغاليون :

أدت حركة المغول التوسعية فى القرن (٧هـ / ١٣م) الى توقف طرق التجارة الرئيسية بين الشرق والغرب، وبخاصة طريق الخليج الفارسى والطريق البرى المار بسمرقند، ونتج عن ذلك أنه لم يعد هناك سوى طريق واحد آمن للتجارة وهو البحر الأحمر ومصر، واستغل المماليك هذه الفرصة، وفرضوا رسوم جمركية مرتفعة على السلع القادمة من آسيا والتى تحتاج إليها أوروبا، وتحرص على استيرادها ويأتى فى مقدمتها : التوابل، واحتكر المماليك هذه السلع لدرجة أنها كانت تباع فى موانئ مصر كالإسكندرية ودمياط بثمن يفوق ثمنها الأصلى أربعين مرة، مما دفع الأوروبيين للبحث عن طريق آخر لجلب بضائع الشرق وسلعه بأسعار ارخص، وكان ان استطاع البرتغاليون وفاسكو دى جاما اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م والوصول إلى الهند عن طريق الدوران حول افريقيا، وقد ترتب على ذلك نتائج من اهمها :-

أولا : استطاع البرتغاليون ان يوفروا للسوق الأوروبية سلع الشرق الاقصى وعلى رأسها التوابل بثمن ضئيل، يقدر بربع الثمن، الذى كانت تباع به فى اسواق وموانئ مصر.

ثانيا : تهديد مركز مصر الاقتصادى كطريق رئيسى للتجارة بين الشرق والغرب، وانتقال زمام التجارة من أيدى المماليك إلى أيدى البرتغاليين ؛ مع حرمان المماليك من المورد الاول الذى استمدوا منه عظمتهم وقوتهم.

وحاول الغورى حل هذه المشكلة بعدة طرق منها :-

١) أنه أرسل حملة إلى قاليقوط لطرد البرتغاليين من الهند، وتحريض المسلمين بها على طردهم وقتالهم، غير أن جهوده ضاعت هباء لان حكام الهند المسلمين، لم يحركوا ساكناً لقتال البرتغاليين.

٢) وجه الغورى نداء الباب يطلب منه منع البرتغاليين والأسبان من التعرض للمسلمين فى الشرق والغرب، كما قام بتهديد القوى الأوروبية غير أن هذه القوى لم تتأثر بذلك، ولم تتخل عن التعامل مع البرتغاليين، الذين وفروا للسوق الأوروبية حاجتها من التوابل وبأسعار رخيصة.

٣) لجأ الغورى إلى القوة، فأعد اسطولا وارسله فى حملة إلى البحر الأحمر. ورغم نجاح هذه الحملة وتمكنها من إنزال الهزيمة بالبرتغاليين قرب شواطئ الهند الغربية، إلا أن البرتغاليين سرعان ما انتقموا لأنفسهم بأن هزموا الأسطول المصرى فى معركة (ديو البحرية) بالقرب من كلكتا فى عام ٩١٥ هـ / ١٥٠٤م ثم هاجم البرتغاليون عدن نفسها وانتهت محاولات الغورى بالفشل وضاعت مكانة مصر كوسيط تجارى بين الشرق والغرب.

وإذا كان خطر البرتغاليين قد ترتب عليه ذبول تجارة المماليك، فإن هناك خطر أخر ترتب عليه سقوط دولة المماليك نفسها، الا وهو خطر العثمانيين.

ثانياً : المماليك والعثمانيون :-

ترتب على نجاح العثمانيين وعلى رأسهم السلطان سليم الأول فى الانتصار على الصفويين واستيلائهم على إقليم الجزيرة والموصل من ناحية، وقضائهم على

بعض الإمارات التركمانية من ناحية أخرى، أن أصبحت حدود الدولة العثمانية تلامس حدود دولة المماليك، مما دفع الغورى إلى اتخاذ بعض الإجراءات ومنها : التحالف مع الشاه إسماعيل الصفوى، والترحيب بالخارجين على الدولة العثمانية. فقد آوى الغورى الأمير قاسم العثمانى - ابن اخى سليم - الذى فر بعد ان قتل السلطان اباه.

ومن ثم بدأ يحدث نوع من الاحتكاك بين المماليك والعثمانيين، وأخذ الغورى يستعد لقتالهم خاصة بعد ان علم بأخبار الحشود والاستعدادات، التى يجريها السلطان سليم الاول قرب حدود دولة المماليك.

وبدأ الغورى أولاً باسترضاء المماليك الجلبان، الذين ثاروا فى القاهرة لتأخر رواتبهم، ثم أخذ يستعد للمعركة، فأستدعى الجند إلى ديوان الجيش، واعد معدات الحرب، وأسرع بتحصين قلعة قايتباى فى الإسكندرية. وفى تلك الأثناء وصلت رسالة من "خاير بك" نائب حلب، تتلخص فى أن استعدادات السلطان سليم الأول غير موجه لضرب دولة المماليك، ولكن لضرب الصفويين، ومحاربة الشاه إسماعيل الصفوى .ولكنه كان خائن فى حقيقة الأمر، وكان حليفا للعثمانيين، وسيكون لذلك أثر كبير فى هزيمة الغورى على يد العثمانيين.

غير أن السلطان الغورى لم ينخدع بهذه الرسالة، وراح يواصل استعداداته، وعقد مجلسا للحرب، واستقر رأى الجميع على إرسال حملة كبيرة إلى حلب، ويكون السلطان نفسه على رأسها. عندئذ وصلته رسالة ثانية من خاير بك، ومعها رسالة من السلطان العثمانى، تحتوى على عبارات المودة والمحبة والرغبة فى التعايش السلمى مع المماليك .غير أن هذه الخدعة لم تدخل على السلطان الغورى، وقرر الخروج إلى الشام لقتال العثمانيين، وعين الأمير طومان باى نائباً عنه فى السلطنة.

وعندما وصل الغورى إلى حلب وصله رسولين من قبل سليم الأول، يطلبان الصلح والمفاوضة، وذلك بقصد الخديعة، وبعث الثقة فى نفس الغورى حتى يأخذه على غرة، ورغم أن الغورى احسن استقبال رسل السلطان سليم إلا انه كان يدرك نية العثمانيين، وليس أدل على ذلك من أنه استدعى خاير بك وسائر الأمراء،

وطلب منهم أن يحلفوا على القرآن، أنهم لن يخونه فى ساعة الشدة؛ مما يدل على توقع الغورى الشر من جانب سليم الأول العثمانى.

وأرسل الغورى فى ذات الوقت رسولاً بدوره الى السلطان سليم، الذى ما أن كادت تصله الإمدادات حتى أساء معاملة هذا الرسول، ورفض الحديث معه وقال له : " قل لاستاذك يلاقينا عند مرج دابق ".

وكان أن دارت معركة مرج دابق (إحدى قرى بلدة عزاز على مقربة من حلب)٩٢٢هـ/ ١٥١٦م. واظهر فيها الغورى والمماليك شجاعة نادرة، فقتلوا كثير من العثمانيين، واستولوا على بعض آلاتهم وأعلامهم، وفى هذه المعركة ظهرت خيانة خاير بك، فقد أطلق الكثير من الشائعات بين صفوف الجنود المماليك، فتارة أشاع أن السلطان ومماليكه من الأجلاب لن يتقدموا، وأخرى يشيع أن السلطان قتل فى ميدان المعركة، وأخيرا انسحب من ميدان القتال ليحذو حذوه بقية الجيش وهكذا لعبت الخيانة دورها فى هزيمة المماليك فى معركة مرج دابق، وهزم جيش المماليك وولى معظمه الفرار، ولم يتحمل الغورى قسوة الموقف، وسقط من فوق جواده صريعاً على الأرض.

وتكمن أهمية معركة (مرج دابق) فى أنها كانت لقاء بين قوتين قوة شابة على درجة كبيرة من القوة، استخدمت فى ميدان القتال أحدث الأسلحة وأهمها البارود، مع قوة هرمة كل الدهر عليها وشرب، قوة متمسكة بأسلحتها القديمة وهى السيف والرمح والقوس مما جعلها تسقط وتهزم فى مرج دابق.كما حددت معركة مرج دابق مستقبل مصر والشام لعدة قرون تالية خاصة وقد انتاب أهل مصر بعد عودة جيش المماليك مهزوماً مدحوراً نوعا من الخوف والفزع والرعب، مما دفع الأمراء إلى الإسراع باختيار طومان باى سلطاناً على البلاد.

<u>طومان باى وسقوط دولة المماليك</u> (٩٢٣هـ/١٥١٧م):-

تولى طومان باى عرش السلطنة فى ظروف لا يحسد عليها خاصة وقد نجح العثمانيون فى السيطرة على معظم بلاد الشام ولم يبق أمامهم سوى مصر. ولذلك راح طومان باى يحث العامة تارة والمماليك تارة أخرى لكى يخرجوا للقتال. تسلم طومان باى فى أوائل سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م رسالة من السلطان سليم الأول، يعيره فيها بأصله، ويقول له فيها "انك مملوك تباع وتشترى، ولا تصح لك ولاية ملك". وطلب منه فى هذه الرسالة ان يحكم مصر نائباً عنه واذا رفض فسوف يدخل مصر، ويقتل جميع من فيها من المماليك.

وفى الوقت الذى وصلت فيه رسالة السلطان سليم إلى طومان باى، كان خايربك يعمل على تسهيل مهمة العثمانيين، فأرسل الى أمراء مصر كتب يحثهم فيها على الدخول فى طاعة ابن عثمان، ويوضح لهم محاسنه وعدله.

أما عن طومان باى فقد وطد العزم على الخروج لقتال العثمانيين، رغم عدم استجابة المماليك لندائه، ورفضهم الخروج معه للقتال، واتخذ طومان باى من (الريدانية) قرب العباسية مركزاً للدفاع ضد العثمانيين اذا قدموا إلى مصر. وتقابل العثمانيون بالفعل مع المماليك عند الريدانية، وهزم المماليك وفر طومان باى بعد مقاومة عنيفة.

وترجع هزيمة المماليك فى الريدانية الى الخيانة كذلك، وكان على رأس الخونة خاير بك الذى افشى خطة المماليك للسلطان العثمانى سليم الأول، مما جعله يدخل القاهرة عن طريق الشرقية وليس عن طريق الريدانية وبذلك تجنب تحصينات الأخيرة، هذا إلى جانب موقف أمراء المماليك السلبى وتقاعسهم عن الخروج لقتال العثمانيين.

وقد ترتب على هزيمة المماليك فى الريدانية أن أصبحت القاهرة مدينة مفتوحة أمام العثمانيين، فدخلوها فى يوم الجمعة ٢٣ يناير سنة ١٥١٧م دون ادنى مقاومة، وذكر اسم سليم الأول فى الخطبة على منابرها فى ذلك اليوم كما قام العثمانيون بنهب القاهرة واستولوا على ما بها من كنوز.

أما طومان باى فقد ظل يواصل مقاومة العثمانيين فى طرقات القاهرة وأحيائها حتى نجح فى إخراج سليم منها بعد أن دخلها، ولكن حالت الخيانة بينه أيضاً هذه المرة وبين تحقيق أى انتصاراً على العثمانيين، فقد فوجىء طومان باى بهجوم البدو والأعراب على مؤخرته، مما جعله بين نارين، واضطر إلى التقهقر الى قرب "وردان "فى ابريل عام ١٥١٧م، حيث دارت معركة بين جيشه الصغير وجيش العثمانيين، انتهت بانتصار العثمانيين، وفرارطومان باى ثانية إلى أحد

مشايخ العربان بالبحيرة ليحتمى عنده، ويدعى (حسن بن مرعى) وكان طومان باى قد أخرجه من السجن أيام الغورى، ولكنه نسى هذا الفضل وقام بتسليم طومان باى للسلطان سليم، وزج به السلطان فى السجن وقال " الآن ملكنا مصر ".

وسيق طومان باى إلى باب زويلة حيث شنق فى أبريل ١٥١٧م، وصرخت العامة لأجله فقد كان شاباً فى الرابعة والأربعين من عمره، شجاعاً، بطلاً تصدى لقتال العثمانيين.

وبدخول العثمانيين مصر ينتهى تاريخ مصر فى العصور الوسطى بصفة عامة وتاريخ دولة المماليك بصفة خاصة وتبدأ مصر صفحة جديدة من تاريخها.